

ليزا
إيفان تورجنيف

- Author : Ivan Turgenev
 - Title: Liza
 - Translated by: Sleim Al Asiouty
 - Afaq's first edition: 2019
 - Cover Design by: Hossam Al Sawah
 - Publishing Consultant: Sawsan Bashier
 - General Manager: Mostafa Alsheikh
- ♦ المؤلف: إيفان ترجنيف
 - ♦ العنوان: ليزا
 - ♦ ترجمة: سليم الأسيوطي
 - ♦ طبعة أفاق الأولى 2019
 - ♦ تصميم الغلاف: حسام السواح
 - ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
 - ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٨ / ٨٠٠٥

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 156 - 1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

إيفان تورجنيف

ليزا

رواية

ترجمة

سليم الأسيوطي

مراجعة

مصطفى حبيب

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

تورجنيف، إيفان.

إيفان تورجنيف : ليزا - ترجمة: سليم الأسيوطي

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019

320 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 8005 / 2018

الترقيم الدولي 1 - 156 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - تورجنيف، إيفان

إيفان تورجنيف

ولد إيفان تورجنيف مؤلف القصة في اليوم الثامن والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨١٨ من والدين من الطبقة الأرستقراطية، فقد كان أبوه «سرجي تورجنيف» ينحدر من أسرة أمير تترى يدعى خان تورجا، وأمه فارفا بتروفنا من أسرة واسعة الثراء ذات مكانة ونفوذ.

كان مولده في مقاطعة أوريل في جنوب موسكو، وهي مزرعة القمح الروسية التي تزود أوروبا بحاجتها منه؛ ولذا فقد أمضى إيفان طفولته في جو الريف الروسي المنعزل بعيداً عن أضواء المدينة وضوضائها.

كان مولد إيفان في عهد حكم الإمبراطور نقولا الأول الذي اتسم بالطغيان والقسوة، وبلغ نظام الرق في إبنائه أبشع صورته وأقصى مداه.

وكانت حرية الفكر والقول والكتابة جريمة لا يكفر عنها إلا السجن والنفي إلى سهوب سيبيريا، ولذا فإن كثيرين من الكتّاب والأدباء والشعراء لقوا هذا المصير. وكان إيفان أحد ضحايا هذا النظام الجائر، قضى معظم أيام حياته مغترباً في ألمانيا أو في فرنسا التي اتخذها وطناً ثانياً له، فلقد أمضى هناك سنوات كثيرة من حياته، وفي أخريات أيامه ألح عليه مرض السل، فتهدمت صحته وانهار بنيانه وسقط صريع هذا الداء الويل عام ١٨٨٣.

ولقد نال إيفان تورجنيف من الشهرة وبُعد الصيت ونباهة الذكر ما هو به خليق، فهو فنان كامل يقف على قدم المساواة مع أساطين الكُتَّاب وعمالقة الأدب في العالم، فقد بلغ أرفع درجات الكمال في تصوير شخوصه بلمسات قليلة سريعة وهو يعرضهم على لوحاته.

أما عن مكانة «عش النبلاء» أو «ليزا» بين أعمال تورجنيف، فيكفي أن نورد هنا ما قاله عنها الناقد الفيكونت دي فوج: «لا أعدو الحقيقة إذا قلت إنها أروع ما أبدعت قريحة تورجنيف.. وهي تحتل في الأدب الروسي المكانة التي تحتلها «آلام فرتر» في الأدب الألماني».

المترجم

سليم الأسيوطي

الفصل الأول

كان يوم جميل من أيام الربيع يقترب من نهايته، ففي علياء السماء الصافية كانت تسبح الغيوم الوردية الصغيرة التي بدت كأنها لا تتزحزح، ولكنها تتسرب ويئداً في الأعماق الزرق عبر الفضاء.

وعند نافذة مفتوحة في دار فخمة تقع في أحد الشوارع على مشارف مدينة «آو» -وهي المدينة الرئيسة لحكومة تحمل ذلك الاسم- وكان ذلك في عام ١٨٤٢، كانت تجلس سيدتان... إحداهما في حوالي الخمسين من العمر، والأخرى في السبعين.

كان اسم الأولى ماريا ديمتريفنا كاليتين، وزوجها الذي كان فيما مضى يشغل منصب حاكم إقليمين، والذي كان يشتهر في زمنه بأنه رجل أعمال ناجح ذو مزاج حاد.. جريء ثابت الجنان.. واسع المشروعات، قضى نحبه منذ عشر سنوات، وقد تربى تربية طيبة، ودرس في الجامعة، ولكن لما كانت الأسرة التي انحدر منها رقيقة الحال، فقد عرف في سن مبكرة ضرورة بناء مستقبل له، وضرورة كسب المال.

وتزوجته ماريًا ديمترييفنا عن حب، فقد كان جميل المحيا، جياش الشعور، بوسعه أن يكون حلو المعشر عندما يريد. أما ماريًا ديمترييفنا والتي كان اسمها بستوف قبل الزواج، فقد فقدت أبويها وهي لا تزال طفلة غضة الإهاب، أمضت عدة سنوات في معهد موسكو، ومنه ذهبت لتعيش في كنف أخ لها وإحدى عماتها في بوكروفسكوي، وهي ضيعة الأسرة التي تقع على مسيرة خمسة عشر «فرست» من مدينة آو، وسرعان ما استدعى أخوها للخدمة العسكرية في بطرسبرج، وإلى أن وضع الموت المفاجئ حدًا لمستقبله، كان يعول عمته وأخته على الكفاف، ثم ورثت ماريًا ديمترييفنا ضيعة بوكروفسكوي، ولكنها لم تقم طويلًا هناك، وفي العام الثاني لزوجها من كاليتين الذي ظفر في مدى أيام قلائل بحبها.. استبدلت بضيعة بوكروفسكوي ضيعة أخرى، ضيعة ذات قيمة أعظم بكثير، ولكنها غير جذابة المنظر، ولم تزود بدار فخمة، وفي الوقت نفسه اشترى كاليتين منزلًا في مدينة آو، حيث استقر وزوجته هناك. وألحقت بالمنزل حديقة تمتد في أحد الجوانب حتى الحقول خارج المدينة، حتى إن كاليتين الذي لم يكن بحال من الأحوال يعجب بالهدوء القروي اعتاد أن يقول: «ليس هناك من سبب يدعونا أن نجر أنفسنا جُرًّا إلى الريف»، وكانت ماريًا ديمترييفنا كثيرًا ما تأسف سرًّا على ضيعتها ببوكروفسكوي الجميلة التي يشقها جدول بهيج.. وتكسوها المراعي المترامية وتزهو غاباتها الخضراء، ولكنها لم تكن تعارض زوجها في أي شأن من شؤونه، بل على النقيض كانت تحمل أسمى درجات الاحترام لحكمه ومعرفته. وعندما ذهب للقاء ربه، بعد

حياة زوجية دامت خمسة عشر عامًا، وخلف من ورائه ابنًا وبنيتين، كانت ماريا ديمتريفنا قد اعتادت الإقامة في منزلها، وألفت حياة المدينة إلى حد أنها لم يكن لها ميل أو انعطاف لتغيير مقرها.

ولقد استمتعت ماريا ديمتريفنا في شبابها بشهرة أنها الجميلة الشقراء، وحتى وهي في الخمسين من عمرها، كانت قسماتها على جانب موفور من الجاذبية والفتنة.. على الرغم من أنها فقدت بعض ما كانت عليه من جمال ورقة، وكانت بطبعها رقيقة المشاعر.. سريعة التأثر أكثر منها طيبة القلب في الواقع. وحتى في سنوات النضج ظلت تسلك السلوك الخاص «بنات المدارس» فلم تنكر على نفسها الإسراف، وكان من السهل إثارتها، فكانت تنخرط في البكاء إذا ما تعرض أحد لعاداتها، ومن ناحية أخرى كانت خيرة ودودًا عندما تُلبى كل رغباتها، وعندما لا يعترضها أو يعارضها أحد في أمر ما. كان منزلها أكثر المنازل جمالًا في المدينة، وكان دخلها حسنًا، وكان الجزء الأكبر من هذا الدخل تدره عليها أرباح زوجها الراحل والباقي من ملكها الخاص. عاشت ابنتها في كنفها، ولكن ابنها كان يتلقى العلم في معهد من أحسن مؤسسات التاج في سانت بطرسبرج.

أما السيدة العجوز التي كانت تجالس ماريا ديمتريفنا بجوار النافذة، فقد كانت أختًا لأبيها أمضت معها فيما مضى سنوات كثيرة موحشة في بوكروفسكوي. كان اسمها مارفا تيموفيفنا بستول، وكانت تعتبر فريدة بين لدااتها، فقد كانت امرأة ذات شخصية مستقلة.. تقول الصدق لكل شخص في جفاء وجفاف، ولا تخشى فيه لومة لائم.

وعلى الرغم من أن مواردها كانت ضئيلة جدًا، فقد كانت تتصرف في المجتمع كما يجب أن تفعل إذا ما كانت تتمرغ في الثراء، ولم تكن تحتل كاليتين الراحل، فما كادت تقترب به ابنة أخيها حتى عادت إلى أملاكها الخاصة المتواضعة، حيث قضت عشر سنوات كاملة في كوخ فلاح جلله الدخان، وكانت ماريا ديمتريفنا تخشاها بعض الخشية. كانت قميئة ذات شعر أسود وأنف مدبب وعينين ظلتا حادثين حتى في سن الشيخوخة.

كانت ماريا ديمتريفنا تمشي بخفة ونشاط وهي منتصبه القامة، وتتحدث بسرعة ولكن في وضوح، وبصوت مرتفع حاد النغمة. وكانت تضع على رأسها دائمًا قبعة بيضاء، كما أن الكوفته^(١) البيضاء كانت دائمًا جزءًا لا يتجزأ من ثيابها.

سألت فجأة: «ما عسى أن يكون الخبر؟ ولماذا تتنهدين؟».

أجابت ماريا ديمتريفنا: «لا شيء، ما أجمل السحب!».

- أنت تأسين من أجلها، على ما أظن؟

ولم تجب ماريا ديمتريفنا.

واستطردت مارفا تيموفينا، وهي تلعب بإبر التريكو في سرعة (فقد كانت تصنع شملة طويلة من الصوف المغزول): «لماذا لم يحضر جيديونوفسكي؟ من المحتمل أنه كان قد تنهد معك، بل ربما تفوه ببعض العبارات التافهة أو بأخرى».

(١) الكوفته Kofta جاكيت ترتديه النساء.

- ما أقساک وأنت تتحدثين دائماً عنه.. إن سيرجيوس بتروفش
جدير بالاحترام.

رددت السيدة العجوز مؤنبه: «جدير بالاحترام كله!»، ثم واصلت
ماريا ديمتريفنا حديثها: «ما كان أشد إخلاصه لزوجي العزيز! ولماذا لا
يستطيع التفكير فيه دون أن تثور شجونه؟».

قالت مارفا تيموفينا مزمجرة، والإبر تتحرك تحت أصابعها بسرعة
أكثر مما ألفت: «من المحتمل أنه يحمل له مثل ذلك الشعور، إذا ما
أخذنا في اعتبارنا أن زوجك قد جذبته من الوحل الذي كان يتمرغ فيه
لأذنيه». ثم استرسلت قائلة من جديد بعد لحظة: «فإنه يبدو متواضعاً،
إن رأسه قد وخطه الشيب كثيراً، ومع ذلك فهو لا ينبس ببنت شفة إلا
ليتقول أو يفترى على الناس كذباً. وبكل تأكيد فهو مستشار للدولة، آه،
حسناً وإنه بكل تأكيد ابن قس».

- من هو الشخص المنزه عن كل خطأ يا عمتاه؟ حقاً إنه يعاني هذا
النقص. إن سيرجيوس بتروفش لم يكن له حظ من تربية جيدة، وإني
لأعترف أنه لا يستطيع التحدث بالفرنسية، ولكنني أستميحك عذراً في
أن أقول إني أظنه لطيفاً للغاية.

- آه، نعم، فهو يتملقك كما يتملق الكلب سيده ويصبص بذنبه
وهو رابض أمامه. أما إنه لا يتكلم الفرنسية فذلك ليس نقصاً كبيراً، فأنا
نفسى لست قوية في اللهجة الفرنسية، وسوف يكون من الأفضل ألا
يتكلم أي لغة إطلاقاً حتى لا يكذب حينئذ، ولكن طبعاً، ها هو ذا..

وفي آخر لحظة، والت مارفا تيموفينا حديثها، وهي تنظر إلى

الشارع: «ها هو ذا رجلك اللطيف جاء، وهو يوسع الخطى في مشيته.
ما أطول ساقيه، حقاً هو طائر القلق».

أصلحت ماريا ديمتريفنا من خصلات شعرها، ونظرت مارفا
تيموفيفنا إليها بابتسامة هادئة.

- أليس هذا الذي أراه شعراً أشيب، يا عزيزتي؟ يجب أن توبخي
بلاجيا. أين يمكن أن تكون عيناها؟

همست ماريا ديمتريفنا بلهجة ترمي إلى مضايقتها وهي تداعب
بأصابعها ذراعي المقعد الذي تجلس عليه: «ذلك هو شأنك دائماً،
يا اعمتي».

ثم أعلن فتى قوزاقي صغير متورد الوجنت بصوت مجلجل قدوم
«سير جيوس بتروفتش جيديونوفسكي» الذي ظهر فجأة أمام الباب.



الفصل الثاني

دخل الحجرة رجل طويل القامة يرتدي معطفًا بالغ الجودة وسراويل أميل إلى القصر، ويضع يديه في قفازات سميكة رمادية، ويلتف بشملتين إحدهما سوداء من الخارج وتحتها أخرى بيضاء، وكل شيء ينتسب إليه كان يوحي بالحشمة واللياقة ابتداءً من وجهه، حسن التناسب والقسمات، وخصل شعره التي سويت بعناية على فوديه، إلى حدائه الذي خلا تمامًا من الكعب ذي الصرير.

انحنى أولاً إلى سيدة المنزل ثم إلى مارفا تيموفينا، وبعد أن خلع قفازاته في بطء اقترب من ماريا ديمترييفنا وقبل يدها في احترام مرتين، ثم هبط على مهل في مقعد مريح، وسأل بينما كان يحك أنامله معًا ضاحكًا: هل ليزافتا ميخائيلوفنا على خير ما يرام.

أجابت ماريا ديمترييفنا: «نعم، وهي الآن في الحديقة».

- وإلينا ميخائيلوفنا؟

- لينوتشكا في الحديقة الآن أيضًا. هل لديك أخبار جديدة؟

أجاب الزائر وهو يدير عينيه في بطاء إلى أعلى ويمطّ شفّته: «هم، ليس كثيرًا. ها هو ذا خبر جديد إذا كان يسرك، وهو خبر مشير أيضًا. لقد وصل فيدور إيفانوفتش لافريتسكي».

صاحت مارفا تيموفينا: «فيديا! إنك تخلق الأخبار. أليس هذا الخبر مختلفًا؟».

– أبدًا، فقد رأيته بعيني رأسي.

– ذلك لا يؤيد أي شيء.

– لقد ازداد قوة وفتوة أكثر مما كان عليه.

ثم أردف جيديونوفسكي وهو يبدو كأنه لم يفتن إلى ملاحظة مارفا تيموفينا: «لقد ازدادت أكتافه اتساعًا، ووجناته تورّدًا».

رددت ماريا ديمترييفنا ببطاء: «لقد زاد قوة وفتوة، إن الإنسان ليظن أنه لم يقارف في حياته من المتاعب ما يحول دون أن يكون قويًا فتيًا».

وقال جيديونوفسكي: «إن هذا هو الحق فعلاً، إن أحدًا غيره، لو كان في مكانه، لتردد طويلاً في الظهور أمام الملاء».

قالت مارفا تيموفينا مقاطعة: «ولماذا، بودي لو أعرف؟ أي هراء تتحدثان فيه. رجل يعود إلى بيته، أين تريدانه إذن أن يلوذ؟ وإني لأرجو كما أن تدلاني فيم عساه أن يكون ملومًا؟».

– إن الزوج ملوم دائمًا يا سيدتي، إذا سمحت لي أن أقول هذا، عندما تسيء زوجه السلوك.

– أنت تقول هذا يا باتيوشكا لأنك لم تتزوج أبدًا.

كانت إجابة جيديونوفسكي الوحيدة ابتسامة مغتصبة، وظل صامتًا وقتًا قصيرًا، ولكنه ما لبث أن قال: «هل تسمحين لي بأن أكون فضوليًا، وأسأل لمن عسى أن تكون هذه الشملة الجميلة؟».

رفعت مارفا تيموفينا وجهها ونظرت إليه في سرعة، ثم قالت: «لمن عسى أن تكون؟ إنها لرجل لا يفترى أبدًا على الناس كذبًا، ولا يحيك المؤامرات، ولا يقول زورًا وبهتانًا». وأضافت السيدة العجوز قائلة وهي تلقي نظرة من طرف عينها على ماريا ديمتريفنا: «إذ وجد مثل هذا الرجل حقًا في الدنيا! إني أعرف فيديا معرفة جيدة جدًا، إن الشيء الوحيد الذي يلام من أجله، أنه أفسد زوجته، فمن المؤكد أنه تزوج عن حب، ولا خير يرجى من زواج ناشئ عن الغرام فقط». ثم وقفت وأردفت قائلة: «الآن يمكنك أن تشحن أسنانك على من تريد، وليكن عليّ، إذا طاب لك ذلك، سوف أبرح المكان ولن أقف عائقًا في طريقك ثانية». واختفت بعد أن قالت هذه الكلمات.

قالت ماريا ديمتريفنا وهي تتبع عماتها بنظراتها: «هذا هو شأنها دائمًا».

فأجاب جيديونوفسكي قائلاً: «وأي شيء آخر نتوقعه منها في مثل سنها؟ وانظري الآن، والذي لا يحيك المؤامرات، سرها أن تقول ذلك، ولكن أين يوجد في هذه الأيام الشخص الذي لا يحيك المؤامرات؟ إنها عادة العصر الحاضر، إن أحد أصدقائي، وهو على أعظم قدر من الاحترام، وكما لا تفوتني الملاحظة أيضًا فهو شخص ذو منزلة مرموقة، صديقي هذا اعتاد أن يقول: «في هذه الأيام، يبدو أنه إذا ما أرادت دجاجة

حبة من القمح فهي تقترب منها بدهاء وترقب بقلق وتشوف فرصة تتاح لها؛ كي تتجه إليها في خشية»، ولكنني عندما أنظر إليك، يا سيدتي العزيزة، أتبين فيك طبيعة الملائكة الحقّة. هل تسمحين لي أن أقبل يدك البيضاء كالثلج؟».

ابتسمت ماريا ديمترييفنا ابتسامة رقيقة، ومدت يدها الممتلئة إلى جيديونوفسكي وهي تحتفظ بخنصرها منفصلاً في رشاقة عن بقية أصابعها، وحينئذ وبعد أن رفع يدها إلى شفتيه، جذبت مقعدها حتى زادت قرباً من مقعده، ثم مالت نحوه وسألته في صوت خفيض:

- إذن فأنت قد رأيته؟ وهل هو حقاً بصحة جيدة ويتمتع بروح عالية؟

أجابها جيديونوفسكي هامساً: «يتمتع بروح عالية ممتازة».

- ألم يبلغك أين زوجته الآن؟

- كانت منذ وقت قصير في باريس، ولكنها غادرتها، كما يقولون، وهي في إيطاليا الآن.

- حقاً إنها لمصادفة.. موقف فيديا. لا يمكنني أن أتصور كيف استطاع أن يروض نفسه لاحتماله. إن كل فرد في الحياة له بلاياه طبعاً، ولكن شؤونه - كما يقال - قد شاعت وذاعت في جميع ربوع أوروبا.

تنهد جيديونوفسكي:

- هذا هو الواقع تماماً، هذا هو الواقع تماماً، يقولون إنها تصادق الفنانين والمصورين، أو كما يسمونهم هناك بالأسود، وحيوانات

مفترسة أخرى. لقد فقدت كل إحساس بالخجل والعار.

قالت ماريا ديمترييفنا: «إنه لأمر محزن للغاية، وخصوصاً لذوي القربى، وأنت تعرف... ألا تعرف يا سيرجيوس بتروفتش، إنه ابن عم بعيد لي؟».

- حقاً، حقاً، بكل تأكيد أنت تفترضين أنه يمكنني أن أكون جاهلاً بشيء يتعلق بأسرتك. هل سيحضر ليراك؟ ماذا تظنين؟
- ظننت ذلك، ولكن فيما بعد نمتُ إليّ أنه سوف يذهب ليقيم في ضيعته في الريف.

ثم رفعت ماريا ديمترييفنا عينها إلى السماء: «آه يا سيرجيوس بتروفتش، يا سيرجيوس بتروفتش، كثيراً ما خالجنى الشعور بأن من الضروري لنا نحن معشر النساء أن نسلك في حذر».

- توجد نساء ونساء، يا ماريا ديمترييفنا، يوجد لسوء الحظ بعض النساء على خلق مزعزع، وحينئذ توجد فترة معينة من الحياة. وزيادة على هذا، فإن نفوسهن لم تُشرب بالمبادئ القويمة في صغرهن.
وهنا أخرج سيرجيوس بتروفتش من جيبه منديلاً أزرق ذا مربعات وبدأ يبسطه:

- أمثال أولئك النسوة موجودات بكل تأكيد، حقاً.

وهنا أعمل سيرجيوس بتروفتش أحد أطراف المنديل في كل من عينيه على التوالي:

- ولكن إذا أردنا التعميم وأخذنا الأمور بشيء من التأمل، لوجدنا

أن التراب في الشارع شيء خارق للعادة.

وهكذا أنهى حديثه.

وصاحت صبية جميلة في ربيعها الحادي عشر جاءت تجري على عجل إلى الحجرة: أماء، أماء، إن فلاديمير نيكولايفتش في طريقه إلينا على صهوة جواد.

نهضت ماريا ديمتريفنا من مقعدها، كما نهض سيرجيوس بتروفتش وانحنى محيياً: «احتراماتي لإلينا ميخائيلوفنا». قال هذا وهو ينسحب بحصافة إلى ركن، وراح يخطط بأنفه المستقيم.

واستمرت البنية الصغيرة قائلة: «ما أجمل جواده، لقد كان لتوه بجوار بوابة الحديقة، وأخبرني وليزا إنه سوف يصعد إلى الباب الأمامي».

وسمع صوت وقع حوافر الخيل، ثم سار نحو المنزل فارس اكتملت فتوته جيداً وقد امتطى ظهر حصان كميت، ووقف أمام النافذة المفتوحة.



الفصل الثالث

صاح الراكب بصوته الواضح المفرح: عَمِي مساء يا ماريا
ديمترييفنا. إلى أي حد تروك شروتي الجديدة؟
فتوجهت ماريا ديمترييفنا إلى النافذة: «عم مساء، يا فلاديمير. آه،
يا له من جواد بهي فاخر. ممن اشتريته؟».

- اشتريته من ضابطنا الفارس. إن الوغد كلفني فيه غالبًا.

- وما اسمه؟

- اسمه أورلاندو. ولكن هذا اسم غبي وإني أرغب في تغييره. ثم
قال بالفرنسية: «إيه... حسنًا! إيه حسنًا يا بني. يا له من مخلوق لا يستقر
على حال».

صهل الجواد ثم ضرب بحوافره في الهواء، وقذف بالزبد من
منخريه.

- هلمي يا لينوتشكا. تعالي وربتي على الجواد ولا تخشي منه شيئًا.

مدت ليونتشكا يدها من النافذة، ولكن أورلاندو أجفل فجأة وشب على قادمته حرنًا، ولكن راكبه كبّح جماحه بهدوء شديد، وقبض على السرج بقوة بركبته ثم وضع سوطه عرضًا على رقبة الجواد، وأكرهه -على رغم من مقاومته- إلى العودة إلى النافذة. وراحت ماريا ديمتريفنا تردد بصوت مرتفع بالفرنسية: خذ حذرك.

ردد الفارس قائلاً: والآن هيا ربتي على الجواد يا ليونتشكا. ثم أرف: إنني لا أقصد أن أدعه وشأنه.

مدت ليونتشكا يدها مرة ثانية ولمست في تهيب فتحات أنف أورلاندو المرتعشة، فأطبق بفيه على شكيمته وظل يتململ دون توقف. صاحت ماريا ديمتريفنا قائلة: برافو. والآن ترحل وتفضل بالدخول.

أدار الفارس حصانه بشدة وأعمل المهماز في جنبه، وسار إلى نهاية الشارع عدوًا ثم ارتد إلى الفناء، وفي لحظة أخرى كان قد عبر البهو وولج قاعة الاستقبال وهو يلوح بسوطه في الهواء.

وفي التو واللحظة ظهرت على عتبة مدخل باب آخر فتاة فارعة القوام، حسنة التكوين، سوداء الشعر، في التاسعة عشرة من عمرها، هي ليزا، ابنة ماريا ديمتريفنا الكبرى.



الفصل الرابع

إن الشاب الذي قدمناه لتونا إلى قرائنا يُدعى فلاديمير نيكولايفتش بانشين، كان يشغل مركزاً في سانت بطرسبرج -مركزاً يختص بعمل ذي صفة خاصة- في وزارة الداخلية، وقد جاء إلى مدينة آو في مهمة خاصة ذات طبيعة مؤقتة، ووضع هناك تحت تصرف المحافظ الجنرال جونسبرج الذي كان يمتّ إليه بصلة قرابة بعيدة.

وكان والد بانشين، وهو ضابط متقاعد من سلاح الفرسان، اشتهر بين لاعبي الورق من المقامرين، ذا وجه مضني وعينين كليتين وتقلصات عصبية حول شفتيه.

وظل طول حياته يدور دائماً في دائرة من مشاهير القوم ويغشى المتنديات الإنجليزية^(١) في العاصمتين، ولما كان يعتبر على العموم، رجلاً ذا كفاية ورفيقاً ممتعاً، رغم أنه ليس شخصاً يمكن الاعتماد عليه في ثقة، وعلى الرغم من كفايته، كان دائماً على حافة هاوية الخراب، وفي النهاية لم يترك بعده لابنه سوى أملاك صغيرة غارقة في الديون.

(١) المتنديات الإنجليزية التي كانت تغطاها الأرستقراطية الروسية، كانت بالاسم فقط.

أما فيما يتعلق بتربية هذا الابن، فعلى أي حال من الأحوال، وبطريقته الخاصة، فقد كابد فيها متاعب جسيمة.

كان فلاديمير نيكولايفتش الشاب يتحدث الفرنسية في طلاقة ممتازة وإنجليزية جيدة جدًا، وألمانية ضعيفة، وذلك ما يجب أن يكون بالضبط؛ فإن الناس الذين ينشئون كما يجب ينبغي طبعًا أن يخجلوا إذا ما تكلموا الألمانية بإتقان حقًا، ولكن يكفي أن يتفوهوا بكلمة ألمانية من آن لآخر، وتكون عامة حول موضوع فكه، وهذا مباح، وهذا نفسه هو «الأنيق جدًا» كما يقول أهل بطرسبرج الباريسيون، أضف إلى ذلك أنه عندما بلغ فلاديمير نيكولايفتش الخمسين من العمر، كان قد عرف كيف يغشى أي حجرة استقبال مهما كان شأنها دون تهيّب وهو رابط الجأش، وكيف يتجول في أنحائها بحال لائقة، وكيف يستأذن في الانصراف في اللحظة المناسبة.

قام بانشرين بعدة اتصالات نافعة من أجل ولده، وبينما هو يخلط أوراق اللعب بين قطعتين من المطاط أو بعد كأس مترعة سعيدة الحظ، لم يكن ليضيع فرصة أبدًا في أن يقول كلمة عن صغيره «فولودكا» إلى شخصية هامة من عاشقي ألعاب المهارة. أما عن فلاديمير نيكولايفتش فكان في أثناء دراسته في الجامعة التي تخرج فيها بدرجة أقل من ليسانس في الآداب، قد كوّن لنفسه معرفة ببعض الشبان من ذوي المكانة المرموقة، وكان يظفر بالترحيب في أعظم البيوتات. وكان يُستقبل بالاحترام في كل مكان، فقد كان وسيماً جدًا لين العريكة ومسلّيًا، ودائمًا بصحة جيدة وعلى استعداد لكل شيء، وإذا أرغم فهو الوقور، وإذا قدر

فهو المتصلف، وهو في مجموعه رفيق ممتاز، فتى ساحر، كانت أرض الموعد عند قدميه. وسرعان ما أدرك بانشين سر الحكمة الدنيوية المغلق ونجح في أن يلهم نفسه باحترام أصيل لقوانينها، وعرف كيف يستغل التفاهات بأهمية نصف تهكمية ويسلك سلوك من يتناول كل الأمور الجادة على أنها تفاهات. كان راقصًا جديرًا بالإعجاب ويرتدي ملابسه كسيد إنجليزي. وفي وقت قصير أحرز شهرة بأنه من أمتع الشبان في سانت بطرسبرج وأكثرهم لباقة.

كان بانشين لبقًا حقًا، ليس أقل من والده في هذا الشأن. وبجانب هذا، فقد وهبه الله ذكاء ليس بالقليل، فلم يستعص عليه شيء، فإذا غنى أمتع، وإذا رسم أو صوّر فبثقة، وفي استطاعته قرض الشعر، وكان جيد التمثيل بمقدرة تسترعي الانتباه.

كان في ذلك الوقت في الثامنة والعشرين من عمره، ولكنه قد بلغ مرتبة الأمين، كما قد بلغ مكانة رفيعة من الاحترام في الخدمة العسكرية.. وله في نفسه ثقة أكيدة كذا في ذكائه وفي فطنته. وانطلق يُمخر عباب الحياة وقد امتلأ شراعه في جرأة وابتهاج، وانساب جدول الحياة أمامه في سهولة ويسر... اعتاد أن يرضي الجميع، الشيب والشباب على السواء، ولقد تصور أنه قد فهم البشر تمامًا وخصوصًا النساء، فإنه على معرفة جيدة بجميع نقائصهن المألوفة.

وشأنه شأن أي شخص ليس بغريب على الفن، فقد أحس في داخله بحماسة معينة وتوقد ونشوة جعلته، نتيجة لهذه الأحاسيس، يطالب لنفسه بإعفاءات شتى من القواعد المألوفة. عاش عيشة غير منتظمة نوعًا

ما، وتعرف بأناس لم يلقوا الترحيب في المجتمع. وعلى الإجمال، فقد كان لا يتمسك بالتقاليد متحرراً في سلوكه، ولكن في قرارة نفسه كان رزيناً ثاقب الفكر، وحتى وهو في معمعان العريضة والإفراط، فإن عينه الحادة التي بلون خشب البندق كانت ترقب وتدوّن كل شيء. ولقد كان من المستحيل دائماً على هذا الشاب الجريء الذي لا يقيم للتقاليد وزناً، أن يغفل عن نفسه أو يتركها لتيار يجرفها تماماً، ويجب أن يُذكر هنا إنصافاً له واعتباراً، وبهذه المناسبة، أنه لم يباه أبداً بما أحرزه من انتصارات، ولقد لقي الترحيب في منزل ماريا ديمتريفنا بمجرد وصوله إلى مدينة آو، وسرعان ما جعل نفسه بين أهله وعشيرته في هذا المنزل. أما عن ماريا ديمتريفنا نفسها فهي تظن أنه لا يوجد في العالم شخص يعدله.

انحنى بانشين بطريقة تستهوي القلوب لجميع الموجودين في الحجرة، صافح ماريا ديمتريفنا وليزافيتا ميخائيلوفتش، وربت على كتف جيديونوفسكي برقة، وعندما استدار، أخذ رأس لينوتشكا بين يديه وقبّلها على جبينها.

سأله ماريا ديمتريفنا: ألا تخشى أن تمتطي صهوة مثل هذا الجواد الشرير؟

- معذرة يا سيدتي، فإنه هادئ تماماً. لا، ولكن سأخبرك بما أخشاه، حقاً إنني أخشى أن ألعب بفرنس^(١) بالورق مع سرجيوس بتروفتش، فبالألمس وفي منزل آل بيلينستين ربح كل ما معي من نقود.

(١) اسم لعبة تُمارس بورق اللعب.

ضحك جيديونوفسكي ضحكة مستكينة خافتة، فقد أراد أن يحظى برضى الموظف الشاب الذكي القادم من سانت بطرسبرج، وله عند الحاكم حظوة. وكان غالباً يتحدث عما لبانشين من ملكات ملحوظة في أثناء محادثاته مع ماريا ديمتريفنا: لماذا حقاً الآن كيف يتاح لشخص أن يتجنب إطرءاء؟ هكذا كان يعلل حديثه أن هذا الشاب يعد نصراً عظيماً في أرفع الدوائر في المجتمع. وفي نفس الوقت فهو يؤدي عمله على أكمل وجه، لا يصعر للناس خده ولا يمشي في الأرض مرخاً. وحقاً فإن في سانت بطرسبرج كان يعتبر بانشين موظفاً قديرًا في الدولة، فإن العمل كان يحترق بين يديه، كما كان يتحدث عنه مازحاً كما يجب أن يتحدث رجل الدنيا الذي لا يعلق أي أهمية على وظيفته، ولكنه كان رجل عمل. إن رؤساء المصالح لأمثال هؤلاء المرؤوسين، وهو كما لم يتسرب الشك إلى نفسه أبداً أنه في الوقت المناسب، وظناً منه أنه يرغب في ذلك حقاً، سوف يرقى إلى دست الوزارة.

قال جيديونوفسكي: أنت طيب لدرجة أن تقول إنني قد ربحت نقودك، ولكن من هو الذي ربح خمسة عشر روبلاً في الأسبوع الماضي؟ وزيادة على هذا...

- آه، يا لك من وغد، يا لك من وغد. قاطعه بانشين في لهجة محبة، ولكن في استهتار يقرب من الاحتقار، وحينئذ ودون أن يعيره اهتماماً أكثر، دنا من ليزا وبادأها الحديث قائلاً: لا يمكنني الحصول على افتتاحية أوبيرون هنا، كانت مدام بيلينيستين تفخر بأن لديها مجموعة كاملة من الموسيقى الكلاسيكية، ولكن في الواقع ليس لديها

سوى مقطوعات من البولكا والفالس. ومهما كان الأمر، فقد كتبت إلى
موسكو وسوف تكون الافتتاحية في حوزتك في غضون أسبوع من
الزمن.

ثم والى حديثه: وبهذه المناسبة لقد نظمت مقطوعة شعرية،
بالأمس، كما وضعت موسيقاها.. هل تحبين أن أسمعك إياها؟ فإن
مدام بيلينيستين تظن أنها جميلة جدًا، ولكن حكمها لا يركن إليه كثيرًا..
ولكن مهما كان الأمر، فإني أفضل أن أغنيها بين حين وآخر.

فصاحت ماريا ديمترييفنا متسائلة: ولماذا بين حين وآخر؟ لماذا لا
يكون الآن؟

فأجاب بانشين بابتسامة حلوة هادئة رفت على شفثيه ثم اختفت
سريعًا: أن تسمع تعني أن تطيع.. وحينئذ وبعد أن دفع مقعدًا إلى
المعزف، جلس إليه، ثم وقع ألحانًا قليلة، وبدأ يغني المقطوعة الغرامية
الآتية، وهو ينطق الكلمات بوضوح وجلاء:

بين الغيوم الشاحبة.. فوق الأرض

يعلو القمر في مركبته

وفوق البحر ضياء سحر

ينهمر من السماء

* * *

وكما تفيض موجات روجي نحو القمر

فإن الحب يفيض نحوك

ومباهه لا يحركها إلا أنت فقط
في السَّراء والضَّراء

* * *

إن الحب الذي يشجي يفعم قلبي
ولكن لا تند عنه صرخة
إني أقاسي.. بارد كالقمر هناك
وأنت تمرين بي

* * *

غنى بانشين المقطوعة الثانية بتعبير وإحساس أكثر من المؤلف،
ففي المتتابعة العاصفة تخال نفسك تستمع إلى هدير الأمواج، وبعد
الكلمات، «إني أقاسي» أصعد زفرة خفيفة، وبعينين مسبلتين جعل
صوته يخفت رويداً رويداً، حتى بات لا يُسمع. وعندما فرغ من العزف
والغناء، امتدحت ليزا اللحن، وقالت ماريا ديمتريفنا «فاتناً» وصاح
جيديونوفسكي قائلاً: «ساحراً». الكلمات كالموسيقى ساحرة سواء
بسواء» وظلت لينوتشكا شاخصة ببصرها إلى المغني في احترام
صبياني. وبالاختصار فإن موسيقى هذا الموسيقار الهادئ الشاب بعثت
السرور في نفوس جميع من كانوا في الحجرة، ولكن خارج باب حجرة
الاستقبال وقف ينظر إلى الأرض رجل عجوز قد وصل لتوه إلى المنزل،
وبالحكم من تعبيرات وجهه وحركات كتفيه، ندرك أنه لم يطرب كثيراً
للحن الغرامي الذي عرفه وغناه بانشين، رغم أنه جميل حقاً. وبعد أن

تريث قليلاً ونفض التراب عن حذائه بمنديل خشن ضغط عينيه بمنديل إلى أعلى وضم شفتيه بحدة، وأحنى ظهره المقوس انحناء جديدة ودخل حجرة الاستقبال ببطء.

كان بانشين أول الصائحين عندما قفز من مقعده بسرعة: آه ها أنت ذا يا خرستوف فيدروفتش. كيف أنت؟ إني لم أشك أنك كنت هناك، فلم أكن لأغامر بغناء مقطوعي الغرامية أمامك مقابل أي شيء؛ فأنا أعلم أنك لا تعجب بالأسلوب الخفيف في الموسيقى.

فقال الوافد الجديد بلغة روسية سقيمة: إني لم أسمعها. وقد انحنى لجميع الحاضرين، ثم وقف ساكناً مرتبكاً وسط الحجرة.

قالت ماريا ديمتريفنا: أظن يا مسيو ليم أنك قد جئت لتعطي ليزا درس الموسيقى.

- لا، ليست ليزا ميخائيلوفتش، ولكن إلينا ميخائيلوفتش.

- آه، حقاً حسن جداً.. اصعدي يا لينوتشكا إلى الطابق العلوي مع مسيو ليم.

كان الرجل العجوز على وشك أن يتبع الصغيرة، عندما استوقفه بانشين قائلاً:

- لا تنصرف عند انتهاء الدرس يا خرستوف فيدروفتش، إن ليزافيتا ميخائيلوفتش وأنا سنؤدي ثنائية.. إنها سوناتا لبتهوفن.

همهم الرجل العجوز بضع كلمات لنفسه، ولكن بانشين والى حديثه بالألمانية وهو ينطق الكلمات نطقاً رديئاً جداً:

- إن ليزا ميخائيلوفتش قد أرثني الأغنية المقدسة التي أُمليتها عليها، وهي قطعة جميلة جدًّا، أرجو ألا تظن أنني لست قادرًا على تذوق الموسيقى الجادة. بل على النقيض تمامًا إنها شيء يبعث الملل، ولكن من جهة أخرى، فهي مهذبة للنفس إلى أقصى حد.

اصطبغ وجه الرجل العجوز بحمرة الخجل، وألقى نظرة على ليزا وأسرع بالخروج من الحجرة.

طلبت ماريا ديمترييفنا من بانشين أن يعيد أداء مقطوعته، ولكنه صرح بأنه لا يرغب في أن يوقر آذان الألمان العلميين، واقترح على ليزا أن تبدأ سوناتا بتهوفن، وهنا تنهدت ماريا ديمترييفنا، ومن جانبها، اقترحت على جيديونوفسكي أن يذهب ليمشي معها في الحديقة.

قالت: إني أود أن أتحدث إليك بشأن عزيزنا فيديا المسكين، وأسألك النصيح.

ابتسم جيديونوفسكي وانحنى، ثم تناول بإصبعين قبعته التي كان قد وضع قفازاته على حافتها بأناقة، ثم خرج مع ماريا ديمترييفنا.

بقي بانشين في الحجرة مع ليزا التي ذهبت وعادت ومعها السوناتا ونشرتها، وجلس كلاهما إلى البيانو صامتين.

ومن الطابق العلوي حمل الأثير نغمًا خافتًا توقعه أصابع لينوتشكا التي لما تحذق العزف بعد.

* * *

ملاحظة: من المحتمل أن يكون بانشين قد ألهم بأبيات هيني في
مقطوعته السابقة:

عندما ترتعش صورة القمر
فوق أمواج البحر القاسية
والقمر نفسه ثابت هادئ
يتجول في أفق السماء

* * *

وأنت أيها الحبيب تتجول
ثابتًا هادئًا وترتعش صورتك
صورتك فقط في قلبي
لأن قلبي نفسه يختلج

* * *

الفصل الخامس

ولد خرستوف ثيودور ليم في عام ١٧٨٦، في مملكة سكسونيا، في مدينة شيمتز، وكان كل من والديه فقيرًا، موسيقيًا، يعزف أبوه على المزمارة، وتعزف أمه على الكيثارة. وكان هو نفسه، ولما يتجاوز الخامسة من عمره، قد بدأ يتدرب على العزف على ثلاث آلات مختلفة، وفي سن الثامنة مُني باليتم، وفي العاشرة بدأ يكسب قوته بفنه. وقد عاش حياة التجوال مدة طويلة، وهو يعزف في مختلف الأماكن في الحانات، والموائد، وأفراح الفلاحين، وفي الحفلات الراقصة. وفي نهاية المطاف ظفر بالدخول في فرقة موسيقية، وهناك راح يرقى درجات النجاح باضطراد حتى بلغ مركز قائد الفرقة، وكان كعازف لا يتمتع بقدرة عظيمة، ولكنه كان يفهم الموسيقى فهمًا تامًا.

وفي الثامنة والعشرين نرح إلى روسيا وهناك دعاه سيد عظيم. وعلى الرغم من أن هذا السيد نفسه لم يكن يطيق الموسيقى... إلا أنه احتفظ بجوق موسيقي ليشبع حب الظهور في نفسه. وفي منزله قضى ليم سبع سنوات قائدًا موسيقيًا، ثم تركه صفر اليدين. أما السيد الذي كان يبدد

كل موارد، فقد عرض على ليم أن يعطيه صكًا بالمبلغ المستحق له، ثم عاد فرفض حتى أن يعطيه هذا الصك، وفي النهاية لم يدفع له فلسًا واحدًا. وأسدَى النصح إلى ليم بالعودة إلى بلاده، ولكن ليم لم يرد العودة إلى وطنه خاوي الوفاض من روسيا، من روسيا العظيمة، وأرض الفنانين الذهبية. وهكذا عقد العزم على البقاء ليحرب حظه هناك.

وفي غضون عشر سنوات استمر الألمانى المسكين يحرب حظه وعثر بعمل عند عديدين. عاش في موسكو وفي عدة مدن في الريف... وعانى كثيرًا في صمت وصبر، وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين الفقر، وكافح كفاحًا قاسيًا^(١). وطوال هذا الزمن وهو في غمرة هذه المتاعب التي تعرض لها، لم تبرح ذهنه فكرة العودة إلى وطنه نهائيًا. وكان هذا الأمل سنده الوحيد، ولكن القدر لم يختار أن يمنحه هذه النفحة العلوية من الحظ السعيد.

وحدث في الخمسين من عمره، وهو معتل الصحة مقعد قبل الأوان، أن جاء إلى مدينة آو، وهناك اتخذ مقامه بصفة دائمة وقد رتب شؤونه على أن يكسب الكفاف بإعطاء دروس. وكان في ذلك الوقت قد فقد كل أمل في مغادرة أرض روسيا البغيضة.

ولم يكن مظهر ليم معاونًا له في الحياة، فقد كان قصير القامة مرتفع المنكبين، تبرز عظام كتفيه نافذة إلى الخارج... وأقدامه كبيرة مفلطحة، ويدها الحمران معروقتان بشرايين منتفخة وذواتي أصابع

(١) النص الحرفي «مثل سمكة خرجت من الجليد» مثل سمكة أخرجت من نهر تجمد سطحه فراحت تكافح على سطح الجليد.

صلبة متييسة.. أظافرها زرقاء شاحبة، غطت التجمعات وجهه.. وكان غائر الوجنت، وشفتاه مزومتان يحركهما دائماً حركة من يمزغ شيئاً، وهي حركة مرتبطة بصمته العادي، أعطته تعبيراً يكاد يكون شريراً. وكان شعره الأشيب يتدلى في خصل فوق جبهة منخفضة. وعيناه الدقيقتان الجامدتان تبرقان بريقاً بليداً كجمرات قد أطفأ لهيبها الماء فوراً. يتناقل في مشيته وهو يدفع جسمه المشوه التكوين في كل خطوة يخطوها. وكانت بعض حركاته تعيد إلى الذهن صورة بومة عجوز.. تدلف متناقلة في قفص عندما تشعر بالأعين تحملق فيها، وهي نفسها تكاد لا ترى شيئاً خارج عينيها الصفراوين الواسعتين وهي تطرف بين النوم والخوف. شقاء قديم مقيم لا يلين ولا يرحم قد ثبت طابعه الذي لا يُمحى على الموسيقى المسكين ولوى جسمه وشوّه. هذا الجسم، الذي دون هذا الالتواء وهذا التشويه، لم يكن له ما يوصي به خيراً. ولكن على الرغم من كل هذا، فإن شيئاً صالحاً وأميناً، شيئاً ما على خلاف المؤلف، كان يكشف عن نفسه في هذا المخلوق نصف المحطم لكل من أُوتِي القدرة على التغلب على الانطباعات الأولى التي تتركها رؤيته عليه بعد هذا اللقاء.

ولما كان ليم معجباً وفيّاً بكل من الموسيقىقار باخ وهاندل، وهو حقاً متمكن في علمه، يجيد علمه إجادة كاملة ووهب خيالاً نشيطاً وجرأة فكر هي من صفات الجنس التيوتوني فقط، فقد كان من المحتمل وفي الوقت المناسب ومن عسى أن يعرف؟ أن يلمع نجمه بين المؤلفين في وطنه، إذا ما كانت حياته فقط من طبيعة مختلفة، ولكنه لم يولد تحت

نجم سعيد الحظ، فقد كتب كثيرًا في زمنه، ومع ذلك فلم يسعده الحظ أبدًا ليرى شيئًا مما كتب منشورًا. ولم يعرف كيف يبدأ العمل وكيف ينحني في اللحظة المناسبة، ولا كيف يتقدم برحاء في الوقت الملائم. ومرة واحدة، وهذه هي الحقيقة، ومنذ زمن طويل مضى، نشر أحد أصدقائه من المعجبين به، وهو ألماني أيضًا، وفقير أيضًا، على نفقته الخاصة اثنتين من سوناتا ليم. ولكن هذه المطبوعات بقيت على أرفف المكتبات الموسيقية دون أن يمسهما أحد، ثم اختفت في صمت دون أن تترك خلفها أثرًا، تمامًا كما لو كانت قد ألقيت في قاع النهر بليل.

وفي النهاية ودع ليم كل شيء وظفرت به الشيخوخة، وتصلب عوده وبس عقله كما يبست أصابعه. لم يتزوج أبدًا، وهو يعيش وحيدًا الآن في مدينة أو في منزل صغير ليس بعيدًا عن منزل آل كاليتين. تقوم على شؤونه امرأة خادم عجوز قد أتى بها من أحد بيوت الإحسان. كان يمشي مسافات طويلة ويقرأ الكتاب المقدس ومجموعة من التراتيل البروتستانتية وشكسبير في ترجمة ستشلاجيل. بقي وقتًا طويلًا لا يؤلف شيئًا، ولكن من الواضح أن ليزا، وهي أحسن تلميذاته، تمكنت من أن توقظه من سباته، وكان من أجلها قد كتب الأغنية التي أشار إليها بانشين، وقد اقتبس كلمات هذه الأغنية من مجموعة الترانيم التي في حوزته باستثناء أبيات قلائل نظمها بنفسه. وقد كتبت هذه الأغنية لمجموعتين، إحداهما للسعداء والأخرى للأشقياء. وفي النهاية تتحد الاثنتان وتغنيان معًا «أيها السيد الرحيم أشفق بنا، نحن الخطة المساكين واحفظنا من كل الأفكار الشريرة وشهوات العالم» وعلى الصفحة التي تحمل اسم

المقطوعة قد كتبت بعناية وبطريقة فنية الكلمات «الصالحون فقط هم على صواب» أغنية مقدسة نظمت وأهديت إلى ليزافيتا كاليتين، تلميذته العزيزة من المدرس س. ت. ج. ليم، وأحاطت بالكلمات «الصالحون فقط على صواب» و«إلى ليزافيتا كاليتين» هالتان من الشعاع والنور. بينما قد كتب في أسفل الصفحة «إليك أنت فقط» بالألمانية، وهذا هو السبب الذي من أجله خضبت حمرة الخجل وجه ليم، ونظر إلى ليزا متسائلاً، وشعر بحرج عميق عندما شرع بانشين يتحدث إليه عن أغنيته.



الفصل السادس

عرف بانشين النغمات الأولى للأغنية التي لعب فيها صوت الباص
عاليًا وحازمًا، ولكن ليزا لم تبدأ دورها، فتوقف ونظر إليها، وعبرت
عينا ليزا اللتان كانتا تنظران إليه بنظرة ثابتة عن عدم الرضى، ولم تبسم
شفتها، وكان محياها صارمًا صرامة تقترب من الحزن.

سألها قائلاً: ما الخبر؟

فأجابت قائلة: لماذا لم تف بوعدك؟ لقد أظهرتك على أغنية
خرستوف فيدروفتش فقط على شريطة ألا تتحدث إليه في شأنها.

- لقد أخطأت يا ليزا ميخائيلوفتش.. وتكلمت دون تفكير.

- لقد جرحت شعوره وشعوري أيضًا، وسوف يفقد ثقته بي كما
فقدتها بالآخرين.

- وماذا يمكنني عمله، يا ليزا ميخائيلوفتش؟ فمنذ فجر شبابي لم
يكن باستطاعتي إطلاقًا أن أرى ألمانيًا دون أن تغريني رؤيته بمعاكسته.

- ماذا تقول يا فيلاديمير نيكولايفتش؟ فهذا الألماني رجل فقير

وحيد محطم، وأنت لا تأخذك به شفقة ولا رحمة، وتوسوس لك نفسك بمعاكسته.

وبدا بانشين مببل الخاطر قليلاً.

فقال: أنت على صواب، يا ليزا ميخائيلوفنا. ثم أضاف: إن الخطأ الذي تردت فيه مرجعه كلية إلى عدم التفكير الذي يلازمي دائماً. لا، لا تعارضيني، فأنا أعرف نفسي جيداً. إن عدم تفكيري ونزقي أنزلا بي من الأضرار ما ليس باليسير أن يحمل الناس على أن يظنوا بي الظنون ويرموني بالأنانية.

توقف بانشين قليلاً، ومهما كانت بداية الحديث معه، فإنه غالباً ما يختمها بالحديث عن نفسه، وآئذ يبدو أن كلماته تنطلق من فيه على غير إرادته، ولقد كان حديثه رقيقاً وساراً، وطابعه الإخلاص.

ثم استطرد قائلاً: هو كذلك، وحتى في منزلكم. وإن أمك، وهذا هو الصدق، أشد الناس عطفاً عليّ وحدباً بي. هي طيبة القلب. وأنت- ولكن لا، فأنا لا أعرف ماذا تظنين بي، ولكن عمك قطعاً لا تحتملني؛ فقد ضايقته ببعض نزقي والحديث الأخرق. إن الحق أنها لا تحبني، أليس كذلك؟

أجابت ليزا، بعد لحظة تردد: نعم، أنت لا تدخل السرور على قلبها. ترك بانشين أصابعه تجري بسرعة على نابضات المعزف، ورفت ابتسامة تكاد لا تلاحظها العين على شفتيه، ثم قال يوالي حديثه: حسناً، ولكن أنت هل ترميني أيضاً بالأنانية؟

فأجابت ليزا قائلة: إني أعرف القليل جدًا عنك. ولكن يجب ألا أدعوك أناً، بل على النقيض أشعر أن من الواجب أن أحمل لك الشكر وعرفان الجميل.

فقاطعتها بانشين قائلاً، وهو يجري أصابعه على نابضات المعزف ثانية: إني أعرف، أعرف ما ستقولين، من أجل الموسيقى ومن أجل الكتب التي أجيء بها إليك، وكذا من أجل الرسوم الرديئة التي أزين بها دفتر صورك، وهكذا، وهكذا. وقد أفعل كل هذا ومع ذلك أكون أناً. إني أجزؤ على الظن أني لا أضجرك وأنت لا تظنين بي الظنون، ولكن مع ذلك فإنك تفترضين أني - كيف أعبر عن نفسي؟ - ومن أجل فكاهة لاذعة لا ينجو مني صديق حتى أبي نفسه.

فقالت ليزا: أنت كمعشر الرجال جميعاً، ساء... كثير النسيان، وهذا قصارى القول.

قطب بانشين حاجبيه قليلاً، ثم قال: دعينا لا نتحدث عني أكثر مما فعلنا، وهيا بنا نبدأ أغنيتنا. وإني لأرجوك أمراً واحداً. وأضاف قائلاً وهو يسوي الصحائف الموضوعة على منضدة الموسيقى بيديه: ظني بي ما شئت من الظنون، ولتسميني أناً إذا أردت، فأنا لا أعترض على ذلك، ولكن لا تسميني رجل الدنيا، فهذا الاسم لا يُحتمل. وقال بالإيطالية: فأنا أيضاً فنان مصور. وأضاف: على الرغم من أني فنان ماحل، وهذا يعني أني فنان هزيل، وهذا ما سأقيم الدليل على صحته فوراً.. هيا بنا نبدأ.

فقالت ليزا: حسناً جداً، دعنا نبدأ...

جرت الحركة الموسيقية البطيئة الأولى ببعض النجاح، رغم ما آتاه

بانشين من أخطاء عدة، فقد عزف ما كتبه بنفسه أو ما حفظه عن ظهر قلب عزفًا جيدًا جدًا، ولكنه لم يستطع العزف بالنظر إلى النوتة الموسيقية عزفًا صحيحًا، ومن ثمَّ فإنَّ الجزء الثاني من الأغنية -وكانت «الليجرو» سريعة إلى حد ما- لم يلق نجاحًا ما. وعند الفاصلة الموسيقية العشرين يُس بانشين الذي كان يتخلف فاصلتين موسيقيتين، ودفع مقعده إلى الخلف مقهقهًا.

وصاح قائلًا: لا، ليس بوسعي العزف اليوم. وإنه لمن حسن الطالع أن ليم لا يسمعنا وإلا أصابته نوبة.

وقفت ليزا وقفلت المعزف، ثم واجهت بانشين وقالت: وماذا سنفعل إذن؟

- ذلك السؤال يصورك أنصع تصوير، فأنت لا تستطيعين البقاء مكتوفة اليدين لحظة واحدة. حسنًا إذن، إذا ما شعرت بميل، فدعينا نقترّب قليلًا قبل أن يظلم الليل حالًا، فربما إلهة أخرى قد تكون إلهة الرسم والتصوير. ما اسمها؟ لقد نسيتها، ستكون أكثر ملائمة لي، أين دفتر صورتك؟ فإني أذكر أن الصورة الخلوية التي كنت أرسُمها فيه لما تكتمل بعد.

ذهبت ليزا إلى حجرة أخرى لتأتي بالدفتر، وألّفت بانشين نفسه وحيدًا، فأخرج من جيبه منديلًا مصنوعًا من قماش التيل الرفيع (كمبريت) دحك به أظافره، ثم نظر إلى يديه، من الجانبين، وكانتا ناصعتي البياض جميلتي الشكل، وفي بنصر يده اليسرى كان يضع لولبًا من الذهب.

عادت ليزا، وجلس بانشين بجوار النافذة وفتح دفتر الصور.

صاح قائلاً: آه، إني أرى أنك قد بدأت ترسمين صورة نقلًا عن المنظر الخلوي الذي رسمته من قبل وبأسلوب جيدًا جدًا - جيد جدًا حقًا - وفقط أعطني القلم الرصاص، فإن الظلال لم توضع باللون الأسود الكافي... انظري هنا.

أضاف بانشين بعض ضربات طويلة بلمسات قوية، وكان يرسم دائمًا نفس المنظر الخلوي: أشجار ضخمة مضطربة في الأرضية الخلفية، وفي المسافة الوسطى واد، وفي الأفق سلسلة تلال مدببة. نظرت ليزا إلى عمله من فوق كتفه.

قال بانشين وهو يدير رأسه تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار: إن في الرسم كما في الحياة أيضًا.. الخفة والجرأة هي الأسس الأولية.

دخل ليم الحجرة في هذه اللحظة، وبعد أن انحنى بوقار، أوشك على أن يعود من حيث أتى، ولكن بانشين طرح دفتر الصور والقلم الرصاص جانبًا وحال دونه ومغادرة الحجرة.

- إلى أين أنت ذاهب، يا عزيزي خرستوف فيدروفتش؟ هلا تفضلت بالبقاء، وتناول الشاي معنا؟

قال ليم في صوت جاف: إني ذاهب إلى المنزل، إن رأسي يؤلمني.
- أي هراء هذا. أرجو أن تبقى معنا. وسوف نتحدث عن شكسبير.

فأعاد الرجل العجوز القول:

- إن رأسي يؤلمني.

ووالى بانشين الحديث وهو يضع ذراعه مداعباً على كتف الرجل العجوز، ويتسم ابتسامة عذبة: لقد حاولنا أن نعزف سوناتا بتهوفن دونك، ولكننا لم نفلح في أن نختمها ختاماً منسجماً.. تصور أنني لم أتمكن من أن أعزف نغمتين متتاليتين صواباً!

أجاب ليم: كان الأفضل من ذلك أن تعيد عزف مقطوعتك الغرامية. ثم أفلت من قبضة بانشين وخرج من الحجرة لا يلوي على شيء. جرت ليزا خلفه، وأمسكت به على السلم وقالت بالألمانية، وهي تصحبه على العشب القصير الأخضر إلى البوابة: يا خرستوف فيدوروفتش، إنني أريد أن أتحدث إليك.. لقد أخطأت في حقك.. وأسألك المغفرة.

ولم يجب ليم.

- لقد أريت أغنيتك إلى فلاديمير نيكولايفتش، كنت على يقين أنه سيقدرها حق قدرها، وفي الواقع لقد سر بها إلى أبعد حد. وقف ليم ساكناً لا يريم ولا يتحرك.

وقال بالروسية: لا أهمية لذلك. ثم أردف بلسان قومه: ولكنه غير قادر تماماً على فهمها، فكيف لا ترين ذلك؟ هو فتى مولع بالفنون، وهذا كل ما في الأمر.

أجابت ليزا: أنت تظلمه، فهو يفهم كل شيء، وهو نفسه يستطيع تقريباً أن يفعل كل شيء.

- نعم كل شيء في المرتبة الثانية.. بضاعة غثة وعمل عاطف من

الإتقان، ولكن ذلك ما يسر، وهو يسر وهو جد قانع بذلك.. راض به.
حسنًا، حينئذ مرحى، ولكني لست غاضبًا.. فأنا وتلك الأغنية كلانا
عجوزان أحمقان.. وإني لأشعر ببعض الخزي، ولكن هذا لا يهمني.
فاستحثته ليزا من جديد قائلة: اغفر لي، يا خرسنوف فيدوروفتش.
فرد مرة ثانية بالروسية: هذا لا يهمني، لا يهمني. أنت فتاة طيبة. ها
هو ذا ضيف قادم لزيارتكم.. إلى اللقاء. أنت فتاة طيبة جدًا.
وأخذ ليم طريقه بخطوات مسرعة إلى البوابة، حيث كان يجتازها
سيد غريب عنه، يرتدي سترة رمادية وقبعة عريضة من القش، وبعد أن
حياه بأدب، وكان ينحني لكل وجه جديد في آو، ودائمًا كان يولي وجهه
عن كل معارفه في الشارع. كانت هذه هي القاعدة التي سار عليها.. سار
ليم بمحاذاته واختفى خلف الجدار.
وحملق فيه الغريب وهو يتوارى دهشًا، ثم نظر إلى ليزا وصعد إليها
رأسًا.



الفصل السابع

قال الزائر إذ خلع قبعته: «أنتِ لا تتذكريني، ولكنني تعرفت عليك، رغم مضي سبع سنوات منذ أن رأيتكِ آخر مرة.. كنتِ طفلة آنئذ.. أنا لافريتسكي، هل ماما في البيت؟ وهل يمكنني أن أراها؟».

أجابت ليزا: «إنه لِمَمَّا يسر ماما أن تراك.. لقد سمعت عن وصولك».

سألها لافريتسكي وهو يرتقي الدرج المؤدي إلى المنزل: «إن اسمك ليزافيتا أليس كذلك؟».

- نعم.

- إنني أذكرك تمامًا.. لقد كان وجهك في تلك الأيام من الوجوه التي لا تُنسى بحال، لقد اعتدت أن أحضر لك الحلوى في ذلك الحين.

احمرت ليزا خجلًا هونًا ما، فكرت لنفسها «يا له من رجل عجوز».

وتوقف لافريتسكي برهة في الردهة.

دخلت ليزا الحجرة حيث كان يجلس صوت بانشين وترن ضحكاته.. كان ينقل إلى الحاضرين طرفًا من الدائر على الألسن في المدينة، إلى ماريما ديمترييفنا وجيديونوفسكي اللذين كانا في ذلك

الوقت قد عادا من الحديقة، وكان يضحك عاليًا من قصته التي يرويها. ولقد اضطربت ماريا ديمتريفنا لدى سماعها باسم لافريتسكي وشحب وجهها، ولكنها تقدمت نحوه لاستقباله.

صاحت قائلة بصوت يكاد يستدر الدمع، وهي تؤكد كل كلمة تلفظها:

- كيف أنت؟ كيف أنت، يا ابن العم العزيز؟ كم أنا سعيدة برؤيتك! أجاب لافريتسكي بالضغط بود على يدها الممدودة إليه: كيف حالك يا ابنة عمي العزيزة؟ هل الأمور كلها على ما يرام معك؟ - اجلس، اجلس يا عزيزي فيدور إيفانوفتش. آه، كم أنا مسرورة بلقائك! ولكن دعني أولاً أقدم لك ابنتي ليزا.

قاطعها لافريتسكي قائلاً: لقد قدمت نفسي من قبل إلى ليزافيتا. - المسيو بانشين سرجيوس، بتروفتش جيديونوفسكي - ولكن أرجوك أن تتفضل بالجلوس، إني أنظر إليك، وحقاً أكاد لا أصدق عيني، ولكن خبرني عن صحتك، أهى جيدة؟ - إني بصحة جيدة جداً كما ترين. وأنت يا ابنة العم أيضاً. فإذا كان من الممكن قول مثل هذا دون أن أجلب عليك حظاً سيئاً^(١) فإنك لم يطرأ عليك تغيير ما طوال هذه السنوات السبع.

قالت ماريا ديمتريفنا بعد أن سرح فكرها في الموضوع: عندما أفكر في عدد السنوات التي مرت منذ تقابلنا آخر مرة من أين جئت

(١) إشارة إلى خرافة (العين الشريرة) المتفشية بين الفلاحين في روسيا. وعلى الرغم من أنها تلاشت من بين المتعلمين، إلا أن عبارة «لا تنظر بعين شريرة» تستعمل في الحديث حتى الآن.

الآن؟ وإلى أين تقصد؟ إنني أعني فقد قصدت... وسرعان ما أصلحت خطأها: قصدت أن أقول، هل ستقيم بين ظهرانينا طويلاً؟

أجاب لافريتسكي: لقد وصلت لتوي من برلين. وفي غد سوف أذهب إلى الريف؛ لأقيم هناك، وعلى جميع الاحتمالات، زمناً طويلاً.
- أظن أنك ذاهب لتقيم في لافريكي.

- لا، ليس لافريكي، ولكن عندي أملاك ليست شاسعة، على بعد يقرب من خمسة وعشرين فرسخاً من هنا، وإنني ذاهب إلى هناك.

- أهذه هي الأملاك التي تركتها لك جلافيرا بتروفنا؟

- نعم تلك هي.

- ولكن، حقاً، يا فيدور إيفانوفتش، إن لك مثل هذا المنزل الساحر في لافريكي.

عبس لافريتسكي قليلاً.

- نعم، ولكن عندي بيت خلوي صغير في الضيعة الأخرى أيضاً. وأنا لست في حاجة إلى أكثر من هذا البيت الخلوي الآن، فإن ذلك المكان أكثرها مناسبة لي في الوقت الحاضر.

تضايقت ماريا ديمتريفنا مرة ثانية لدرجة جعلتها تجلس منتصبه في مقعدها وتتدلى يداها بجانبها. وجاء بانشين لنجدتها ودخل في حديث مع لافريتسكي، فاستعادت ماريا ديمتريفنا هدوءها ورباطة جأشها تدريجياً، ومالت إلى الخلف ثانية وجلست جلسة مريحة في مقعدها. وكانت بين الفينة والفينة تشترك بكلمة أو اثنتين في الحديث. ولكنها

ظلت تنظر إلى ضيفها نظرة العطف والإشفاق وهي تتنهد تنهدات ذات مغزى، وتهز رأسها أسفًا وحرزًا مما أفقده صبره في النهاية، فسألها بلهجة جافة عما إذا كانت متوعدة المزاج.

أجابت مارياديمتريفنا: لا، شكرًا لله، ولكن لماذا تسأل؟

- لأنني ظننت أنك لست على مألوف عادتك.

اصطنعت مارياديمتريفنا الوقار والرزانة وافتعلت الأشياء قليلًا.

ثم فكرت قائلة لنفسها: إذا كنت تفهم ما أقول على هذا الوضع، فإنه أمر لا يعنيني في قليل أو كثير، فإنه لمن الواضح أن كل شيء يفلت منك كما ينساب الماء من مكواة الخياط. لو كان ما وقع لك قد جرى لأحد غيرك، لكان كفيلاً أن يجعله يذوي ويذبل تحت تأثير التعاسة، ولكنك قد ازددت وزناً.

ولم تكن مارياديمتريفنا تتكلف الأمور وهي تفكر فقط لنفسها، وعندما ترفع صوتها، فإنها تكون أكثر حرصًا في تخير ألفاظها لتعبر عن نفسها.

وفي الواقع وفي نفس الأمر فإن لافريتسكي لم يكن شبيهًا لفريسة الأقدار، فإن وجناته المتوردة ووجهه الروسي الكامل بوجهته البيضاء الواسعة والأنف الأميل إلى السمك والشفاه المستقيمة الطويلة، كانت تفصح عن صحة جيدة وشدة وقدرة احتمال في التكوين، فقد كان قوي البنیان استدار شعره الخفيف في حلقات كشعر صبي حول رأسه. وعلى الرغم مما كان في عينيه الزرقاوين المرتفعتين من قصور طفيف في الحركة، فإن تعبيرًا ما يمكن ملاحظته، ولكن من العسير تحديده. قد

يكون هذا التعبير كآبة، وقد يكون إجهادًا، كما أن رنين صوته كان يبدو رتيبًا نوعًا ما.

كان بانشين طوال هذا الوقت يحتمل عبء الحديث الذي أداره حول مزايا صناعة السكر، والتي كان قد قرأ عنها مؤخرًا رسالتين فرنسيتين صغيرتين، أفضى بمحتوياتهما الآن وهو يتحدث في كثير من التواضع، ولكن دون أن يذكر كلمة واحدة عن مصادر هذه المعلومات.

صاح فجأة صوت مارفا تيموفينا في الحجرة المجاورة، وكان بابها قد ترك مفتوحًا: ما بال فيديو إنه هناك. إنه فيديو حقًا. وأسرعت السيدة العجوز إلى داخل الحجرة. ولم يكن لدى لافريتسكي متسعًا من الوقت ليقف من مقعده قبل أن تحتويه بين ذراعيها. وصاحت قائلة وهي تمسك به عن بعد قليل منها: دعني أنظر إليك. كم تبدو في عافية وصحة. لقد تقدم بك العمر قليلًا، ولكنك لم تتغير أبدًا إلى الأسوأ، وهذه حقيقة واقعة. ولكن ما الذي حدا بك إلى تقبيل يدي؟ قبل وجهي من فضلك، ما لم تمنعك تجعدات وجناتي من ذلك. أظن أنك لم تستفسر أبدًا عني، وعمًا إذا كانت عميتك لا تزال على قيد الحياة أم في عداد الأموات، مع أنني استقبلتك على يدي عندما رأيت النور لأول مرة، أنت أيها الولد الذي لا يصلح لشيء. آه، حسنًا، إن الأمر سيان عندي، ولكن حسنًا فعلت إذ حضرت إلى هنا. ثم صاحت فجأة قائلة وهي تستدير لتواجه ماريا ديمترييفنا: إني أقول يا عزيزتي، هل قدمت له بعض المرطبات؟

فأجاب لافريتسكي على عجل قائلاً: لا أرغب في شيء.

- حسنًا فإنك على أي حال سوف تتناول الشاي معنا، عجبًا إن رجلًا يأتي ولا يعلم إلا الله كم يبعد المكان الذي قدم منه إلينا، ولا يعني

أحد بتقديم قدح من الشاي أو شيء من هذا القبيل له! اذهبي يا ليزا بسرعة وتولي هذا الأمر بنفسك، إنني لأذكر أنه كان نهمًا مريعًا وهو فتى يافع وحتى الآن، فلا يستبعد أنه مغرم بالطعام، محب للشراب.

قال بانشين وهو يتوجه نحو السيدة العجوز الثائرة وينحني لها انحناء شديدة:

- اسمحي لي أن أقدم لك فروض الاحترام، يا مارفا تيموفيفنا.

أجابت مارفا تيموفيفنا: أرجوك المَعذرة، يا سيدي العزيز، لقد أهملتكَ في لحظات سروري. واستطردت قائلة وهي تتجه من جديد نحو لافريتسكي: إنك تشبه أمك شبهًا تامًّا، والفرق الوحيد أنه كان لك دائمًا أنف أبيك وما زلت تحتفظ بهذا الأنف. حسنًا، هل ستمكث هنا طويلاً؟

- سوف أرحل غدًا يا عمتي.

- إلى أين؟

- إلى منزلي في فاسيليفسكوي.

- غدًا؟

- غدًا.

- إذا كان ولا بد من رحيلك غدًا، فليكن لك ما تريد، إن الله معك، فأنت خير من يعرف ما هو الأصلح لك، وفقط يجب أن تهتم بالحضور إلى هنا لتودعنا. وربت السيدة العجوز على خده برقة، وقالت: لا أظن أن العمر سيمهلني حتى أراك تعود ثانية. ولا أفرض بذلك أنني على

وشك الرحيل عن هذه الدنيا، لا، لا! فقد بقي لي في الحياة ما يكفيني عشر سنوات قادمة. فنحن جميعاً آل بستوف معمرين، لقد اعتاد جدك الراحل أن يطلق علينا ذوي العمرين، ولكن الله وحده يعلم كم كنت على وشك أن تبدد العمر في الخارج. حسنًا، حسنًا!

- إنك لفتي لطيف، فتى لطيف جدًا، وما زلت تستطيع رفع عشر بودات^(١) بيد واحدة، كما اعتدت أن تفعل في الماضي. ووالدك الراحل - وأسألك المعذرة عن هذا القول - كان سخيًّا ما وسعه السخف، ولكنه أحسن صنعًا عندما جاء لك بذلك المؤدب السويسري. هل تذكر مباريات الملاكمة التي كنت تخوضها ضده؟ الألعاب الرياضية، أليست هي، كما اعتدت أن تسميها؟ ولكن ترى لماذا أستمّر في هذا الهراء؟ سوف أمتنع فقط مسيو بانشين (لم تتعود أن تضع الشدة قط على المقطع الأول من اسمه، كما كان يجب عليها أن تفعل) من أن يتفضل علينا بإبداء آراءه، وعلى العموم فالأفضل كثيرًا لنا أن نذهب ونتناول الشاي. نعم دعونا نذهب وتناوله في الشرفة، فلدينا قشدة فاخرة - ليست كالتي عندهم في لندن وباريس - هلموا بنا، هلموا بنا، وأنت يا جيديونوفسكي أعطني ذراعك، يا لها من ذراع قوية! بكل تأكيد سوف لا أسقط ما دمت بجانبني.

وقف الجميع وذهبوا إلى الشرفة ما عدا جيديونوفسكي الذي انسل خفية إلى الخارج، وظل لافريتسكي طوال الوقت يتحدث مع سيدة الدار وبانشين ومارفا تيموفينا، وذلك السيد العجوز كان قابعًا في ركنه يضغط عينيه إلى أعلى ويمط شفتيه، وهو يصغي بفضول الطفل إلى كل

(١) البود وزن ستة وثلاثين رطلاً.

ما قيل. وعندما غادر المكان، كان يقصد المبادرة بالإسراع ليذيع في طول المدينة وعرضها خبر الوافد الجديد.

وهذه هي صورة مما كان يجري في منزل آل كاليتين في الساعة الحادية عشرة من ذلك المساء نفسه. ففي الطابق السفلي، وعلى عتبة حجرة الاستقبال، كان بانشين يستأذن في الانصراف من ليزا ويقول وقد أخذ يدها في يده: أنت تعرفين من الذي يجتذبني إلى هذا المكان. وأنت تعرفين السبب الذي من أجله أتردد على منزلكم، ما الفائدة من الألفاظ عندما يكون الأمر واضحًا كل الوضوح.

لم تجب ليزا بكلمة واحدة ولم تبسم. وبينما كانت تقطب حاجبيها قليلاً وتصبغ الحمرة وجهها تدريجاً، ظلت تثبت عينيها في الأرض، ولكنها لم تسحب يدها من يده. وفي الطابق العلوي في حجرة مارفا تيموفينا كان نور المصباح الذي يتدلى في الركن أمام الصور المقدسة التي أحال الزمن لونها داكنًا، كان هذا النور يسطع على لافريتسكي وهو جالس في مقعد ذي مسندين، وقد استقر مرفقاه على ركبتيه وقد اختفى وجهه في راحتيه. ووقفت أمامه السيدة العجوز التي كانت بين الفينة والفينة تمرر يدها في صمت على شعره. وقد قضى معها أكثر من ساعة من الزمن، بعد أن استأذن في الانصراف من سيدة البيت. وندر أن قال كلمة لصديقتة العجوز الحنون. وهي لا تلقي عليه أسئلة ما، ولماذا كان يجب عليه أن يتكلم؟ وماذا كان يمكنها هي أن تسأل؟

فقد فهمت كل شيء جيداً، وكانت تشاركه كل مشاعره التي ملأت قلبه.

الفصل الثامن

فيدور إيفانوفتش لافريتسكي (وهنا يجب علينا أن نستأذن القارئ في أن نقطع خيط القصة لبعض الوقت) انحدر من أسرة نبيلة ذات تاريخ طويل، ومؤسس السلالة هاجر من بروسيا إبان حكم بازل الأعمى^(١)، وخلعت عليه منحة تبلغ مائتي شتفوت^(٢) في مقاطعة بيجيتسكي. وقد شغل كثير ممن خلفه مراكز رسمية متعددة، وعينوا في وظائف الحكام في أماكن نائية تحت إمرة الأمراء والشخصيات ذوات النفوذ، ولكن لم يحصل أحد منهم على مساحات شاسعة من الأرض، كما لم يصل منهم أحد إلى مركز أعز من مركز مفتش في مجلس القصر.

وكان أوسع أفراد أسرة لافريتسكي ثراء وأكثرهم نفوذًا، هو جد فيدور إيفانوفتش الأكبر لأبيه، أندريه، وكان رجلًا فظًا غليظ القلب، متصلفًا، ثاقب الفكر وداهية، وحتى ذلك الوقت لم يكف الناس أبدًا عن الحديث عن نزعته الاستبدادية، وطبعه الشرس، وتبذيره دون إدراك،

(١) في القرن الخامس عشر.

(٢) مقياس قديم للأرض يقدر تقديرات شتى تبدأ من فدانين إلى ستة أفدنة.

وطمعه الذي لا يشبع. كان طويل القامة جدًّا، بدينًا، أسمر اللون، حليق اللحية. كان يلثغ إذا تكلم، ويبدو دائمًا نصف نائم. ولكنه كلما ازداد هدوءًا في حديثه ازداد ارتجاف من حوله. وقد عثر بزوجة من طرازه ذات وجه مستدير صفراء اللون، مرتفعة العينين، ولها أنف صقر.. تنحدر من أصل بوهيمي مشبوبة العاطفة.. حقودة الطبع، أبت على زوجها الطاعة في كل ما طلب منها، فدفع بها إلى قبرها في النهاية، وهي التي على الرغم من أنها كانت تشتبك معه في عراك مستمر، لم تستطع الصبر عليه طويلًا حتى تبقى على قيد الحياة.

ولم يحذ ابن أندريه، بطرس، وهو جد فيدور حذو أبيه. فقد كان سيّدًا ريفيًّا شاذًّا غريب الأطوار إلى حد ما، كثير الضجيج، بطيء الحركة فظًّا، ولكنه ليس شريرًا، مضيافًا، كرس حياته للصيد والقنص. كان قد جاوز الثلاثين من العمر عندما ورث عن أبيه ألفين من الرقيق الذكور، وكلهم في أحسن حال، ولكنه سرعان ما راح يبدد أملاكه، فتخلص بالبيع من جزء منها، وأفسد أهل بيته وعياله. وكانت حجرات بيته الفسيحة الدافئة القذرة تعج بالناس من الطبقات الدنيا من ذوي الشهوة، أو النكرات الذين كانوا يتدفقون من كل حذب وصوب مثل الجنادب. وكان جميع هؤلاء الزوار يلتهمون كل ما يقع في طريقهم ويحتسون كؤوسهم حتى يثملوا ويحملوا كل ما يستطيعون حمله، وهم يمجدون ويعظمون مضيفهم الأنيس الودود. أما مضيفهم فكان إذا ما غضب عليهم، نعتهم بالمحتالين والطفيليين، ولكن إذا ما حرم صحبتهم، سرعان ما كان يستشعر السّامة والملل.

وكانت زوجة بطرس أندريافتش مخلوقاً هادئاً، تزوجها من أسرة مجاورة، نزولاً على اختيار أبيه وإذعاناً لأمره. وكان اسمها آنا بافلوفنا، لم تكن تتدخل في شأن من شؤونها، وكانت تستقبل ضيوفها بأدب وترحاب، وتغشى المجتمعات راضية مسرورة، ولو أنه «كان موتها» ولنستعمل نص عبارتها، أن تضع المساحيق على وجهها «هم يضعون قلنسوة من اللباد على رأسك» هكذا اعتادت أن تقول في شيخوختها، «يرجلون شعرك كل شعرك من طرفه حتى نهايته، ويدهنونه بالشحم، ويرشونه بال دقيق، ويلصقونه حتى يمتلئ بالدبابيس الحديدية، وينتهي بك الأمر إلى أن تعجز عن تنظيفه فيما بعد، ولكن كانت الزيارة مستحيلة دون المساحيق، فقد كان هذا يسيء إلى الناس، فيا له من عذاب». وكانت تحب قيادة عربتها بسرعة، وعلى استعداد لأن تلعب الورق من الصباح حتى المساء، وعندما كان يقترب زوجها من مائدة اللعب، كان من عاداتها دائماً أن تغطي بيدها الخسائر التافهة المحتسبة عليها، ولكنها وهبته، دون تحفظ، كل بائنتها، وكل ما ملكت يداها من مال. وقد وهبته طفلين، ابن يسمى إيفان، وهو والد صاحبنا فيدور، وابنة هي جلافيرا^(١).

لم ينشأ إيفان في البيت، ولكن في منزل عمه بتول عجوز موسرة هي الأميرة كوبنسكي. وأطلقت عليه ولي عهدا ووريثها (وإلا لما سمح له أبوه بالذهاب). وألبسته ثياباً كدمية المثال، وجاءت له بالمدرسين من كل لون، ووضعته في رعاية مؤدب فرنسي -رئيس دير سابق، تلميذ

(١) توضع الشدة على المقطع الثاني من هذا الاسم.

لجان جاك روسو - اسمه مسيو كورتين دي فوسل، حاذق ذو مكر ودهاء وصاحب دسائس «زهرة الهجرة الناضرة» كما عبرت عن نفسها، وانتهى بها الأمر إلى الزواج من هذه الزهرة الناضرة، وهي تكاد تبلغ السبعين من العمر. فنقلت جميع ممتلكاتها إلى اسمه، وسرعان ما وضعت الخضاب الأحمر على وجهها، وتعطرت بالعنبر على طريقة ريشيليو، وأحاطت نفسها بالفتيان السود، وكلاب الصيد الإيطالية والبيغاوات الصاخبة. وماتت وهي مستلقية مسترخية على أريكة حريرية مقوسة من طراز لويس الخامس عشر، وبين يديها صندوق سعوط مطلي بالميناء من عمل بيتوت، ماتت وقد هجرها زوجها، ولقد فضل المسيو كورتين الداهية أن يستولي على مالها ويرحل إلى باريس.

كان إيفان في العشرين من عمره عندما مُنِيَ بهذه الصدمة غير المتوقعة. ولكن نحن نتحدث عن زواج الأميرة وليس عن موتها، وفي منزل عمته، حيث انتقل فجأة من مركز الوريث الغني، إلى وضع التابع، الكَلّ على غيره، فلم يطق البقاء أكثر مما فعل، وفي بطرسبرج أطبق المجتمع الذي نما فيه وترعرع عليه أبوابه؛ لأنه كان يشعر بنفور عظيم من الطبقات الدنيا ومن الوظائف العمومية والحياة الشاقة المغمورة التي يعيشونها. ويجب أن نتذكر أن كل هذا قد حدث في باكورة حكم الإمبراطور إسكندر الأول^(١) فاضطر مكرهاً أن يعود أدراجه إلى منزل أبيه في الريف، هذا العش الأبوي بدا له قدراً ماحلاً تعساً، وكان في كل خطوة من خطواته تنغص حياته الوحدة والكآبة في عزلة الريف،

(١) عندما ساد الفساد نظام الحكم.

وقد التهمه الضجر.. وزيادة على هذا، فإن كل فرد في المنزل، باستثناء أمه، كان ينظر إليه نظرة خالية من الحب. كان أبوه يبغض عاداته التي اكتسبها في العاصمة، والسترات التي يرتديها، والشنيات في أقمصته، وكتبه، والناي الذي في حوزته ونظافته، وبسببها كان يشكو -وهو على حق- من أن ابنه كان ينظر إليه نظرة ملؤها الاشمئزاز والنفور، كان دائم الضجر من ابنه والشكوى من سلوكه.

اعتاد أن يقول: لا شيء في الدنيا هنا يدخل السرور على قلبه، فهو شديد التأنيق على المائدة، ولا يأكل شيئاً. لا يحتمل هواء الحجرة ورائحتها، ويشيره منظر السكاري، أما أن تضرب أحداً أمامه، فهو ما لا تقدم عليه بحال، ثم هو لا يدخل الخدمة العسكرية لأنه ضعيف حقاً.. ياه.. يا له من جمل مستنوق، وكل هذا لأن رأسه محشو بفولتير!

وكان الرجل العجوز يبغض فولتير على الخصوص، وكذلك ديديرو («الكافر»)، على الرغم من أنه لم يقرأ كلمة واحدة من كتاباتهما، فلم تكن القراءة لتدخل في حياته.

لم يكن بطرس أندريه على خطأ، فقد كان كلاً من فولتير وديديرو حقاً يحتلان تفكير ابنه، وليت الأمر كان قاصراً عليهما، فهناك كان روسو ورينال وهيلفيتوس أيضاً، وكثير من الكتّاب الآخرين ممن على شاكلتهم، كانوا في رأسه فقط. فإن مؤدب إيفان بتروفتش السابق، وهو رئيس الدير المتقاعد والموسوعي، قد أَرْضَى نفسه بأن صب كل حكمة القرن الثامن عشر متجمعة على تلميذه، وهكذا عاش التلميذ وهو مشبع بها، وقد بقيت هذه الحكمة قائمة بذاتها في التلميذ دون أن تختلط

بدمائه، ودون أن تذوب وتتحول إلى عقائد ثابتة. وهل من المعقول أن تطالب حدثاً بمعتقدات منذ نصف قرن من الزمان مضى، عندما كنا نحن لما نحصل على أي منها بعد

وفي منزل أبيه، كان إيفان بتروفتش يبلبل خواطر الزائرين. كان متكبراً بصورة حالت دونهم ودونه، فلم يكن لهم شأن به، وكانوا يخشونه. ولم يكن أيضاً على وفاق مطلقاً مع أخته جلافيرا، التي كانت تكبره باثنتي عشرة سنة، كانت جلافيرا هذه مخلوقاً عجيباً، فقد كانت بسيطة مشوهة التكوين، هزيلة، ذات عينيْن شاخصتين قاسيتين، وشفَتين رقيقتين مطبقتين. وكانت في وجهها وصوتها، وفي حركاتها العادة السريعة، تشبه جدته البوهيمية زوجة أندريه. ولما كانت عنيدة محبة للسلطة، فلم تكن لتستمع لأحد يتحدث عن الزواج مجرد حديث. ولم تكن عودة إيفان بتروفتش إلى المنزل لتروقها بحال من الأحوال. وما دامت الأميرة كوبنسكي تحتفظ به في بيتها، فقد أملت جلافيرا أن تحصل على نصف ممتلكات أبيها على الأقل. وكانت تشبه جدتها في شحها، كما كانت تشبهها من أوجه أخرى. وزيادة على ذلك، فإن جلافيرا كانت تغار من أخيها. كان قد تربي تربية طيبة جداً، ويتكلم الفرنسية الصحيحة بلهجة باريسية. وكانت لا تحسن قول «صباح الخير» و«كيف حالك؟» بتلك اللغة. إنه لحق أن أبويها كانا يجهلان الفرنسية، ولكن ذلك لم يحسن الأمور بالنسبة لها.

أما عن إيفان بتروفتش، فقد كان في حيرة من أمره، لما هو فيه من ضيق وملل. ولما يمض عليه في الريف عام أو بعض عام، وحتى هذا

الوقت بدا له كعقد من الزمان. ولم يكن يستشعر الراحة ودعة الروح إلا مع أمه، واعتاد أن يجلس الساعات الكاملة في حجراتها الواطئة يصنعي إلى حديث السيدة الطيبة الساذج المفكك، وهي تحشو معدته بالأطعمة المحفوظة.

وكانت بين وصيفات أنا بافلوفنا صبية على قسط وافر من الجمال تُدعى مالينا. ولما كانت ذكية ومتواضعة ذات عينين هادئتين عذبتين جباهما الله الوسامة والقسامة، فقد بعثت السرور في نفس إيفان بتروفتش منذ البداية، وسرعان ما وقع صريع هواها. أحب فيها مشيتها على استحياء وإجاباتها الوديدة وصوتها الرقيق وابتسامتها الهادئة. وكانت تبدو في عينيه أكثر فتنة منها في يومها السابق. والتصقت بإيفان بتروفتش بكل ما أوتيت من قوة روح -إذ إن الفتيات الروسيات فقط هن اللائي يعرفن كيف يهبن أنفسهن - فوهبته نفسها. وفي المنزل الريفي لا يمكن أن يبقى السر مغلقاً طويلاً، وفي فترة وجيزة عرف كل من كان هناك تقريباً غرام السيد الشاب بمالينا، وفي النهاية وصل الخبر بطرس أندريه نفسه. ولقد كان من المحتمل لو أن هذا حدث في وقت آخر ألا يعير اهتماماً لمثل هذا الأمر التافه، ولكنه كان يتآكل حفيظة وموجدة ضد ابنه، فسرّه أن تسنح له هذه الفرصة للتشهير بالغندور المتفلسف القادم من بطرسبرج. ثم هبت عاصفة صحبتها الضوضاء والصراخ، فقد أودعت مالينا حجرة المؤمن^(١) وأحكم عليها رتاجها، واستدعى إيفان بتروفتش ليمثل أمام أبيه، كما حضرت أنا بافلوفنا تجري على عجل

(١) حجرة صغيرة تحت الدرج.

إلى مسرح الاضطراب، وحاولت أن تهدئ من روع زوجها. ولكنه لم يصغ لكلمة واحدة مما قالت، واستجمع قواه وهجم على ابنه كصقر، متهمًا إياه بفساد الخلق والإلحاد والنفاق، وشفى نفسه باغتنام مثل هذه السانحة السعيدة، ليصب على ابنه جام غضبه الذي طال كبته ضد الأميرة كوينسكي، وأغرقه في طوفان من العبارات المهينة.

ولاذ إيفان بتروفتش بالصمت أولاً واحتفظ بسيطرته على نفسه، ولكن عندما ظن أبوه أن الفرصة مناسبة ليهدده بالعقاب بالشهير به، لم يتمالك نفسه أكثر مما فعل «آه!» وفكر قائلاً: «سوف يعود الحديث عن ديديرو والمراتب ثانية. حسنًا، إذن سوف أضع تعاليمه موضع التنفيذ»، وبناء على هذا وبصوت متزن، رغم الرعدة الخفيفة التي كانت تسري في كل أعضاء جسمه، أخبر أباه أنه أخطأ لاتهامه بفساد الخلق، وأنه ليس لديه النية لتبرير خطئه، ولكنه على استعداد لإصلاح هذا الخطأ، وأنه كلما زادت رغبته في ذلك بقدر ما كان يستشعر نفسه فوق مستوى التقولات، فهو في الواقع كان على استعداد للزواج من مالانیا. وبالتصريح بهذه الكلمات بلغ إيفان بتروفتش، من دون شك، الغاية التي كان يستهدفها. وبلغ من دهشة بطرس أندريه أن فتح عينيه إلى أقصى اتساعهما، وظل صامتًا لبعض الوقت، ولكن سرعان ما أفاق من ذهوله ولتوه. ولما كان ملتفًا في النشير (روب دي شامبر) الموشى بفراء السنجاب والأخفاف المنزلية في قدميه العاريتين، هجم بقبضتي يديه على ابنه، الذي كما لو كان عن عمد، قد صفف شعره في ذلك اليوم على الطريقة (تيتوس) وارتدى سترة النشير الزرقاء الجديدة تمامًا،

وقد صُنعت على الطريقة الإنجليزية، كما لبس الحذاء ذا الشرايات المزركشة الأنيقة، والسرراويل الضيقة المحكمة اللائقة المصنوعة من جلد الغزال الصوفي. أطلقت أنا بافلوفنا صرخة عالية وأخفت وجهها في يديها. وفي الوقت نفسه انطلق ابنها يجري بين جنبات المنزل، ثم قفز إلى فنائه بأن ألقى نفسه أولاً في حديقة المطبخ، ثم إلى الحديقة الزهرية، ثم أطلق ساقيه للريح عبر الحديقة العامة إلى الطريق، وظل يوالي الجري دون أن يتلفت مرة واحدة إلى خلف إلى أن توقف صوت وقع أقدام أبيه الثقيلة من خلفه، وانقطعت الصيحات المتقطعة العالية التي كان يطلقها وهو ينشج صارخاً: «قف، أيها النذل الشرير، قف! وإلا صبيت عليك اللعنة!».

احتفى إيفان بتروفتش في منزل جار لهم، وعاد أبوه منهوك القوى تماماً غارقاً في عرقه. وهناك أعلن، ولم يكذ يعطي نفسه فسحة من الوقت ليسترد أنفاسه، أنه جرد ابنه من بركاته وأملاكه، وأمر بحرق كتبه الغبية الخرقاء، كما أصدر أوامره بأن تحمل البنت مالانیا، دون إبطاء إلى قرية نائية. اكتشف بعض الناس -من أهل الخير- أين يختبئ إيفان بتروفتش وأخبروا والده بكل شيء. ولما كان يغطيه العار ويتميز من الغيط، فقد أقسم على الانتقام من أبيه، وفي نفس تلك الليلة كمن في انتظار العربة التي تحمل مالانیا إلى منفاه، وأخذها قسراً وركض بها إلى أقرب بلدة حيث تزوجها. وقد زوده جار له بكل الوسائل اللازمة له، وكان هذا الجار ملاحاً متقاعدًا يدمن الخمر، وهو رقيق لطيف إلى أقصى حد، ومحب عظيم لجميع «السير النبيلة» كما كان يسميها.

وفي اليوم التالي بعث إيفان بتروفتش إلى أبيه برسالة مهذبة، ولكنها فاترة، فيها استهزاء وتهكم، ثم شخص إلى ضيعة يملكها اثنان من أبناء عمومته من الجيل الثاني - وهما ديمتري بستوف وأخته مارفا تيموفيفنا - والتي قد سبق أن تعرف بها القارئ، وقص عليهما كل ما قد وقع، وأعلن عزمه على الذهاب إلى سانت بطرسبرج؛ لبحث عن وظيفة، ورجاهما أن يأويا زوجته ولو إلى حين. ولقد انتحب بمرارة عند ذكر كلمة «زوجة»، وعلى الرغم من أنه تلقى تعليمه في العاصمة، وعلى الرغم من فلسفته، ركع في ذلة شأنه شأن فلاح روسي قح. لم يركع عند مواطئ أقدام ذوي قرباه هؤلاء فحسب، بل لمس الأرض بجبتهته.

وقد نزل آل بستوف وكانوا رحماء ذوي رأفة وحنان عند رجائه راضين. قضى معهم ثلاثة أسابيع وهو ينتظر في السر ردًا على رسالته من أبيه، ولكنه لم يتلق أي رد، فلا يمكن أن يصل رد. وعندما تلقى بطرس أندريه خبر زواج ابنه، ذهب إلى فراشه، وأصدر أوامره بعدم ذكر اسم ابنه له أبدًا مرة ثانية، ولكن أم إيفان - ودون علم زوجها - اقترضت مبلغ خمسمائة روبل بالعملة الورقية من قس^(١) يجاورهم وأرسلته إلى ابنها مع صورة صغيرة مقدمة لزوجته. كانت تخشى أن تكتب إليه، ولكنها أخبرت رسولها - وهو فلاح صغير نحيل ضامر، يمكنه أن يقطع ستين (فرستا) في اليوم - أن يقول لإيفان ألا يخشى الكثير من أمره، وما عليه إلا أن يسلك ما رضي الله، ففسير الأمور على خير ما يكون ويتحول

(١) الترجمة الحرفية للكلمة الروسية تعني أحد رجال الكهنوت يتولى الإشراف على عدد من الكنائس أو الأبرشيات، وهو ثاني أسقف أو نائب مطران في الريف.

غضب أبيه إلى عطف وحنان. وأنها من جانبها كانت تفضل كنة^(١) من طراز آخر، ولكن من الواضح أنها كانت إرادة الله ولا مرد لإرادته، وأنها تبعث ببركاتهما الأبوية إلا ما لينا سير جيفنا. وبعد أن تسلم الفلاح النحيل الصغير روبلاً، واستأذن في الانطلاق ليقابل سيده الجديدة التي كان يقوم بالعمل من أجلها، قبل يد سيده الأم، وقفل راجعاً إلى بيته.

وهكذا رحل إيفان بتروفتش إلى سانت بطرسبرج مبتهجاً منتعش الفؤاد. كان ينتظره مستقبل غامض، فقد يهدده الفقر، ولكنه قد قطع علاقته بالحياة البغيضة في الريف، وعلاوة على هذا كله، فهو لم يقصر في حق مثقفيه، فقد «وضع حقاً، موضع التنفيذ» وأنصف عقائد روسو وديديرو و«إعلان حقوق الإنسان»، وكان لإيمانه بأنه قد أدى الواجب عليه، أن امتلأت نفسه بالإحساس بالكرامة والنصر، ولم يخش كثيراً حقيقة الانفصال عن زوجته، فهو سرعان ما سيقلق بضرورة بقائه باستمرار في الحياة معها، فأمامه الآن واجبات أخرى يجب عليه التفكير فيها، وقد انتهت مهمة واحدة منها فقط.

وفي سانت بطرسبرج، وعلى غير ما كان يأمل ويتوقع، ظفر بالنجاح، فإن الأميرة كوبنسكي - التي كان قد تخلى عنها مسيو كورتين والتي لم تستسلم للموت بعد - عسى أن تصلح من سلوكها، ولو بعض الإصلاح فقط في علاقاتها مع ابن أخيها، ولقد أوصت به خيراً عند جميع أصدقائها، وأعطته مبلغ خمسة آلاف روبل كانت تقريباً كل ما تملك، كما منحته ساعة نقش على ظهرها طغراؤه وقد أحاط بها إكليل من إله الحب كيوبيد.

(١) الكنة : : امرأة الابن.

ولم تكد تنصرم ثلاثة أشهر حتى تلقى أمراً بتعيينه في هيئة موظفي السفارة الروسية في لندن، إلى حيث يجب أن يقلع (إن السفن البخارية لم يكن يتحدث عنها أحد مجرد حديث في ذلك الوقت) على ظهر أول سفينة شراعية إنجليزية، يمكن أن يجدها، في طريقها إلى هناك. وبعد مرور شهور قلائل تلقى رسالة من بستوف أزجى إليه فيها الرجل الرقيق تهنتته بمولد ابن له رأى النور لأول مرة في قرية بوكروفسكي في العشرين من أغسطس ١٨٠٧، وسمي باسم فيدور ستراتيلايس. ولم تتمكن مالينا سيرجيفنا، بسبب ضعفها الشديد، من أن تضيف إلى الرسالة سوى أسطر قلائل فقط. ولكن حتى هذه الأسطر القلائل قد أثارت دهشة إيفان بتروفتش، فإنه لم يتنبه إلى أن مارفا تيموفيفنا قد علّمت زوجته القراءة والكتابة.

ويجب ألا تظن أن إيفان بتروفتش قد أسلم نفسه وقتاً طويلاً إلى العواطف والأحاسيس العذبة التي تولدها المشاعر الأبوية، فقد كان في ذلك الحين يطارح ليزي أوفرين الغرام (كانت الأسماء الكلاسيكية لا زالت شائعة الاستعمال في ذلك الوقت) وكان صلح تيلست^(١) قد أبرم وسارع الكل إلى الاستمتاع بحياتهم، وقد جرفت الجميع دوامة نشوى، وقد ساعدت العينان السوداوان لفاتنة جريئة على أن يفقد صوابه أيضاً ويركب رأسه، كان يملك قدرًا ضئيلاً جدًا من المال، ولكنه يقامر، وقد أسعده الحظ في اللعب فاكسب الأصدقاء، وشارك في كل ضروب اللهو والمتعة، وبالاختصار فقد أقلع وقد امتلاً شراعه.

(١) ربما كان من نتائج عقد هذه المعاهدة أن انسحبت السفارة الروسية من لندن ومن المحتمل أن يكون إيفان بتروفتش قد ذهب إلى باريس.

الفصل التاسع

ظل لافريتسكي الكبير وقتاً طويلاً لا يستطيع أن يغفر لابنه زواجه، ولو أن إيفان بتروفتش بعد انقضاء ستة أشهر، مثل أمام أبيه بقلب منسحق باذي الندم وركع عند قدميه، لكان من المحتمل أن يمنح الرجل العجوز المذنب عفوه، بعد أن أساء معاملته جزاءً وفاقاً، ولقرعه بعصاه التي يتوكأ عليها؛ لكي يدخل الروع إلى قلبه. ولكن إيفان بتروفتش استمر مقيماً في الخارج، ومن الواضح أنه لم يزعج نفسه في قليل أو كثير بأبيه، وكان أندريه بتروفتش يصيح في وجهه زوجه قائلاً لها في كل مرة حاولت فيها تهدئته: «اصمتي! لا تقدمي على التفوه بكلمة أخرى. إن ذلك الكلب يجب أن يرفع صلوات الشكر لله من أجلي لأنني لم أصب عليه اللعنة، ذلك الولد العاق الذي لا يصلح لشيء! كان على والدي الراحل أن يقتله بيديه، ولو فعل لأحسن صنعاً»، وكل ما كانت تفعله أنا بتروفتش أن ترسم إشارة الصليب خفية وهي تستمع إلى مثل هذه الكلمات المروعة التي سمعتها. أما عن ابن زوجته فإن أندريه بتروفتش لم يرد أن يسمع كثيراً عنه منها في أول الأمر، وحتى عندما كان عليه أن

يجيب على رسالة حررها بستوف وذكر بها اسم كنته، أمر أن يبعث إليه برسالة تتضمن أنه لا يعرف أي امرأة يمكن أن تكون كنة له، وأن القانون يمنع إيواء أنثى الرقيق، وأنها لحقيقة أن من واجبه أن يحذره منها. ولكن فيما بعد عندما علم بمولد حفيده رق قلبه قليلاً، وأمر بالاستفسار سرّاً، نيابة عنه، عن صحة الأم وأرسل لها مبلغاً صغيراً، وكأنه لم يكن هو الذي أرسله.

وقبل أن يبلغ فيدور عامه الأول أصيبت جدته أنا بافلوفنا بمرض قتال. وقبل موتها بأيام معدودات - ولم تعد تستطيع أن ترفع رأسها من فراشها - أخبرت زوجها بمحضر القس، وقد سحت عينها بالدموع الخفرة وهي تموت، أخبرته أنها ترغب في رؤية كنتها لتودعها وتبارك حفيدها، أما وقد تأثر الرجل العجوز تأثراً شديداً، فقد رجاها فقط أن تهدئ من روعها وتهدأ بالاً، وأرسل عربته فوراً، من أجل كنته، وهو يدعوها للمرة الأولى، مالانیا سيرجيفنا^(١).

وصلت مالانیا والولد بصحبة مارفا تيموفينا، التي لم يكن ليغريها شيء بالسماح لها بالذهاب بمفردها، والتي عقدت العزم على ألا تتركها تعرض نفسها لأي أذى. دخلت مالانیا سيرجيفنا مكتب صهرها يكاد يقتلها الذعر، ومن خلفها تحمل مريض الطفل فيديا. نظر إليها بطرس أندريه في صمت، أما هي فقد اقتربت منه وتناولت يده، وبالجهد طبعت عليها بشفتيها المرتعشتين قبلة صادقة.

(١) أعني أنه لم يكن يتحدث عنها كما لو كانت لا تزال خادماً.

وقال لها أخيرًا: حسنًا أيتها السيدة النبيلة^(١)، أرجو لك يومًا طيبًا،
هلمي بنا إلى حجرة زوجتي.

وقف وانحنى على فيديا، فابتسم الطفل ومد يديه الصغيرتين
البضاوين نحوه، فمست الرحمة شغاف قلبه.

وما إن وطأت أقدام مالانیا سيرجيفنا أرض حجرة أنا بافلوفنا حتى
خرت على ركبتيها قرب بابها، فأومأت إليها أن تقترب من فراشها
وعانقتها وباركت طفلها.

ثم أدارت نحو زوجها وجهها وقد أضنته الآلام القاسية وطول
المعاناة، وحاولت أن تتحدث إليه، ولكنه حال دونها والحديث.

وقال لها: «إنني أعرف، ما ستسأليني، لا تقلقي، فسوف تقيم بيننا
ومن أجل خاطرها سأغفر لفانكا»^(٢).

نجحت بافلوفنا بعد جهد جهيد في أن تتناول يد زوجها وتضغطها
إلى شفتيها، وفي هذا المساء نفسه فارقت الحياة.

ولقد برّ أندريه بتروفتش بوعده، فقد أنهى إلى ابنه أنه احترامًا
للحظات الأخيرة في حياة أمه، ومن أجل الطفل الصغير فيدور، أنه
قد رد إليه بركاته، وأنه سيبقي مالانیا سيرجيفنا في المنزل. ونجم عن
ذلك أن أعطيت مالانیا حجرتين صغيرتين في الدور العلوي، وقام
بتقديمها إلى أكثر معارفه وأصدقائه احترامًا بريجادير سكوريكهين

(١) الترجمة الحرفية لهذه العبارة «أيتها السيدة النبيلة قبل الأوان Thashed while damp الحنطة
التي تدرس ولما تنضج بعد، فإن كثيرًا منها يدرس في روسيا قبل أن يتم نضجه وجفافه.

(٢) تصغير إيفان، ويدل بعض الشيء على الاحتقار؛ لأن فانيا هو اسم التذكير.

الأعور وزوجته، كما وضع في خدمتها خادمتين وخادمًا صغيرًا لقضاء حاجياتها من الخارج.

وبعد أن غادرتها مارفا تيموفينا -التي كانت تضم كرهاً شديداً لجلافيرا التي اشتبكت معها في عراك ثلاث مرات غضون يوم واحد- فإن المرأة المسكينة ألقت نفسها في موقف لا تحسد عليه، قاس ومؤلم في أول الأمر، ولكنها بعد مضي بعض الوقت، ظفرت بالصبر وأنست إلى صهرها كما أنس هو من جانبه إليها وأولع بها، على الرغم من أنه ندر ما تحدث إليها، وعلى الرغم من أنه حتى في ملاطفته وتدليله لها، كان يبدى ازدراء معيناً غير إرادي يكشف به عن دخيلة نفسه. على أن أكثر ما قاسته مالانیا كان من أخت زوجها. وقد نجحت جلافيرا في إبان حياة أمها في أن تستبد بكل تدبيرات المنزل تماماً، وقد أذعن لها كل من في البيت ابتداء من أبيها إلى من هم دونه، فلم يكن يتيسر الحصول على قطعة من السكر دون إذنهما، وكان من الأهون عليها أن تلقى الموت من أن تنقل سلطتها إلى زوجة أخرى في المنزل، وخصوصاً مثل هذه الزوجة! وقد ضايقها زواج أخيها أكثر مما ضايق بطرس أندريه، ولذا فقد أصرت على أن تلقن محدثة النعمة درساً طيباً. وغدت مالانیا سيرجيفنا رقيقاً لها منذ البداية. والحق أن مالانیا قد وقعت وهي عزلاء تماماً من كل وسائل الدفاع، سقيمة البدن، فريسة الهم المقيم والرعب الدائم، إذ كيف كان يتأتى لها الوقوف أمام جلافيرا المتجبرة العنيدة؟ والواقع أنه ما كان يمر يوم دون أن تذكرها بماضي حياتها، وتنعته بكل النعوت، إلى أن تنسى هي نفسها ذلك، وكانت مالانیا سيرجيفنا تتقبل

هذه الذكريات وتلك النعوت مهما كانت مريرة في صمت، ولكن كان إبعاد طفلها عنها هي الضربة التي أوردتها موارد اليأس والقنوط. فعلوا ذلك بدعوى أنها ليست لها المؤهلات لتضطلع بتربية ابنها، فلم يُسمح لها إلا في القليل النادر بالاقتراب منه، وأخذت جلافيرا الأمر كله على عاتقها، وأصبح الطفل في حوزتها تمامًا.

وفي غمرة آلامها بدأت مالانیا سيرجيفنا تضرع إلى زوجها في خطاباتهما أن يسارع بالعودة. وكان بطرس أندريه نفسه يرغب في رؤية ابنه، ولكن الرد على هذه الرغبة كان يقتصر على إرسال خطابات يشكر فيها أباه على ما فعله من أجل زوجته، ومن أجل النقود التي قد أرسلها إليه ووعد بالعودة إلى البيت حالًا، ولكنه لم يرب بوعده.

وفي النهاية حل عام ١٨١٢ وعاد به إلى أرض الوطن من الخارج، وعندما التقت أنظار الأب والابن للمرة الأولى بعد فراق دام ستة أعوام، تقابلا في عناق حار، ولم يشر أحدهما بكلمة إلى مشاجراتهما السابقة. فلم يكن الوقت يسمح بذلك. فقد هبت روسيا عن بكرة أبيها في وجه العدو وشعر كلاهما أن الدم الروسي يجري في عروقهما، فجهز بطرس أندريه فرقة كاملة من المتطوعين على نفقته الخاصة. ولكن وضعت الحرب أوزارها واختفى شبح خطرهما، وأحس إيفان بتروفتش بالضجر والضييق مرة أخرى. ومرة أخرى افتتن بالحياة النائية في ذلك العالم الذي شب فيه ونما، وفيه شعر أنه في بيته، ولم تستطع مالانیا أن توقفه عن نيل بغيته، أو أن تثنيه عن عزمه، فقد كانت بخسة القيمة في نظره، وحتى الأمل الذي كانت ترجوه لم يتحقق.

وكبقية أهل البيت كان زوجها يظن أنه من المناسب بكل تأكيد أن يعهد بتربية فيديا إلى جلافيرا، فلم تحتمل زوجة إيفان المسكينة هذه الضربة القاصمة، فلم تطق الانفصال عن ابنها مرة ثانية أو تصبر عليه. ودون أن تنبس ببنت شفة، وبعد مرور أيام قلائل فارقت الحياة في هدوء. ولم تتمكن طول حياتها من مقاومة أي شيء، ولذا ففي مرضها أيضًا لم تقاوم، وعندما لم تعد قادرة على الكلام، وقد ألقى الموت ظلاله على وجهها، فإن ملامحها احتفظت بتعبيرها القديم عن حيرتها الصابرة وعذوبتها الهادئة المستسلمة وبخضوعها المؤلف ووداعتها المعتادة تطلعت إلى جلافيرا، وكما قبلت أنا بافلوفنا وهي على فراش موتها يد بطرس أندريه، هكذا طبعت هي قبلة على يد جلافيرا، ولا غرابة في ذلك، فقد عهدت إليها بالعناية بوحيدها. وبذا ختمت هذه المخلوقة الصالحة الهادئة حياتها على الأرض. كانت تشبه شجيرة اقتلعت من تربتها حيث نمت وفي اللحظة التالية أُلقي بها جانبًا، وقد اتجهت جذورها نحو الشمس وتُركت فذبلت واختفت نهائيًا، ولم تترك أثرًا بعدها، ولم يحزن أحد من أجلها، حقيقة أن خادماها أسفن كما أسف بطرس أندريه عليها، وافتقد الرجل العجوز وجهها الشفيق ومحضرها الصامت «اغفري لي - ووداعًا - يا بنيتي الهادئة» قال وهو يودعها للمرة الأخيرة، في الكنيسة وبكى إذ هو يلقي بقبضة من التراب في قبرها.

لم يعمر طويلًا بعدها، فقد عاش بعدها ما لا يزيد على خمس سنوات. ففي شتاء ١٨١٩ أسلم الروح في سلام في موسكو، حيث كان

قد ذهب إليها مع جلافيرا وحفيده، وأوصى بأن يُدفن بجوار أنا بافلوفنا وملاشا^(١).

كان إيفان بتروفتش يلهو في باريس في ذلك الوقت، فقد تقاعد من الخدمة سريعاً بعد عام ١٨١٥. وعندما بلغه نعي أبيه قرر العودة إلى روسيا. وكان يجب عليه أن يأخذ في الاعتبار تنظيم أملاكه وإدارتها، وزيادة على هذا كله، فإن فيديا كما جاء بخطاب جلافيرا، قد ختم عامه الثاني عشر، وأن الوقت قد حان للتفكير جدياً في تعليمه وتربيته.



(١) مصغر مالانبا.

الفصل العاشر

عاد إيفان بتروفتش وقد جنّ بكل ما هو إنجليزي. فشعره قصير وأقمصته ذوات ثنيات منشأة، وسترته طويلة الأطراف خضراء بلون حبات البازلاء، معها عدد من الياقات الصغيرة، وارتسم على وجهه تعبير حانق، شيء صارم، وفي الوقت نفسه مستهتر السلوك، حديثه من خلال أسنانه وضحكه متقطع لا معنى له، اختفت ابتسامته واعتاد الحديث في الشؤون السياسية أو السياسية الاقتصادية، وولع بشواء اللحم البقري المُضَهَّبِ ونبذ البورت، وكل شيء فيه، كان يفوح بأنفاس بريطانيا العظمى، وبدأ أنه مشبع بروحها. ولكن من العجيب أن نقول إنه بينما جن إيفان بتروفتش بكل ما هو إنجليزي، فإنه أحب وطنه وأخلص له، فكان في جميع الأحوال يُسمي نفسه وطنياً، على الرغم من أنه لم يعرف سوى القليل عن روسيا، ولم يحتفظ بعادة واحدة من العادات الروسية. وكان يعبر عن نفسه بطريقة مستهجنة إذا ما تكلم الروسية. فكانت لغته في حديثه العادي باهتة لا لون لها، سيئة التعبير محشوة بأخلاق من التعبيرات الفرنسية، ولكن ما يكاد يبدأ الحديث عن موضوع جاد

حتى يبدأ إيفان بتروفتش أن يطلق مثل هذه العبارات «ولكي نوضح الأغراض الشاذة للحماس»، أو «هذا يتعارض تعارضًا صارخًا وطبائع الظروف الضرورية»، وهلم جرا. لقد عاد ومعه مخطوط مشروع يرمي إلى الإسهام في تنظيم وتحسين الإمبراطورية، فقد كان ساخطًا سخطًا عظيمًا على كل ما كان يراه يجري هناك. وكان فقدان النظام هو ما أثار سخطه على وجه الخصوص.

وفي اجتماعه الأول بشقيقته أخبرها في كلماته الأولى التي قالها إنه يستهدف إدخال إصلاحات جوهرية في أملاكه، وأنه في المستقبل سيجري جميع شؤونه وفق نظام جديد، فلم تجب جلافيرا، ولكنها حرقت الأرم وفكرت «وماذا سيكون مصيري؟» وعلى كل حال، فعند ذهابها برفقة أخيها ومعها ابنه إلى الضيعة هداً بالها سريعاً، وحقيقة فإن المتسكعين والطفيليين قد شتتوا من هناك. وكان من بينهم عجوزان إحداهما كفيفة البصر، والأخرى مصابة بالشلل، وأحد المحاربين القدماء وهو ضابط محطم برتبة عميد بقي من أيام أوتشاكوف^(١)، والذي كان يطعمه بسبب نهمه الشديد وشراسته، الخبز الأسود والعدس فقط، كما صدر أمر بعدم استقبال أحد الزوار القدامى الذين حل محلهم جار بعيد، وهو بارون ذهبي الشعر أشقر اللون مصدور تربي تربية عالية، ثقل الظل والفهم بدرجة تسترعي الانتباه، وجاء بأثاث جديد من موسكو وزود الدار بالمبصقات والأجراس وحاملات أحواض الغسيل، وقدم طعام الإفطار بطريقة حديثة وحلت الأنبة الأجنبية محل

(١) مدينة استولى عليها الروس من الأتراك عام ١٧٨٨.

المشروبات الكحولية والعنبرية (ليكر) وارتدى الخدم زيًا جديدًا خاصًا بالأسرة، وأضيف إلى درع الأسرة الشعار (بفضل الشجاعة).

وفي الواقع ونفس الأمر، فإن سلطة جلافيرا لم تتناقص وظلت الموارد والمصروفات خاضعة لتسوية حسابها، فإن الغلام الذي أحضره من الخارج وهو من مواطني الألزاس، حاول منافستها في ميدانها، ومُني بالفشل وخسر مركزه، رغم الحماية التي كان يضيفها سيده عليه عادة. أما فيما يتعلق بتدبير شؤون البيت، وكذا فيما يتعلق بإدارة الضيعة (فإن جلافيرا كانت تضع أصبعها أيضًا في هذه الأمور) على الرغم من الغرض الذي كان يصرح به إيفان غالبًا «بعث حياة جديدة من الفوضى»، فإن كل شيء سار على سابق عهده، فقد بقيت الأبروك^(١) كما هي على وضعها القديم، وزادت البارشينا^(٢) ثقلًا، ومنع الفلاحون من التوجه مباشرة إلى إيفان بترفتش، فإن الوطني كان يحتقر مواطنيه أشد الاحتقار. ولم ينفذ نظام إيفان بترفتش على أوسع مدى سوى مع فيديا، فقد خضعت تربية الولد حقًا (لإصلاح جوهرى) فقد قاد والده زمام الأمور بنفسه.



(١) أبروك: ما يؤديه الفلاح من المال إلى سيده.

(٢) بارشينا: ما يؤديه الفلاح من العمل إلى سيده.

الفصل الحادي عشر

وإلى أن عاد إيفان بتروفتش من الخارج ظل فيديا، كما سبق أن قلنا، في يدي جلافيرا بتروفتنا، فلم يكن قد بلغ الثامنة من عمره عندما ماتت أمه، لم يكن يسمح له برؤيتها كل يوم، ومع هذا فقد ارتبط بها ارتباطاً عاطفياً قوياً، وإن ذكرياته عنها - وخصوصاً عن وجهها الرقيق الشاحب وعينيها الحزيتين وتدليلها الحي - قد تركت أثراً لا يزول ولا ينمحي في قلبه، وهو لم يدرك سوى إدراكاً غامضاً مركزها في البيت، ولكنه أحس بوجود حاجز بينه وبينها لم تجرؤ ولم تستطع أن تحطمه. وكان يتجنب والده الذي لم يهدده أبداً، أما جده فكان يسوي له شعره ويعطيه يده ليقبلها، ولكنه كان يدعوه بالمتوحش ويظنه أبلهاً. وبعد موت مالانیا وضعته عمته في رعايتها بانتظام، وكان فيديا يخشاها، يخشى عينيها البراقيتين الحادثتين، وصوتها الصارم، ولم يجسر على أن يشير أقل صخب في أثناء وجودها، فإذا ما حدث عفواً أن تحرك في مقعده، فسرعان ما تصبح بصوتها الذي يشبه فحيح الأفعى «إلى أين أنت ذاهب؟ اجلس هادئاً».

وفي أيام الآحاد وبعد القداس كان يُسمح له باللعب، أعني أنه كان يُعطى كتاباً سميّاً، من عمل مؤلف يُدعى ماكسيموفتش آمبودك، يحمل عنوان «رموز وشعارات» وكان يوجد في هذا الكتاب نحو ألف صورة معظمها صور محيرة مع تفسيرات تساويها حيرة كتبت بخمس لغات مختلفة. وكان كيوييد وقد رُسم عارياً بدينًا، يلعب دورًا عظيمًا في هذه الصور، وقد كتب على إحداها وهي باسم «الزعفران وقوس السماء» التفسير «إن تأثير هذه لعظيم» ويقابلها صورة أخرى تمثل «طائر اللقلق» يحلق في الفضاء، وفي منقاره زهرة البنفسج، وقد كتب عليها هذا الشعر «الكل معروفون لديك»، و«صورة كيوييد» و«دب يلقي شبله» تحمل عبارة «رويدًا رويدًا» وكان من عادة فيديا أن ينصب بكليته على هذه الصور. وكان على معرفة تامة بها جميعًا حتى في أدق تفاصيلها، وكان بعضها يجعله يفكر تفكيرًا عميقًا ويشحذ خياله، أما عن التسلّيات الأخرى، فلم يعرف عنها شيئًا.

وعندما حان الوقت لتعليمه اللغات والموسيقى، استأجرت جلافيرا بتروفنا خادمًا عجوزًا بأجر زهيد، وهي سويدية ذات عينين نظران جانبًا مثل عيني الأرنب البري، وكانت تتكلم الفرنسية والألمانية الركيكة نوعًا ما، وتعزف على البيانو بين بين، وتخلل الخيار على أكمل وأتم ما يكون. وقد أمضى فيديا في صحبة مربيته وعمته وخادم عجوز تدعى فاسيليفنا أربعة أعوام كاملة. وكان في بعض الأحيان ينتحي ركنًا مع شعاراته، وهناك يجلس ويطل الجلوس ما شاء له الوقت. وكان عبير زهر الجيرانيوم (العتر) يوضع في الحجرة السفلى حيث كانت

ذبالة شمعة ترسل ضوءاً خافتاً، والجندب يصصر صريراً رتيباً كما لو كان قد ران عليه الملل، والساعة الصغيرة على الحائط تدق دقات متلاحقة، وكأن فأراً يحك أظافره ويقرض بأسنانه خلصة خلف قماش السجف المزركش، والخادماث الثلاث العجائز يجلسن كالأقذار الثلاثة وهن يحيكن الصوف في صمت وسرعة، وكانت ظلال أيديهن تختفي أنا، وترتعش في الغسق خفية أنا آخر. وكانت أفكار غريبة لا تقل خفاء تولد في عقل الطفل.

لم يكن بين القوم أحد يدعو فيديا طفلاً لطيفاً، فقد كان أميل إلى الشحوب، وإن كان بديناً رديء البنيان ثقيلاً «فلاحاً روسياً أصيلاً» إذا ما استعملنا التعبير الذي كانت تستعمله جلافيرا بتروفتنا. وكان من الممكن أن يزول الشحوب عن وجهه إذا ما سمحوا له بالخروج في الهواء الطلق النقي أكثر مما فعلوا، وعى دروسه جيداً جداً، على الرغم من أنه كان كسولاً معظم وقته، لم يكن البكاء من شيمه، ولكن كان يحدث أحياناً أن يظهر عناداً عنيفاً، وفي هذه الأوقات لم يستطع أحد أن يفعل شيئاً من أجله، فإن فيديا لم يحب شخصاً واحداً من الكثيرين الذين يحيطون به، واحسرتاه على ذلك القلب الذي لم يحب في صباه.

هكذا وجده إيفان بتروفتش عند عودته، ودون أن يضيع وقتاً بدأ فوراً تطبيق نظامه عليه.

قال لجلافيرا بتروفتش: «إنني أريد قبل كل شيء وفوق كل اعتبار أن أجعل منه رجلاً *un homme*، وليس رجلاً فحسب، بل رجلاً من إسبرطة».. وبدأ تنفيذ هذه الخطة بأن ألبس ولده الملابس الجبلية.

وكان على الصبي ذي الاثني عشر ربيعاً أن يتجول عاري الساقين، وقد زين قبعته بريشة ديك واستبدل أبوه بالمربية السويدية مؤدباً شاباً من سويسرا كان على دراية تامة بفنون الألعاب الرياضية، ومنعت الموسيقى منعاً باتاً، فهي عمل لا يليق بالرجل. أما العلم الطبيعي والقانون الدولي والرياضيات والتجارة أيضاً التي قد اختيرت حسب نصائح وتوجيهات جان جاك روسو، وفن الدروع وأشكالها ونقوشها وعلاماتها التي أدخلت ضمن منهاج الدراسة للمحافظة على تقاليد الفروسية، كانت هذه هي المواد التي كان على رجل المستقبل أن يوليها كل عنايته. كان يجب عليه أن يستيقظ في الرابعة صباحاً ويأخذ حماماً بارداً فوراً، وبعد كان عليه أن يجري حول عمود مرتفع في نهاية حبل غليظ. وكان يتناول وجبة واحدة في اليوم، من طبق واحد، ويركب الخيل ويصطاد بالقوس والنشاب. وفي كل فرصة مناسبة كان يتدرب، وهو يحاكي أباه، في اكتساب قوة الإرادة، واعتاد في كل مساء، أن يكتب في دفتر أعد لذلك الغرض، مجملًا لما قام به في يومه من الأعمال، وماذا كانت آراؤه في الموضوع. أما إيفان بتروفتش، فمن جانبه، كان يكتب له تعليمات بالفرنسية كان يصفه فيها بولدي *Mon Fils* ويخاطبه بأنتم *Vous* أما فيديا، فقد تعود أن يقول «أنتم» *Thou* بالروسية لأبيه، ولكنه لم يكن ليجرؤ على الجلوس في محضره.

وكان من أثر هذا النظام أن ارتبك ذهن الولد واختلطت عليه الآراء والأفكار وشل عقله، ولكن فيما يخص صحته الجسدية فقد أفاده النظام الجديد. فسرعان ما عوفي من مرض الحمى التي أصابته أولاً دون إبطاء،

وصار فتى لطيفاً و«أصبح موضع إعزاز أبيه واعتزازه، وأطلق عليه بلغته العجيبة «فتى الطبيعة، وصنع يدي». وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره، اعتبر إيفان بتروفتش أن من واجبه أن يوحى إليه في الوقت الملائم باحتقار الجنس الآخر والإغضاء من شأنه؛ ولذا فإن الإسبرطي الصغير وقد بدأت الشعيرات الأولى الناعمة تظهر فوق شفثيه كان يشعر بالحياء، ولكن كان جسده يمتلئ بدم الشباب والقوة والفتوة، وقد تدرب ليظهر دائماً بمظهر الذي لا يُبالي، ويبدو هادئاً رزيناً، وعنيفاً جافياً.

وفي هذه الأثناء كان الفلك يدور والأيام تمر، وأمضى إيفان بتروفتش الجزء الأكبر من السنة في لافريكي، كان ذلك اسم ضيعته الرئيسة التي آلت إليه بالوراثة، ولكن في الشتاء كان معتاداً أن يذهب بمفرده إلى موسكو، حيث كان يقيم في الفندق ويواظب في التردد على ناديه، حيث أظهر بلاغته في حرية وانطلاق وشرح مشروعاته في المجتمع وأظهر، أكثر من أي وقت آخر، الهوس بحب الإنجليز وعاداتهم وأنظمتهم، رجل ضجر وسياسة. ولكن جاء عام ١٨٢٥ وفي أعقابه متاعب كثيرة^(١) وتعرض أصدقاء إيفان بتروفتش المقربون ومعارفه لكثير من المحن والبلايا الفادحة، فأسرع بالذهاب إلى أقصى الريف النائي، حيث أغلق من دونه الأبواب وقبع رهين محبسه، ومر عام آخر فانهار إيفان بتروفتش فجأة وتضعضع واستسلم استسلاماً مطلقاً. ولما اضمحلت صحته بدأ وهو الحر التفكير يذهب إلى الكنيسة، ويأمر

(١) نجمت هذه المتاعب عن المؤامرة التي قام بها مدبروها في ديسمبر والذين يطلق عليهم (متآمرو ديسمبر)، ومحاولتهم القيام بثورة، وإحداث انقلاب بمناسبة موت إسكندر الأول وارتقاء نقولا العرش.

بإقامة الصلوات من أجل روحه^(١). وبدأ الأوروبي يغتسل بماء ساخن يتصاعد بخاره في الحمامات الروسية، ويتناول الغداء في الثانية، ويأوي إلى فراشه في التاسعة، حيث يتحدث إليه وكيل الخرج العجوز بالليل والقال إلى أن يأخذ الكرى بمعاقد أجفانه، وأحرق رجل السياسة كل مشروعاته وكل مراسلاته. وكان يرتعش أمام الحاكم ويعامل مفتش الشرطة القروي بأدب مضطرب. الرجل ذو الإرادة الحديدية نشج وبكى شاكياً عندما كانت تضايقه بثرة أو إذا برد الحساء قبل أن يقدم إليه. وعادت جلافيرا السيد المطلق في البيت، وبدأ المفتشون والملاحظون^(٢) والفلاحون البسطاء، ثمانية يصعدون السلم الخلفي إلى الغرف التي تشغلها «الساحرة العجوز» كما كان يسميها خدم البيت.

وأحدثت التغيرات التي طرأت على إيفان بتروفتش أثراً قوياً على عقل ابنه، كان قد دخل عامه التاسع عشر وبدأ يفكر لنفسه تفكيراً مستقلاً وينفض عنه ثقل اليد التي كانت تنقض ظهره. بل أيضاً قبل ذلك كان قد لاحظ الفرق الشاسع بين أفعال أبيه وأقواله، بين النظريات الواسعة المتحررة التي ينادي بها والاستبدادية القاسية المتعصبة التي يمارسها، ولكنه لم يكن يتوقع مثل هذا التحول المفاجئ، ففي شيخوخته ظهر الأناني على طبيعته الكاملة. كان لافريتسكي الشاب يعد نفسه للذهاب إلى موسكو ليعيد نفسه للجامعة، عندما هوت على رأس إيفان بتروفتش

(١) Molebni الصلوات التي يذكر في أثناء اسم من دفع أجر إقامتها ليرحمه الله.

(٢) Pribashehibi and Burmistrui طبقتان من المراقبين، الأولى تختص بالشؤون الاقتصادية فقط، بينما الثانية تختص بالشؤون الإدارية أيضاً.

كارثة لم يتوقعها، ففي يوم واحد كف بصر الرجل المعجوز، وفقد الرجاء في الإبصار ثانية.

ولما كان لا يثق في مهارة رجال الطب الروسيين، فقد بذل قصاراه في الحصول على إذن بالسفر إلى الخارج، ولكن باءت مساعيه بالفشل، فقد رُفض طلبه. وحينئذ صحب ابنه وطلق يجول في ربوع روسيا ثلاثة أعوام برمتها وهو يجرب طبيباً بعد آخر، ويضرب في الأرض راحلاً من مكان إلى مكان، وبضجره الملول دفع أطباءه وابنه وخدمه إلى شفا اليأس والقنوط. ولما أصبح حطاماً عاد إلى لا فريكي باكيًا حاد المزاج كطفل، وأخذت أيام الحزن تتلاحق، وفي أثنائها كان كل من حوله يعاني ويقاسي، إذ كان لا يهدأ إلا في أوقات تناول الطعام. ولم يسرف في الطعام وما كان فيه شره أبداً. وفي الأوقات الأخرى لم ينعم بالسلام، ولم يترك غيره ينعم به. كان يصلي ويسخط على القدر ويعيب على نفسه وعلى نظامه والسياسة، وعلى كل ما اعتاد أن يفخر ويعتز به، وعلى كل ما كان قد رسمه مثلاً أعلى لولده. لم يكن ليتردد في إعلان كفره بكل شيء، ثم يعكف على الصلاة ثانية. وعاد لا يحتمل الوحدة لحظة واحدة، وأرغم خدمه على البقاء بجانب فراشه أثناء الليل وأطراف النهار يزجون وقته بالقصص، وتعود أن يقاطعهم بصيحاته: «أنتم تقولون كذباً» أو «إنه محض هراء».

وأسهمت جلافيरा بأكبر قسط في المتاعب التي كان يسببها، إذ كان قاصراً كل القصور عن أن يستغني عنها. وبقيت حتى النهاية ترضي نزوات الرجل العليل، ولو أنها في بعض الأحيان لم تستطع أن تلبى

نداءه فورًا لئلا تخونها نعمة صوتها، فتفصح عن الغضب الذي يكاد يخنقها، وبذلك طال عمره واستمرت روحه تحسّر في صدره عامين آخرين أو ما يزيد، إلى أن كانت باكورة شهر مايو عندما فارق الحياة، وكان قد حُمِل إلى الشرفة ووُضع في الشمس.

لثغ لسانه المتلعثم قائلًا: «جلاشا، جلاشا الحساء، الحساء، أيتها العجوز البلهاء» وحينئذ ودون أن يكمل الكلمة الأخيرة صمت إلى الأبد. أما جلاشيرا التي كانت قد جذبت قدح الحساء لتوها من يد سيد البيت الكبير، فقد توقفت فجأة ونظرت إلى وجه أخيها ورسمت إشارة الصليب ببطء شديد وغادرت المكان في صمت، أما ابنه الذي تصادف أن كان موجودًا في أثناء ما جرى، فلم يفه بكلمة واحدة، ولكنه انحنى على قضبان الشرفة وظل يحملق وقتًا طويلاً في الحديقة، وقد لفتها الخضرة وتضوعت بأريجها وهي تتلألأ في شمس الربيع الذهبية. كان في الثالثة والعشرين من العمر، فيا لها من سنوات حزن مقيم ولّت سراعًا لا تحمل طابعًا يميزها أو علامة تبينها، والآن لقد تفتحت أبواب الحياة أمام عينيه.



الفصل الثاني عشر

وبعد موت أبيه وبعد أن عهد إلى جلافيرا بتروفا التي لا تتغير أبدًا، بإدارة المنزل، ومراقبة وكلائه وعملائه، شخص لافريتسكي الشاب إلى موسكو حيث كان يجتذبه حنين غامض خفي وإن كان قويًا عارمًا. عرف النقائص في تربيته وعقد العزم على أن يكمل النقص ما وسعته قدرته، فقد قرأ كثيرًا في السنوات الخمس الأخيرة، وشهد الكثير بعيني رأسه، ومر بخاطره كثير من الآراء والأفكار. وكان كثير من الأساتذة يحسدونه على بعض ما أُوتي من علم ومعرفة، ومع ذلك ففي الوقت نفسه كان يجهل جهلاً تامًا كثيرًا مما وعته رؤوس تلاميذ المدارس جميعًا.

لم يشعر لافريتسكي بالارتياح بين مواطنيه، وكانت تخامره بوادر خفية بأنه شخص شاذ، فقد خدع المتهوس بحب الإنجليز وعاداتهم وأنظمتهم ابنه خدعة قاسية، فقد أثمرت تربيته المتقلبة الميول والأطوار والتي لا تستقر على قرار ثمرتها، فقد ظل لسنين كثيرة يطيع أباه طاعة تامة، ولما تعلم في النهاية أن يقدره حق قدره، كانت آثار تعاليم أبيه

عليه قد سبقت بالظهور. وتأصلت بعض العادات فيه، فلم يعرف كيف يسلك إزاء مواطنيه أو يتصرف معهم، وفي سن الثالثة والعشرين وقلبه الخجول يتحرق شوقاً إلى الحب.

لم تكن له الجرأة على النظر إلى وجه امرأة، وبذهنه الصافي المنطقي والكسول نوعاً ما، وبعناده وميله إلى السكون والتأمل، كان ينبغي له أن يُلقى في سن مبكرة في دوامة الحياة، ولكن بدلاً من ذلك، فقد فُرِضت عليه العزلة عن قصد وعمد. والآن وقد تحطمت الدائرة السحرية، فقد ظل واقفاً مكانه لا يريم ولا يتحرك مشلول العقل منطوياً على نفسه.

وكان سخيلاً بعض السخف أن يرتدي الطالب في مثل سنه الزي الموحد^(١)، ولكنه لم يكن يخشى الهزء والسخرية.

وقد أفادته تربيته الإسبرطية إلى حد بعيد في جميع الأحوال، إذ قد نمت فيه احتقاراً لما يدور على الألسن في الدنيا؛ ولذا ارتدى زي الطلاب الموحد دون أن يرتبك، وانخرط في سلك الطلاب بكلية العلوم الطبيعية والرياضية. وقد أحدثت صفاته أثراً لا مثيل له على رفاقه، فقد كان قوي الجسم متورد الوجه، يقل شعر لحيته، ولاذ بالصمت على عادته - ولم يتسرب الشك إلى قلوبهم أبداً بأن هذا المظهر الخشن لهذا الرجل الذي كان يذهب إلى قاعات المحاضرات بانتظام في زحافة رحبة ريفية يجرها جوادان - يخفي تحته شيئاً يكاد يكون صبيانياً، فقد ظنوا أنه متحذلق غريب الأطوار، فلم يتقربوا إليه، إذ كانوا في غنى كبير عنه كما كان هو من جانبه يعزف عن الاندماج فيهم.

(١) اعتاد الطلاب في الجامعات الروسية أن يرتدوا الزي الموحد، ولكنهم لم يعدوا يفعلون ذلك.

وفي غضون العامين الأولين اللذين أمضاهما في الجامعة لم يعقد أواصر الصداقة سوى بطالب واحد، كان يعطيه دروسًا في اللغة اللاتينية. وكان هذا الطالب واسمه ميخائيليفتش متحمسًا يقرض الشعر، وتوثقت صلاته بلافريتسكي، وتوطد إخلاصه له، فصارت هذه المصادفة المحضة سبب تغيير خطير في حظه ومستقبله.

وذاث مساء عندما كان لافريتسكي جالسًا في المسرح -لم يتخلف عن التمثيل مرة واحدة؛ لأن مونشالوف كان قد بلغ قمة المجد في ذلك الوقت- أبصر فتاة في مقصورة في الطابق الأول.

لم ينبض قلبه بمثل هذه السرعة من قبل، مع أن في ذلك الوقت لم يحدث أن مرت امرأة أمام عينيه الجهمتين دون أن تختلجًا. وكانت الفتاة ساكنة هادئة، وهي تتكى على الحاجز المغطى بالقטיפ، وكان ماء الحياة يترقق في محياها ويشرق على قسماث وجهها الجميل، وإحساس في شمع من عينها البهيتين اللتين كانتا تتطلعان بنظرة ملؤها الحنان والاهتمام من تحت حاجبين مكحولين برقّة، كما شع هذا الإحساس الفني في ابتسامات شفيتها المعبرتين وفي حركات رأسها وذراعيها وجيدها.

أما ثيابها فكانت رائعة الحسن، وجلست بجانبها سيدة شاحبة علتها التجاعيد في الخامسة والأربعين من العمر، ترتدي ثوبًا قصيرًا وتضع قبعة سوداء على رأسها.

وتحار ابتسامة لا معنى لها على وجهها العاقل من التعبير والتأثير، والتي كانت تحاول جاهدة أن تضيف عليه الاهتمام وتجذب إليه الانتباه.

وفي خلف المقصورة كان يجلس رجل تقدمت به السنون يرتدي سترة فضفاضة ورباط رقبة مرتفعاً، وكنت تلمح في عينيه الصغيرتين الغرور والغباء يخفف منهما شك ذليل، وقد صبغ شواربه وفوديه، وكانت جبهته عظيمة لا تحمل معنى أو تعبيراً، وقد اكتظت وجناته بالشحم واللحم، وكانت هيئته في مجموعها تدل على أنه قائد متقاعد.

ظل لافريتسكي مثبتاً عينيه على الفتاة التي تركت في نفسه مثل ذلك الأثر، وفجأة انفتح باب المقصورة ودخل ميخائيليفتش، وهو الرجل الذي كاد أن يكون الشخص الوحيد الذي يعرفه في موسكو، فبدأ ظهوره بصحبة الفتاة نفسها التي استرعت كل انتباه لافريتسكي غريباً وخطيراً. وعندما عاود النظر إلى المقصورة، لاحظ أن جميع من فيها يعاملون ميخائيليفتش معاملة الصديق القديم، فقد لافريتسكي كل اهتمامه بما يجري على خشبة المسرح، وحتى موتشالوف، الذي بلغ في ذلك المساء «قمة مجده» لم يؤثر فيه تأثيره المألوف، وفي أثناء إلقائه فقرة مثيرة جداً للشجون، نظر لافريتسكي إلى مناط إعجابه نظرة تكاد تكون على رغمه وهي تنحني إلى الأمام ووميض أحمر يخضب وجنتيها.

كانت عيناها شاخصتين إلى المسرح، ولكن تدريجاً وتأثير نظراته الثابتة تحولتا واستقرتا عليه. وقد ظلت هاتان العينان تلاحقانه طول الليل، وفي آخر الأمر انهار السد الذي أقيم بعناية واقتحمته الأمواج فغشيت صاحبنا الرعشة وألهبته النيران الواحدة تلو الأخرى، فذهب في اليوم التالي نفسه ليقابل ميخائيليفتش، ومنه عرف أن اسم الفتاة

التي استحوذت على إعجابه وسلبته ليه، كان فارفارا بافلوفنا كوروبين، وأن المسنين اللذين كانا معها في المقصورة هما أبوها وأُمها، وأن ميخائيليفتش قد تعرف بهم في السنة الماضية أثناء قيامه بعمل المؤدب في أسرة الكونت «ن»، بالقرب من موسكو، وتحدث المتحمس عن فارفارا بافلوفنا بأعظم عبارات المديح والإطراء «هذه الفتاة يا أخي» صاح بصوته المتميز المتلاحق النبرات المنغم «لهي فلتة بين لداتها، حباها الله النبوغ، وهي فنانة بالمعنى الحقيقي للكلمة، وبالإضافة إلى ذلك كله، فهي مخلوق ظريف يحب» ولما تبين ميخائيليفتش من سؤال لافريتسكي الأثر العظيم الذي تركته فارفارا بافلوفنا في نفسه، اقترح عليه من تلقائه أن يعرفه بها، وأضاف أنه على أحسن صلات الود بهم، وأن القائد كان دائماً متواضعاً، وكانت الأم سقيمة العقل ضعيفة الذهن إلى أبعد حد.

احمر لافريتسكي خجلاً، وتمتم بكلمات غامضة مبهمّة، ثم انطلق ماضيّاً في طريقه لا يلوي على شيء. وظل يكافح حياؤه وتهيبه خمسة أيام طوال، وفي اليوم السادس ارتدى الإسبرطي الشاب بدلة جديدة تماماً، من الزي الموحد، ووضع نفسه تحت تصرف ميخائيليفتش، الذي بوصفه صديقاً للأسرة اكتفى بترجيل شعره في اتجاه مستقيم، وانطلق الرفيقان معاً لزيارة آل كوروبين.



الفصل الثالث عشر

كان والد فارفارا بافلوفنا، بافل بترفتش كورويين، لواء متقاعدًا، قضى في الخدمة العسكرية في سانت بطرسبرج طوال سني حياته تقريبًا. وفي باكورة شبابه كان يستمتع بالشهرة بأنه راقص قدير ومدرّب ماهر، ولكنه لما كان فقيرًا جدًّا، فقد اضطر أن يعمل ياورًا (سكرتير عسكري خاص) مع لوائين أو ثلاثة نالوا حظًّا ضئيلًا من الشهرة، الواحد بعد الآخر، وزوجه أحدهما ابنته ومعها بائنة بلغت خمسة وعشرين ألف روبل.

وبعد أن ملك ناصية علم المراسم والاحتفالات في أدق تفصيلاتها، استمر في توسيع نطاق عمله حتى بلغ النهاية، فبعد خدمة عشرين عامًا وصل إلى رتبة اللواء على رأس فرقة عسكرية، وحتى هذه المرحلة كان يمكنه التقاعد ويدعم حياته في هدوء. وفي الحقيقة فإنه ركن إلى هذا الوضع، ولكنه صرف شؤونَه بطريقة تخلو من الحنكة والحصافة إلى حد ما. ويبدو أنه كشف طريقًا جديدًا في النظر إلى الأموال العامة، وقد بدت

هذه الطريقة أنها ممتازة، ولكن لما كانت تنقصه الدربة، فإن سلوكه في شؤون المال لم يكن سليماً صحيحاً^(١)؛ ولذا فقد بثت العيون من حوله تراقبه وتجمع المعلومات ضده، وتلا ذلك ما هو أكثر من مكروه، فقد وقعت فضيحة انتهت به إلى الخراب والبنار.

وعلى أي حال من الأحوال، فإن اللواء نجح في الإفلات من مأزقه والخلاص من ورطته، ولكن تقدمه في عمله وقف عند هذا الحد، فقد أوصي بالتقاعد من الجيش العامل، وعاش ما يقرب من العامين في سانت بطرسبرج آملاً أن يهبط عليه من السماء مركز مريح أنيق، ولكن مثل هذا المركز لم يكن من نصيبه.

أتمت ابنته تعليمها في المعهد، وازدادت نفقاته يوماً بعد يوم؛ ولذا فقد حزم أمره وهو يطوي جوانحه على حق مكتوم، على الرحيل إلى موسكو اقتصاداً في النفقات، وهناك وفي شارع أولد ستيت استريت استأجر منزلاً يعلوه درع يحمل شعار أسرة نبيلة يبلغ ارتفاعه سبعة أقدام، وبدأ يعيش عيشة كبار الضباط المتقاعدين في موسكو على دخل يبلغ ألفين وسبعمائة روبل في العام^(٢).

وموسكو بلد مضياف على استعداد للترحيب بكل وافد إليها، وعلى الخصوص إذا كان ضابطاً عظيماً متقاعدًا، وبدأ بافل بتروفتش يرتاد الصالونات، حيث تلتقي صفوة المجتمع المختارة في موسكو،

(١) وبعبارة أخرى، أنه اختلس المال، ولكنه تغافل عن تقديم الرشوة.

(٢) ما يقرب ما أربعمئة جنيه، وكان الروبل عملة فضية، والفرق بين الروبل الفضة والروبل الورق لم يعد له وجود الآن.

وكان مظهره البدانة، ولكنه لم يكن يخلو من الصفات العسكرية. وكانت مؤخرة رأسه الصلعاء ما عدا بعض خصلات قليلة من الشعر المصبوغ والوشاح الموشى من نيشان القديسة آن الذي كان يرتديه فوق لفافة رقبة بلون جناح الغداف (الغراب الأسود) أصبحت هذه كلها معروفة إلى جميع الشبان الذين شحبت وجوههم وذبلت أعوادهم، والذين اعتادوا أن يحوموا عابسين مهمومين حول موائد القمار، بينما حلبة الرقص تعج بفرسانها.

وأدرك بافل بتروفتش كيف يحتفظ بكيانه في المجتمع، كان يتحدث قليلاً، ولكن دائماً وكشأنه في ماضيه، كان يتحدث من خلال أنفه، ما عدا، طبعاً، عندما كان يتحدث إلى من هم أرفع منه مقاماً. كان يقامر بحكمة واحتراس، وكان يتوخى الاعتدال عندما يتناول طعامه في بيته. ولكن إذا دُعي إلى مأدبة كان يبدو أنه يتغذى لسته أشخاص. أما زوجه فلا يمكن أن يقال شيء عنها أكثر من اسمها كاليوب كارلوفنا، وأن دمعة كانت دائماً تترقرق في عينها اليسرى والتي بقوتها كانت كارلوفنا التي كانت على وجه التحقيق تنحدر من أصل ألماني تعتبر نفسها امرأة مشبوبة العاطفة، وكانت تبدو دائماً أنها تخشى حدوث شيء ما، وكما لو كانت لا تملك ما يمسك رملها، وكانت ترتدي دائماً ثوباً ضيقاً من القطيفة، وتغطي رأسها بقبعة، وتزين ذراعها بسوار من معدن رقيق.

أما فارفارا بافلوفنا، وهي ابنة اللواء الوحيدة، فلما تكن قد جاوزت ربيعها السابع عشر بعد عندما تركت المعهد الذي تلقت علومها فيه.

وفي أثناء مكثها بين جدرانها كانت تعتبر، إن لم تكن أكثر الطالبات
جمالاً، ففي جميع الأحوال أكثرهن ذكاء وأمهر من عزفت الموسيقى
فيه. وقبل أن تبرح معهدا حصلت على سيفر^(١) ولم تكن قد تجاوزت
التاسعة عشرة بعد عندما رآها لافريتسكي لأول مرة.



(١) هو الحرف الأول من اسم الإمبراطورة تتحلى به أحسن الطالبات في المعاهد الإمبراطورية.

الفصل الرابع عشر

اصطكت ركبتا الإسبرطي عندما قاده ميخائيليفتش إلى داخل حجرة الاستقبال المتواضعة الأثاث في منزل كوروبين، وقدمه إلى الموجودين بها، ولكنه تغلب على حيائه الذي سرعان ما اختفى، ولقد زاد الأنس واللفظ والوداد المألوف في جميع الروسيين ما عليه الجنرال كوروبين من رقة وشفقة اختص بها جميع من أثير الغبار قليلاً حول ما لهم من طيب الذكر وحسن السمعة. أما زوجة الجنرال فسرعان ما صارت كما لو كانت مهملة من الجميع، ولكن فارفارا بافلوفنا كانت على جمال سماوي، يجلله الهدوء والوداعة، ويبعث الارتياح والرضى في نفس كل من في محضرها، فيطامن من نفسه بعد لقاءها بلحظات قصيرة، وفي الوقت نفسه، فإن من تكوينها الرائع ومن عينيها الباسمتين ومن كتفيها المنحدرتين في غير ما عيب، ومن بياض يديها المشرب بالحمرة، ومن قوامها المتأود وخطواتها الميساء التي تبدو في نفس الوقت كخطوات حائرة مترددة، ومن جرس صوتها الهادئ الرحيم العذب.. حيث كان يطوف كنغمات العطر الشذي، سحرًا رقيقًا لا يدرك كنهه، شيء يبدو

لفوره نعومة ورقة وتواضعًا، شيء ما من العسير التعبير عنه بالألفاظ والكلمات، يحرك الخيال ويحير العقل، ولكنه يحيره بأحاسيس لم تكن من الخجل في شيء.

بدأ لافريتسكي الكلام بالحديث عن المسرح وحفل الليلة السابقة، وبدأت لتوها الحديث عن موتشالوف من تلقاء نفسها. ولم تقتصر على مجرد التهنيدات تصعدها أو العواطف تبديها، ولكنها عدت مواضع النقد في تمثيله، وكان نقدها يتصف بالحكم الصائب السليم، كما يفصح عما للمرأة من نظر ثاقب ورأي سديد. وعرض ميخائيليفتش للموسيقى، فجلست إلى «البيان» دون تكلف وعزفت بإتقان عدة نغمات من رقصة المزركا لشوبان التي كانت قد ظهرت لتوها في عالم الموسيقى، ثم حان وقت الغداء، وهمّ لافريتسكي بالانصراف، ولكن استبقاه مضيفوه، وقدم له الجنرال على المائدة النيذ الممتاز الذي أحضره الساقى على عجل من محلات دبيرييه.

لم يعد لافريتسكي إلى سكنه إلا في ساعة متأخرة من الليل، وحينئذ جلس طويلاً دون أن يخلع ملابسه، وهو يغطي عينيه بيديه، وقد استسلم لخدار الافتتان، ووضح له أنه لما يفهم بعد (حتى الآن) ما يجعل الحياة تستحق أن نحياها، وفي لحظة اختفت القرارات التي كان قد اتخذها، والأغراض التي يستهدفها وآراء الأمس التي صارت عديمة القيمة اليوم، وذابت روحه كلها بين جوانحه، واستحالت إلى شعور واحد، ورغبة واحدة، الرغبة في السعادة، والامتلاك والحب، وعذوبة حب المرأة.

ومن ذلك اليوم بدأ يتردد على آل كوروبين، ونادراً ما تخلف، وبعد مرور ستة شهور تقدم لخطبة فارفارا بافلوفنا، ولقي طلبه القبول، وقبل ذلك بزمان طويل، طويل جداً، إن لم يكن في الليلة السابقة لزيارة لافريتسكي الأولى، سأل الجنرال ميخائيليفتش عن عدد ما يملكه صديقه من رقيق الأرض^(١)، وحتى فارفارا بافلوفنا التي احتفظت بهدوئها المألوف، واتزانها طوال الفترة التي كان يطارحها فيها المعجب الشاب الغرام، وحتى في اللحظة نفسها لإعلانه رغبته، عرفت فارفارا بافلوفنا تمام المعرفة أن عريسها ثري. وفكرت كاليوب لنفسها قائلة: «إن ابنتي سيكون لها زوج غني»، واشترت لنفسها قبعة جديدة.



(١) المعنى الحرفي لها «أرواح»، ومعناها هنا الفلاحون الذكور.

الفصل الخامس عشر

وهكذا قُبِلَ عرضه، ولكن بشروط معينة، ففي المكان الأول يجب أن يترك لافريتسكي الجامعة حالاً، فمن ذا التي تفكر في الاقتران بطالب؟ ويا لها من فكرة خارقة للعادة، مالك أرض، ورجل غني في السادسة والعشرين من العمر يتلقى دروساً كولد في المدرسة، وفي المكان الثاني، فإن فارفارا بافلوفنا سوف تأخذ على كاهلها عبء طلب وشراء جهاز عرسها. وحتى الهدايا التي كان سيقدمها العريس اختارتها بنفسها، فقد حباها الله ذوقاً سليماً وإدراكاً وافراً وحباً عظيماً للراحة والنعيم، ومهارة ليست بالقليلة في توفير أسباب الراحة والنعيم، وقد استرعى هذا الذكاء نظر لافريتسكي، منذ البدء، بعد الزفاف مباشرة، عندما سافر هو وعروسه إلى لافريكي، وكانا يستقلان في سفرهما عربية مريحة اختارتها بنفسها.. يا له من اهتمام هذا الذي كانت تتأمل به فارفارا بافلوفنا كل ما حولهما، وأي بصيرة تلك التي أظهرتها في توفيرها هذه الأشياء، وكم من وسائل السفر الجميلة ظهرت في الأركان

المناسبة العديدة، وكم من صناديق الزينة الحلوة، وكم من آلات إعداد القهوة الممتازة، وما أجمل وأرشق فارفارا بافلوفنا نفسها وهي تعد القهوة في الصباح، ولكن يجب أن نعترف هنا أن لافريتسكي لم يكن مستعداً لإبداء الملاحظات النقدية إلا قليلاً في ذلك الحين، كان يمرح في سعادته، وقد انتشى بحظه السعيد، وألقى زمام نفسه إليها كالطفل، فقد كان حقاً ساذجاً كالطفل، هذا الهرقل الشاب، فلم يضع عبثاً هذا التأثير السحري الذي علق بكل كيان زوجه الشابة، ولم يذهب هباء هذا الكنز الخفي من متع لم ترها عين ولم تسمع بها أذن، وعدت بها الخيال، وأوفت بأكثر مما وعدت.

ولدى وصولها إلى لافريكي، وكان في أشد أيام الصيف قيظاً، بدا البيت لها مظلماً سيئ النظام، فالخدم من طراز سخييف بال، ولكنها لم تر أن من الضروري أن تبوح بكلمة عن هذا لزوجها، فإذا ما انتوت الاستقرار في لافريكي فلتغير كل شيء هناك.. مبتدئة، طبعاً، بالبيت، ولكن فكرة الإقامة في هذا البيت النائي البعيد عن العمران لم تدر بخاطرها مطلقاً حتى لحظة واحدة؛ فقد نزلت به فقط كما لو كانت قد نزلت بخيمة، محققة كل متاعبه في أعذب صورة، وهي تضحك من هذه المتاعب بلطف.

وعندما جاءت مارفا تيموفينا لترى تلميذها القديم، تركت أثراً طيباً في نفس فارفارا بافلوفنا، ولكن فارفارا لم تظفر على الإطلاق بحب السيدة العجوز، كما لم تتمكن سيدة البيت الشابة من مسaire جلافيرا بتروفا بارتياح. هي نفسها كان يرضيها أن تترك جلافيرا في سلام،

ولكن الجنرال كان يتشوف لأن يضع إصبعه في إدارة شؤون صهره، وقد قال إن المحافظة على أملاك مثل هذا الصهر القريب عمل يتبناه حتى الجنرال دون أن يجد في الأمر ما يشين. ومن المحتمل أن بافل بتروفتش لم يكن ليرفع عن أن يشغل نفسه بشؤون مثل هذا الدخيل البعيد كل البعد عن الأسرة.

وقد أعدت فارفارا بافلوفنا خطة هجومها ونفذتها بكل مهارة، على الرغم من أنها لم تضع نفسها أبدًا في الطليعة، ولكن كانت جميع المظاهر تدل على أنها غارقة لأذنيها في سعادة شهر العسل، وفي حياة الريف الهادئة، في الموسيقى والكتب، وقليلًا قليلًا استمرت تعمل خططها وتحكم خيوطها حول جلافيرا، إلى أن سقطت فريستها. فذات صباح اندفعت تلك السيدة داخل حجرة مكتب لافريتسكي كمجنون، وقذفت بسلسلة المفاتيح على المنضدة، وأعلنت أنها لم تعد قادرة على تسيير دفة الأمور في ذلك البيت، وأنها لم تعد ترغب في البقاء في الضيعة. ولما كان لافريتسكي قد أعد نفسه لهذا المشهد، فقد أعلن موافقته فورًا على رحيلها. ولم تكن جلافيرا بتروفنا تتوقع هذا «حسنًا» صاحت قائلة، وقد تقطب جبينها «إني أرى أن بقائي هنا غير مرغوب فيه. إني أعرف أنني مبعدة من هنا ويقذف بي بعيدًا عن عش الأسرة، ولكن يا ابن أخي تذكر كلماتي واذكرها، لن تستطيع أن تبني لك عشًا في أي مكان، فقد كتب عليك أن تظل طاعنًا لا تلقي عصا الترحال، ولن يهدأ لك بال، وتلك تركتي أتركها لك عند رحيلي». وفي ذلك اليوم نفسه ذهبت إلى ضيعتها الصغيرة، وبعد مضي أسبوع من هذا الحدث

وصل الجنرال كوروبين، وفي استسلام راض أخذ كل تدبير شؤون الضيعة في يديه.

وفي سبتمبر صحبت فارفارا بافلوفنا زوجها وشخصت إلى سانت بطرسبرج، وهناك قضى الزوجان الشبان شتائين، وفي الصيف كانا ينزحان إلى تسارسكوي سيلو. وكانا يقيمان في غرف جميلة أنيقة مضيئة بديعة التأثيث، وتعرفوا إلى كثيرين في الدوائر العالية، بل وأعلاها في المجتمع، وكثيراً ما قضوا الأوقات في خارج البيت، أو يستقبلون الزائرين كثيراً وقيمون الحفلات الموسيقية والراقصة، فقد جذبت فارفارا بافلوفنا الزائرين نحوها كما يجذب الضوء الفراش.

ومثل هذه الحياة اللاهية لم تكن لترضي فيدور إيفانوفتش كثيراً، وأرادته زوجه على دخول الخدمة، من ناحية دفاعاً عن ذكرى والده، ومن ناحية أخرى نزولاً على ما يعتنقه من آراء، ولكنه لم يكن ليفعل ذلك، على الرغم من أنه بقي في سانت بطرسبرج نزولاً على رغبة زوجه، وعلى أي حال من الأحوال، فإنه اكتشف سريعاً أن لا أحد يعترض على عزلته، وأنه لم يكن من العبث الباطل الذي لا طائل ورائه، أن يبلغ بدراسته أقصى درجات الهدوء، ويوفر لها أعظم أسباب الراحة في المدينة كلها. وكانت زوجه الواعية المتيقظة دائماً على أهبة الاستعداد لتشجيعه على عزلته، ومنذ ذلك الحين سارت الأمور سيراً مرضياً، وعاد يشغل نفسه ثانية بدراسته التي لما تكتمل بعد كما ظن، فبدأ مرحلة جديدة من القراءات، وكذلك بدأ يدرس الإنجليزية، وكان عجباً أن تراه بجسمه القوي العريض المنكبين منحنيًا فوق منضدة الكتابة، وقد

غاب وجهه الممتلئ المتورد الملتحي، إلى نصفه، بين أوراق قاموس أو دفتر للكتابة. كان يقضي صباحه في عمله، وفي ساعة متأخرة من النهار يجلس ليتناول غداء ممتازًا، فإن فارفارا بافلوفنا كانت تدبر شؤون بيتها بصورة جديرة بالإعجاب.

أما في الأمسيات فكان يدخل عالمًا مسحورًا مشرقًا يتضوع بالعطر ويعج بالشباب المرح من كل لون، وكان محور عالمهم تلك المدبرة البالغة أسمى مراتب اليقظة، زوجه الشابة.

وأسعدت حياته بمولد ابن له، ولكن الطفل المسكين لم يعيش طويلاً، فقد مات في الربيع، وفي الصيف، ونزولاً على رغبة أطبائه، ذهب لافريتسكي وزوجه إلى حيث توجد مياه الاستشفاء في الخارج، وكانت التسلية ضرورة بالغة لها، بعد تلك الكارثة التي حلت بها، وزيادة على هذا، فإن صحتها كانت في حاجة إلى مناخ أكثر دفئًا. قضيا ذلك الصيف والخريف من بعده في ألمانيا وسويسرا، أما في الشتاء، وكما نتوقع فقد ذهبا إلى باريس.

وفي باريس تفتحت فارفارا بافلوفنا كالوردة، وهناك كما فعلت في سانت بطرسبرج من قبل، وبالسعة المعهودة والمهارة المألوفة تعلمت كيف تبني لنفسها عشًا أنيقًا صغيرًا، فقد حصلت على مجموعة من الحجرات الجميلة جدًا في أحد الشوارع الهادئة والعصرية أيضًا، وحاكت لزوجها نشيرًا (روب دي شمير) لم يرتد مثله من قبل، واتخذت لها وصيفة رشيقة ظريفة وطاهيًا ممتازًا وبوابًا يتوثب نشاطًا وحركة، وزودت نفسها بعربة بالغة البهاء والرواء، ومعزف من الأثاث

الفاخر. وقبل أن ينصرم أسبوع تمكنت من عبور الشارع وهي تضع شالاً على كتفها، وتحمل مظلة مفتوحة وتلبس القفازات كأعرق ما تكون الباريسيات.

وسرعان ما اتخذت لها معارف وأصدقاء، فقد اعتاد الروسيون أولاً التردد على منزلها، ثم تلاهم الفرنسيون الذين بدأوا يظهرون في بيتها، وكانوا من الشباب الظريف العزب المهذب، وذوي السلوك الرائع، ويتسمون بأسماء عالية الرنين. كانوا جميعاً يتكلمون كثيراً وسريعاً جداً، وينحنون برشاقة عند التحية، وتتلاً لأعينهم ببريق جميل أحاذ، وكانوا جميعاً ذوي أسنان بيضاء لامعة بين شفاههم الوردية، وإذا ابتسموا فما أجمل ابتساماتهم، وكان كل منهم يحضر أصدقاءه معه، وأصبحت مدام لافريتسكي الحسنة، بعد قليل، ذائعة الصيت من شوسيه دي أنتين إلى ري دي ليل. وفي ذلك الوقت -في عام ١٨٣٦- وكان جيل من كتاب الصفحات الخاصة بالأدب أو العلوم أو المرأة... إلخ والصحفيين الذين يتهافتون في كل مكان الآن بعدد النمل الذي نراه عندما نحدث ثقباً في تل نمل، لما ينجح بعد في أن يزداد عدداً. ومع ذلك، فقد اعتاد أن يظهر في حجرة استقبال فارفارا بأفلوفنا مسيو جيل، وهو سيد سيئ الخلق جداً، وكان ظهوره غير مرغوب فيه، وكان سليطاً ملقاً.. شأن جميع المبارزين، والذين قد سيطوا كالجناد، وكانت فارفارا تكره مسيو جيل هذا إلى حد كبير، ولكنها كانت تستقبله؛ لأنه كان يكتب في عدة صحف، واعتاد أن يذكرها باستمرار فيما يكتب ويطلق عليها أحياناً مدام دي ل... تسكي، وأحياناً مدام، هذه السيدة الروسية

العظيمة، الممتازة التي تقيم في شارع دي بـ، ويصفها للعالم أجمع، أو بالأحرى لبعض مئات قليلة من المشتركين لا علاقة لهم بمدام دي لـ.. تسكي، ما أجدر هذه السيدة بالحب وما أعظم سحرها وفتنتها، فهي باريسية صميمة روحًا، والفرنسيون لا يحظون بمديح يفوق هذا الإطراء، فيا لها من موسيقية خارقة للعادة، وكانت ترقص الفالس بصورة تدعو إلى الإعجاب (فارفار بافلوفنا كانت ترقص الفالس حقًا، إلى حد يجذب جميع الأفئدة في نطاق ثوبها الخفيف السابح). وفي الواقع فإنه أذاع شهرتها في الخارج في جميع أنحاء العالم، وهذا كما نعرفه، على الرغم مما يقوله الناس، شيء يسر النفس.

كانت مدموازيل مارش في ذلك الوقت قد هجرت المسرح، ولما تكن مدموازيل راشيل قد ظهرت على المسرح بعد، وباستثناء كل ذلك فإن فارفار بافلوفنا لم تثابر على الذهاب إلى المسرح، وكانت تنتشي سعادة لدى سماعها الموسيقى الإيطالية، وتضح بالضحك على خرائب أودري، وتفغر فاهها متثابرة بصورة لائقة بها، إذا ما شاهدت الدراما التقليدية، وتذرف الدمع باكية عند مشاهدة مدام دورفال تقوم بتمثيل بعض الأعمال الميلودرامية الفائقة. وبالإضافة إلى كل هذا فإن (ليست)^(١) عزف في بيتها مرتين، وكم كان مشجعًا وطبيعياً، فقد كان فاتناً يسبي العقول.

وفي غمرة هذه الأحاسيس الممتعة أمضت الشتاء، الذي ما كاد ينتهي حتى كانت فارفار بافلوفنا قد حظيت بدخول البلاط، أما عن

(١) موسيقار مشهور عاصر حوادث القصة.

فيدور إيفانوفتش فلم يبرم بالحياة على وجه التحديد، ولكن كان يحس الحياة ثقيلة على كاهله في بعض الأحيان، ثقيلة لأنها فارغة. قرأ الصحف واستمع إلى المحاضرات في السوربون والكوليج دي فرانس، وتتبع مناقشات المجالس وشغل نفسه بترجمة مؤلف علمي مشهور في الري «إنني لا أضيع وقتي هباء»، فكر قائلاً: «كل هذا مفيد، ولكن في الشتاء القادم يجب حقاً أن أعود إلى روسيا وأعمل عملاً نشيطاً». من العسير أن نقول إنه كانت لديه فكرة واضحة عن السمات المعينة لذلك العمل، أما التنبؤ به إذا كان سينجح في العودة إلى روسيا فهذا علمه عند الله، وفي نفس الوقت كانت عنده نية الذهاب مع زوجته إلى بادن، ولكن حدثاً لم يكن في الحسبان قلب كل خططه رأساً على عقب.



الفصل السادس عشر

و ذات يوم عندما دخل لافريتسكي مصادفة مخدع فارفارا بافلوفنا في أثناء غيابها، وجد قطعة من الورق مطوية بعناية ملقاة على أرض الحجرة، وبحركة نصف آلية التقطها وفتحها، وقرأ السطور التالية مكتوبة باللغة الفرنسية:

ملاكي العزيز بتي:

«إنني في الحقيقة لا يمكنني أن أقطع برأي، إذا كنت أدعوك باريبي أو فارفارا، لقد انتظرتك عبثاً في ركن البوليفار. تعالي إلى مسكننا غداً في منتصف الساعة الثانية. إن زوجك الممتاز يكون منهمكاً عادة في كتبه في ذلك الوقت، سوف نغني مرة ثانية أغنية شاعر كم بوشكين التي علمتنيها، أيها الزوج العجوز، أيها الزوج القاسي، ألف قبلة ليديك وقدميك العزيزتين الصغيرتين. إنني في انتظارك».

«إرنست»

لم يدرك لافريتسكي أولاً كنه ما قد قرأ؛ فقرأها مرة ثانية «إرنست»، دارت رأسه ومادت الأرض تحت قدميه، كما يُميد سطح السفينة في العاصفة، وند صوت نصف مخنوق من شفّتيه، لم يكن صرخة تمامًا، ولم يكن نشيجًا.

كان مرتبًا كل الارتباك، حائرًا في أمره إلى النهاية القصوى، فقد وثق بزوجه ثقة عمياء، وأن احتمال الخداع والخيانة من جانبها لم يطف يومًا بخياله، وإرنست هذا، وعشيق زوجته، كان ولدًا جميلًا في الثالثة والعشرين من عمره، شعره خفيف وأنفه معقوف إلى أعلى وله شارب صغير، ومن المحتمل أن يكون أتفه جميع معارفه.

مرت عدة دقائق، ومرت نصف ساعة، وما زال لافريتسكي واقفًا هناك قابضًا على العجالة المميّنة في يده، وهو يحملق بنظرات فارغة إلى أرض الحجرة، وأحس أنه يسبح في دوامة سوداء، وأن وجوهاً شاحبة تنظر من خلالها.

واعتصر قلبه إحساس مؤلم من الحذر، وأحس أنه ينحدر، ينحدر، ينحدر إلى هوة ما لها من قرار.

أيقظه من سباته حفيف ثوب حريري ناعم بصوته المألوف. ودخلت فارفارا بافلوفا على عجل قادمة من الخارج، فارتعش لافريتسكي من هامته إلى أخمصه وشعر في تلك اللحظة أنه مستعد لأن يمزقها أربًا ويجندلها بيديه، وأبسط جزاء تستحقه أن تنال ضربًا مبرحًا يترك آثاره على أديم جسدها، ولكن لا يسلمها إلى الموت، كما يفعل الفلاحون. أرادت فارفارا بافلوفا، وقد لفتها الدهشة، أن توقفه، ونجح في أن

يهمس بكلمة «بتي» ثم ولى هاربًا من المنزل.

استقل لافريتسكي عربته وانطلق بها خارج المدينة، وصرف بقية النهار وطوال الليل يجول هنا وهناك، وهو يقف باستمرار ويلوي يديه فوق رأسه. وأحيانًا تتباه نوبات من الثورة المجنونة، وأحيانًا أخرى كان يبدو أن كل شيء يدفعه إلى الضحك، بل إلى نوع من الطرب أيضًا. وعندما بزغ الفجر أحس أنه نصف متجمد، فدخل حانة حقيرة في إحدى الضواحي وطلب حجرة وجلس على مقعد أمام النافذة. واستولت عليه نوبة من الشاؤب الشنجي، وكان في ذلك الوقت لم يعد قادرًا على الجلوس معتدل القامة، وقد نفذت قواه الجسمية تمامًا، ومع ذلك فلم يكن واعيًا لما ناله من نصب، ولكن النصب له طريقته الخاصة في التسلل إلى الجسم، وظل جالسًا هناك وهو يحملق بنظرة فارغة، ولم يعد يفهم شيئًا، ولم يكن باستطاعته أن يتبين ما حل به، وماذا جاء به إلى ذلك المكان وحيدًا، في حجرة خالية مجهولة الأطراف خدرة وإحساس بالمرارة في فمه وثقل كحجر عظيم يرين على قلبه. ولم يستطع أن يدرك ما الذي أغوى حبيته فارفارا بافلوفنا، على أن تسلم نفسها إلى ذلك الفرنسي، وكيف تمكنت أن تظل هادئة مطمئنة كعهده بها في محضره، رغم علمها بغدرها وخيانتها له، وكيف يمكن أن تظل موضع الثقة تبذل له من حبها وحنانها كشأنها دائمًا «لا أستطيع أن أدرك هذا» همست شفتاه اليابستان «وأني لي أن أتأكد من أنه حتى في سانت بطرسبرج...» ولكن لم يتم سؤاله، وتملكته نوبة جديدة من البهر، فارتعد كيانه كله وانكمش. وعذبتة الذكريات المضيئة والمظلمة

على السواء، وتذكر فجأة، كيف أنه منذ أيام قلائل مضت، جلست إلى البيان عندما كان هو وإرنست حاضرين وغنيا «أيها الزوج العجوز، أيها الزوج القاسي» وتذكر تعبير وجهها والبريق العجيب في عينيها واللون في خديها... ووقف إلى مقعده، وهو يتشوق إلى الذهاب إليهما ويقول «أنتما على خطأ إذ تلعبان حيلكما عليّ. إن جدي كان يعلق الفلاحين من أضلاعهم في الخطاطيف، وإن جدي نفسه كان فلاحًا» ثم يقتلهما معًا. وفجأة يبدو له أن كل ما حدث كان أضغاث أحلام، بل ليس كالحلم في كثير، ولكن مجرد وهم سخي، وما عليه إلا أن ينفذ عن نفسه ما بها، ثم ينظر حوالیه... ونظر حوالیه فعلاً، وكما ينشب الصقر مخالبه في طائر أسير، هكذا ضربت التعاسة جذورها أعمق وأعمق في قلبه. ومما جعل الأمور تتطور إلى الأسوأ أن لافريتسكي كان يأمل أنه في غضون شهور قلائل سوف يجد نفسه أباً مرة أخرى. لقد تسمم ماضيه ومستقبله بل حياته كلها.

وأخيراً عاد إلى باريس وذهب إلى الفندق، ثم أرسل عجالة مسيو إرنست إلى فارفارا بافلوفنا ومعها الخطاب الآتي:

«إن قصاصة الورق التي تصحب هذا الخطاب سوف تشرح كل شيء لك، وأضيف أنك لا تبدين أنك قد تصرفتي في هذا الأمر بلباقتك المعهودة وإلا فكيف، وأنت الشخص الحذر، تسقطين مثل هذه الأوراق المهمة (لافريتسكي المسكين كان يعد هذه العبارة، ويدللها، كما لو كان لعدة ساعات). لا يمكنني رؤيتك مرة أخرى، كما أظن أنك أيضاً لا ترغبين في لقاء معي. إنني أجري عليك خمسة عشر ألف روبل سنوياً،

ولا يمكنني أن أعطيك أكثر. أرسلني عنوانك إلى وكيل ضيعتي. والآن افعل ما بدا لك، وعيشي حيث تريد، وأرجو لك كل نجاح، ولا أريد أن أتلقى منك ردًا».

أخبر لافريتسكي زوجته أنه لا يريد أن يتلقى منها ردًا، ولكن لم يكن يتوقع، بل هو كان يحن أيضًا إلى رد على خطابه، وتفسير لهذا الأمر الغريب الذي لا يمكن فهمه. وفي ذلك اليوم نفسه أرسلت إليه فارفارا بافلوفنا خطابًا مستفيضًا باللغة الفرنسية فكان الضربة القاضية. تلاشى ما بقي من شكوكه، بل أكثر من هذا، فقد شعر بالخزي والعار؛ لأنه بقي في شك من الأمر. لم تحاول فارفارا بتروفا أن تبرر سلوكها وكل ما استهدفت من ردها أن تراه، وضرعت إليه ألا يدينها إدانة قاطعة لا نقض فيها ولا إبرام، وكان الخطاب فاترًا مبتسرًا، رغم أن آثار الدموع كانت ترى هنا وهناك على صفحة القرطاس. ابتسم لافريتسكي ابتسامة مُرّة، وبعث إليها برسالة مع حامل رسالتها إليه، ينهي إليها فيها أن خطابها ليس في حاجة إلى رد.

وبعد مرور ثلاثة أيام كان قد غادر باريس، ولكنه ذهب إلى إيطاليا بدلًا من أن يذهب إلى روسيا، وهو نفسه لم يعرف لماذا وقع اختياره على إيطاليا خاصة. وفي الحقيقة، فقد كانت جميع البلاد سواء في نظره ما دام لا يعود إلى أرض الوطن. وأرسل كلمة إلى وكيله بخصوص راتب زوجته، ويأمره في الوقت نفسه أن يسحب كل إدارة وإشراف على الضيعة من يدي الجنرال كوروبين فورًا دون أي انتظار لتسوية الحسابات، وأن يشرف بنفسه على رحيل سيادته من لافريكي. وانغمس

في صورة حية لما سينال الجنرال المطرود من ارتباك، والمظهر العديم الفائدة الذي سيظهر به، وعلى الرغم مما كان يعانيه من أسي، فقد كان يشعر برضى شرير. وفي الوقت نفسه أرسل إلى جلافيرا بتروفنا يسألها العودة إلى لافريكي، وكتب تفويضًا باسمها، ولكن جلافيرا رفضت العودة إلى لافريكي، وذهبت إلى أبعد من هذا بأن أعلنت في الصحف أن التفويض قد ألغي، وكان هذا إجراء جاوز الحد الأقصى تمامًا من جانبها.

توارى لافريتسكي عن الأنظار في بلدة إيطالية صغيرة، ولكنه بقي وقتًا طويلًا لا يمكنه أن يتخلص من متابعة تحركات زوجته عقليًا. وعلم من الصحف أنها غادرت باريس إلى بادن كما انتوت من قبل، وسرعان ما ظهر اسمها في مقال قصير مهره مسيو جيل الذي سبق أن تحدثنا عنه، وقد أسفرت تلاوة هذا المقال عن أثر مكدر على عقل لافريتسكي، فقد تبين منه أن تحت مرح الكاتب وخفته يختفي نوع من نغمة الحنو الخيري، ثم علم بعد ذلك أن ابنة قد ولدت له. وبعد شهرين أخبره وكيله أن فارفارا بافلوفنا قد سحبت مرتب الربع الأول من السنة، وبعد ذلك جاءت التقارير الشائنة تترى ثم توات وزادت أكثر وأكثر، وأخيرًا جرت قصة مبكية مضحكة، لعبت فيها دورًا لا تحسد عليه أبدًا، وقد ترددت هذه القصة في جميع دوائر الصحف اليومية وأثارت زوبعة عظيمة، ثم بلغت الأمور القمة، وأصبحت فارفارا بافلوفنا حينئذ «شخصية مشهورة».

انقطع لافريتسكي عن متابعة تحركاتها، ولكن تقاضته السيطرة على

مشاعره وقتاً طويلاً، فأحياناً كان يشتمله حنين إلى زوجته، يبدو معه أنه أصبح مستعداً للتخلي عن كل ما يملك، وكل ما يمكنه، وربما الصفح عنها أيضاً، إذا ما سمع صوتها المدلل مرة أخرى وأحس مرة أخرى بيدها في يده. ولكن الزمن لم يمر عبثاً وهو لم يولد للشقاء. وطالبت طبيعته الصحية بحقوقها، وأصبحت أشياء كثيرة واضحة مفهومة له، فقد ظهر أن الضربة التي سددت إليه لم تأت دون تحذير وسابق إنذار، فهو يفهم زوجته الآن. فنحن لا نستطيع أن نفهم تماماً الأشخاص الذين نرتبط بهم ارتباطاً وثيقاً في الغالب إلا بعد أن تباعد بينهم وبيننا الأيام؛ فاستطاع أن يزاوِل عمله مرة ثانية وأن يدرس، ولو أن حماسه فتر كثيراً عما كان عليه في سابق عهده، فإن الشك الذي مهدت له تربيته وتجاربه في الحياة قد سيطر على عقله سيطرة دائمة، فغداً مستهتراً لا يعبأ بشيء. مرت أربعة أعوام وشعر أن له من القوة ما يكفيه أن يعود به إلى وطنه ليلقى أهله وعشيرته، ودون أن يتوقف في سانت بطرسبرج أو في موسكو وصل إلى مدينة آو، حيث تركناه، وإلى حيث نستميح القارئ العودة معنا.



الفصل السابع عشر

وفي حوالي الساعة العاشرة صباحًا، بعد اليوم الذي سبق أن تحدثنا عنه، كان لافريتسكي يصعد الدرج في منزل آل كاليتين، عندما التقى بليزا وقد وضعت القبعة على رأسها والقفازات في يديها.

سألها: «إلى أين أنت ذاهبة؟».

- إلى الكنيسة، فإن اليوم هو يوم الأحد.

فنظرت إليه ليزا في عجب صامت.

قال لافريتسكي: «أرجوك المَعذرة، فأنا لم أقصد أن أقول ذلك. ولقد حضرت لأستأذنكم في الرحيل عنكم. وسأبدأ رحلتي إلى بيتي الريفي في ظرف ساعة من الزمان».

فسألته ليزا: «إنه ليس بعيدًا من هنا؟».

- على بُعد خمس وعشرين فرست تقريبًا.

وظهرت في تلك اللحظة ليونتشكا بالباب، وبصحبتها وصيفتها.

قالت ليزا وقد هبطت الدرج: «ليكن في علمك ألا تنسانا».

- ولا تنسيني أيضًا. وبهذه المناسبة - ووالى حديثه قائلاً: «أنت ذاهبة إلى الكنيسة، صلي من أجلي وأنت بين يدي الله هناك».

توقفت ليزا ونظرت تجاهه.

قالت وهي تنظر إلى وجهه بملء عينيها: «حسنًا، سوف أصلي من أجلك أيضًا. هيا بنا يا ليونتشكا».

وجد لافريتسكي ماريا ديمترييفنا وحيدة في حجرة الاستقبال، التي كانت تتضوع بماء الكولونيا وروح النعناع. قالت إن رأسها مصدع، وأنها قضت ليلة مؤرقة.

استقبلته بلطفها الفاتر المعهود، ثم بدأت الحديث شيئًا فشيئًا.

سألته قائلة: «قل لي، أليس فلاديمير نيكولايفتش شابًا ظريفًا جدًا؟».

- ومن عساه أن يكون فلاديمير نيكولايفتش هذا؟

- ما هذا يا لافريتسكي! فأنت تعرف أنه الذي كان هنا بالأمس، وكان مسرورًا جدًا منك. ولا بأس من أن أذكر لك - والحديث بيننا فقط (يا ابن عمي العزيز) - أنه مفتون إلى أقصى درجة بليزا، ابنتي. حسنًا، فهو من أسرة طيبة، وهو يتقدم تقدمًا كبيرًا في الخدمة، فهو ماهر، فوق أنه أمين في القصر، وإذا ما سمحت إرادة الله، وأنا من جانبي وبوصفي أم، أُسرّ لها، إنها حقًا لمسؤولية جسيمة، وبكل تأكيد فإن سعادة الأبناء منوطة بالأباء، وهذا يجب الإقرار به أيضًا إلى أبعد مدى. وحتى ذلك الوقت الحاضر سواء أكان خيرًا أم شرًا، فقد اضطلعت بكل شيء بنفسي

اضطلاعًا كاملاً، فقد نشأت أطفالاً وعلمتهم كل شيء بنفسى، والآن ولتوى قد حررت رسالة لمدام بولس من أجل مربية.

وأسهبت ماريا ديمتريفنا فى وصف متاعبها وهمومها، والجهود التى تبذلها ومشاعر الأمومة عندها، وأصغى إليها لافريتسكى فى صمت، وهو يدير قبعته فى يديه، فأفزعت نظرتة الباردة العاطلة من الحنو والعطف السيدة الثائرة.

وسألتة: «وما رأيك فى ليزا؟».

فأجاب لافريتسكى: «إن ليزافيتا ميخائيلوفنا فتاة رائعة الحسن» وحينئذ نهض وودعهم، وذهب لزيارة مارفا تيموفيفنا، ونظرت ماريا ديمتريفنا وراءه، وقد ارتسمت على وجهها عبارات السخط وفكرت لنفسها: «يا له من دب. يا له من فلاح قح. حسناً، فأنا الآن أفهم السبب الذى من أجله لم تستطع زوجته البقاء على الوفاء له».

كانت مارفا تيموفيفنا تجلس فى حجرتها تحيط بها حاشيتها، وهذه الحاشية كانت تتكون من خمسة مخلوقات، تعتز بها جميعاً سواء بسواء: طائر الدقناش^(١) وقد أحبته؛ لأنه لم يعد قادراً على الصغير أو استقاء الماء، كما أصيب بانتفاخ فى رقبته، وكلبة صغيرة هادئة شديدة الحياء، تُسمى روسكا، وقطة شرسة الطبع تُسمى ماتروس، وفتاة سمراء مملوءة حيوية ونشاط تبلغ التاسعة من العمر، ذات عينين متناهيتين فى الاتساع وأنف مدبب، وكانت تسمى شورتشكا^(٢)، وسيدة نصف

(١) عصفور بصدر أحمر.

(٢) أحد أسماء التصغير والتدليل لإلكسندرا.

تبلغ الخامسة والخمسين من العمر، كانت ترتدي قبة بيضاء وسترة^(١) قصيرة بلون القرفة فوق ثوب غامق، وكانت تُدعى ناستاسيا كاربوفنا أوجاركوف.

كانت شورتشكا يتيمة الأب والأم، أقاربها من الطبقة البورجوازية الدنيا، وقد تبنتها مارفا تيموفيفنا كما فعلت بروسكا بدافع الشفقة، فقد عثرت على الفتاة والطائر في عرض الطريق. كان كلاهما نحيلًا مقروّرًا، وقد بللها مطر الخريف. لم يطالب أحد بملكية روسكا، أما شورتشكا فقد تنازل عنها عمها فرحًا إلى مارفا تيموفيفنا، وكان هذا العم صانع أحذية سكيرًا، لم يكن لديه ما يمسك رmqه، وبالتالي فليس لديه ما يمسك أيضًا رmq ابنة أخيه، وقد اعتاد أن يضربها على أم رأسها بقالب الأحذية.

أما ناستاسيا كاربوفنا فقد تعرفت بها في حجة في دير. ذهبت إلى تلك السيدة العجوز في الكنيسة ذات يوم، وقد أدخلت ناستاسيا كاربوفنا السرور على قلب مارفا تيموفيفنا بالصلوات، كما قالت السيدة الأخيرة «بذوق سليم جدًّا» بدأت تتحدث إليها ودعتها إلى منزلها لتناول قح من الشاي، ومنذ ذلك الوقت لم تفترق عنها مطلقًا.

وكانت ناستاسيا كاربوفنا، وأبوها ينتمي إلى طبقة الأعيان القرويين الفقراء، أرملة لا ولد لها. وكانت امرأة دمسة الطبع خلابة الشمائل، لها رأس مستدير وشعر أشيب ويدان ناعمتان بيضاوان، وكان وجهها ناعمًا أيضًا وقسماتها، بأنفها المضحك الأذلف^(٢)، لطيفة وإن كانت

(١) Katsavlika نوع من المعاطف ترتديه النساء.

(٢) الأذلف من الأنوف: الصغير المستوي الأرنية. [المحرر].

حزينة. كانت تعبد مارفا تيموفيفنا التي أحببتها وأعزتها، مع أنها كانت تغيطها بالحديث عن قلبها السريع التأثر، وكان بناستاسيا ضعف أمام جميع الشبان، وكانت تحمر خجلاً كعذراء لدى سماعها أبسط النكات وأكثرها براءة. وكان كل ما تملك هو ألف ومائتا روبل^(١) عملة ورقية. كانت مارفا تيموفيفنا تتولى الإنفاق عليها، ولكن كانت تعايشها على قدم المساواة الكاملة، فما كانت مارفا تيموفيفنا تحتمل الخضوع أو تصبر على الذلة.

بدأت قائلة: «آه، يا فديا» بمجرد أن رآته: «أنت لم تر أسرتي الليلة الماضية، أرجو أن تنال رضاك، ونحن نجتمع حول مائدة الشاي، فهذه وليمة الشاي الثانية في يوم العيد، ولا بأس من أن تعانقنا جميعاً. إن شورتشكا فقط لن تسمح لك بعناقها، ثم إن القطة سوف تخمشك. هل سترحل اليوم؟».

- نعم. قال لافريتسكي، وهو يجلس على مقعد منخفض: «لقد استأذنت لتوي من ماريا ديمتريفنا، ورأيت ليزافيتا ميخائيلوفنا أيضاً».

- سمها ليزا! يا عزيزي. لماذا يجب أن تكون ميخائيلوفنا، بالنسبة لك؟ ولكن تفضل بالجلوس ساكنًا، وإلا كسرت مقعد شورتشكا».

استمر لافريتسكي في حديثه: «كانت في طريقها إلى الكنيسة، فهل هي جادة في ميلها؟».

- نعم يا فديا. جادة جدًّا، أكثر منك ومني يا فديا.

- وهل تقصدين أنك لست جادة في ميلك؟

(١) يساوي ما يقرب من خمسين جنيهًا.

قالت ناستاسيا كاربوفنا متلعثمة: «إذا كنت لم تذهبي إلى القديس المبكر اليوم، فسوف تذهبين إلى الذي يليه».

— لا أنوي شيئاً من ذلك، وسوف تذهبين سيادتكم بمفردك، فلقد غدوت كسولاً يا أمي. أجابت مارفا تيموفيفنا: «إنني أفسد نفسي فساداً مروعاً، بإدمان شرب الشاي».

وخاطبت ناستاسيا كاربوفنا بقولها: «سيادتك» على الرغم من أنها تعيشها على قدم المساواة، ولكنها لم تكن أحد أعضاء أسرة بستوف عبثاً، فثلاثة من أفراد هذه الأسرة مدونة أسمائهم في السينودك^(١) الذي أنشأه إيفان الهائل، وكانت مارفا تيموفيفنا تدرك هذه الحقيقة جيداً.

— أخبريني من فضلك، بدأ لافريتسكي حديثه ثانية: «كانت ماريا ديمتريفنا تتحدث إليّ منذ هنية أن... ماذا اسمه؟... بانشين. أي نوع من الرجال هو؟».

تضجرت مارفا تيموفيفنا: «رحماك يا إلهي! يا لها من ثرثرة، لا يخامرني شك في أنها أفضت إليك، وبأن ما تقوله سر، بأنه يحوم هنا كعاشق، وكان يكفي أن تقنع بأن تهمس به في أذن ابن القس^(٢)، ولكن لا، فإن هذا يبدو أنه لا يكتفيها. ومع ذلك فإن شيئاً لم يتقرر بعد فيما يخص هذا الأمر، والحمد لله. ولكنها تثرثر دائماً».

سأل لافريتسكي: «لماذا تقولين شكرًا لله؟».

(١) مدونة أسمائهم في قائمة النبلاء في زمنه، في القرن السادس عشر.

(٢) ابن القس هو جيديونوفسكي.

- لماذا! لأن هذا الشاب الظريف لا يعجبني. ثم ماذا في الأمر يسر القلب؟ فإني أحب أن أعرف!

- ألا يعجبك؟

- لا، فهو لا يستطيع أن يفتن كل شخص، وكيفيه أن ناستاسيا كاربوفنا هنا تهيم بحبه.

ارتبكت الأرملة العجوز ارتباكًا مروعًا.

صاحت قائلة: «كيف يمكنك أن تقولي ذلك يا مارفا تيموفينا؟ ألا تخافين الله؟»، وسرعان ما اصطبغ وجهها وجيدها بحمرة الخجل. انفجرت مارفا تيموفينا قائلة: «وحقًا فإن الوغد يعرف كيف يفتنها، فقد أهدى إليها صندوق سعوط. اطلب منها قبضة (تنشيقية) من السعوط، وسترى كم هو صندوق سعوط فاخر، فقد نُقش فارس يمتطي صهوة جواده على غطاءه. والأفضل كثيرًا لك ألا تحاولي تبرير نفسك يا أمي». لم تستطع ناستاسيا أن تفعل سوى أن تلوح بيدها في الهواء مستجيبة بالله. وسأل لافريتسكي: «حسنًا، ولكن فيما يتعلق بليزا؟ وهل لا يكثر لها؟».

- يبدو أنها تحبه، أما الباكون فالله وحده يعرف قلوبهم، فإن قلب شخص آخر كما تعرف، غابة مظلمة، وأكثر ظلامًا إذا كان قلب فتاة شابة. انظر إلى شورتشكا هناك، تعال وحلل قلبها، لماذا كانت تختبئ؟ ولا تغادر المكان منذ جئت إلى هنا!

انفجرت شورتشكا بضحكة لم تتمكن من حبسها، وجرت خارجة

من الحجرة، كما نهض لافريتسكي من مقعده أيضًا.

قال ببطء: «نعم، إن الإنسان لا يمكنه أن يسبر غور قلب فتاة».

وإذ هو على وشك أن يستأذن في الانصراف، سألته مارفا تيموفينا: «حسنًا، هل سنراك سريعًا؟».

- ربما يا عمته. فإن وجهتي لا تبعد كثيرًا عن هنا.

- نعم، فأنت ذاهب ولا شك إلى فاسيليفسكوي، فأنت لن تقيم في لافريكي. حسنًا، فذلك شأنك ولا يخص سواك. وكل ما أشير عليك به أن تذهب وتركع عند قبر أمك وقبر جدتك أيضًا في أثناء إقامتك هناك. لقد حصّلت كل أنواع الحكمة في الخارج، وربما، فمن ذا الذي يعرف أنهما سوف يحسان في قبرهما أنك ذهبت لزيارتهم، ولا تنسى يا فديا أن تقيم قداسًا من أجل جلافيرا بتروفنا أيضًا. وهاك روبل لك، خذه، خذه أرجوك، فأنا التي أرغب في إقامة هذا القداس من أجلها. نعم، إنني لم أحبها في حياتها، ولكن يجب أن أعترف أنها كانت فتاة على خلق كريم، وكانت ماهرة، وإذن فهي لم تلحق بك أذى. والآن فلتنطلق في حال سبيلك والله معك... وإلا أضجرتك.

ثم عانقت مارفا تيموفينا ابن أخيها وقالت:

- وإن ليزا لن تتزوج من بانشين، فلا تقلق من أجل ذلك، فهو ليس رجلًا من الطراز الذي يصلح لها زوجًا.

أبدى لافريتسكي هذه الملاحظة إذ هم بالانصراف: «ولكني لست قلقًا إطلاقًا لهذا الشأن».

الفصل الثامن عشر

وبعد ساعات أربع كان في طريقه ميمماً شطر بيته، وانطلقت عربته تطوي مفترق الطريق الملساء طياً سريعاً، فإن المطر لم يسقط منذ أسبوعين، وقد انتشر في السماء ضباب رقيق لبنى اللون حجب الغايات البعيدة عن البصر، وانتشرت رائحة الاحتراق في الهواء، وبدت سحب غبراء تكتنفها خطوط باهتة في كبد سماء شاحبة زرقاء وسارت متباطئة متكاسلة في صفحة السماء، وهبت ريح قوية هوناً ما في تيار متصل لا ينقطع، وقد خلا من الرطوبة، ولم يصد الحرارة الشديدة.

أسند لافريتسكي رأسه على الوسائد الموضوعة خلف المقعد وهو مكتوف الذراعين على صدره، وحدث في الوديان التي شقتها المحارث، وقد انفتحت أمامه كالمروحة وإلى شجيرات الكاتيس وإلى الغربان، زاعها^(١) وأسحما^(٢) التي كانت تنظر يمنة ويساراً إلى العربة المارة، بشك بارد متبلد، وإلى خطوط الحقل المزروعة بنبات الأرتاماسيا

(١) غراب صغير ريش ظهره وبطنه أبيض.

(٢) نوع آخر من الغربان.

والشيخ وشجر الأجاس. وتلك الأراضي الموحشة المستوية المترامية الأطراف، ناضرة وخصبة، وتلك المساحات الشاسعة من الخضرة، وتلك المنحدرات التي تمتد على مرمى البصر، والوهاد المرصعة بأدغال من أقزام شجر البلوط، والمزارع الشهب المتسربلة بغلالة رقيقة من شجر البتولا. كل هذا المنظر الريفي الروسي الذي لم تكتحل به عيناه منذ زمن طويل، ملأ قلبه بالأحاسيس الحلوة، ولكنها في الوقت نفسه أحاسيس حزينة في الغالب بعثت في القلب شعورًا غامضًا مظلمًا، ولكنه كان أقرب إلى الشعور باللذة أكثر منه بالألم. وسرحت أفكاره بطيئة متناقلة إلى الماضي، وكانت صور هذه الأفكار وأشكالها غامضة سيئة التحديد، كالسحب التي بدت أيضًا كما لو كانت تسبح هائمة في أعالي السماء، فعاتت به الذكريات إلى أيام الطفولة، ورجعت به إلى أمه، يوم أن جاءوا به إليها وهي راقدة على فراش الموت، وكيف ألصق رأسه بصدرها، فبدأت تغني له بصوت لين منخفض، غير أنها نظرت إلى جلافيरा بتروفنا، ثم صمتت إلى الأبد، ثم طافت به ذكريات أبيه، وكان في أول عهده به قويًا، ذا صوت نحاسي رنان يتبرم بكل شيء، ثم كُف بصره وعلت شكواه وابتضت لحيته، ولم يجد من يُعنى بأمره، وتذكر أنه ذات يوم وفي أثناء العشاء وقد أسرف في الشراب انفجر الرجل الكهل ضاحكًا، وطفق يثرثر عن فتوحاته وهو يغمز بعينه الضريتين وتصنع الحمرة وجهه، وتذكر فارفارا بافلوفنا، وتقلصت عضلات وجهه على رغمه، كوجه الإنسان عندما يشعر بالألم مباغت، ودفع رأسه دفعة نافذة الصبر، ثم انتهت به جولة أفكاره عند ليزا.

هناك، فكر قائلاً: «حياة جديدة تبدأ لتوها الآن، فيا لها من مخلوق طيب وإنني لأعجب ماذا سيكون مصيرها وهي جميلة أيضاً، ووجهها الشاحب الناضر، وعيناها وشفثاها الرزيتان، ونظراتها الصريحة وهي تنظر إليك. ومما يؤسف له أنها تبدو متحمسة قليلاً، وقامتها ممشوقة وتخطر في رقة وخفة، وهي ذات صوت هادئ رزين، وإن حبي لها ليلغ غايته عندما تقف ساكنة لا تريم ولا تتحرك وتصغي في اهتمام ووقار، ويغمرها التأمل، ثم تهز شعرها إلى الخلف. نعم إنني أوافق على أن بانشين ليس جديرًا بها، ومع ذلك فما الضرر الذي نخشاه منه؟ وعلى أي حال من الأحوال فما الذي يخصني في هذا الشأن؟ لماذا أشغل بالي به؟ فهي سوف تسلك الطريق نفسه الذي يجب على الأخريات جميعاً أن يسلكنه، والأفضل لي أن أنام» ثم أغمض عينيه.

لم يستطع النعاس، ولكنه غرق في رؤيا المسافر الحالمة، وكما حدث له من قبل عادت صور الأيام الخوالي تظهر ببطء، ثم تسبح في خياله وهي تندمج بعضها في بعض ثم تختلط في مناظر ومشاهد أخرى. وبدأ لافريتسكي يفكر -والله وحده يعلم السبب- في سير روبرت بيل، ثم في التاريخ الفرنسي، وأخيراً في النصر الذي كان سيجرزه لو كان جنرالاً. ثم دوي إطلاق النار والصخب في أذنيه، ومالت رأسه إلى جانب، ففتح عينيه، الحقول نفسها تمتد أمام بصره والمناظر المنبسطة نفسها تلتقي به، ونعال الخيول الحديدية تلمع براقاة الواحدة تلو الأخرى، من خلال موجات التراب، وقد امتلاً قميص السائق الأصفر^(١) بالهواء

(١) أصفر وبه قطع حمر تحت الأذرع.

«هأنذا أعود بارًا صالحًا إلى مسقط رأسي».

فكر بهذا لافريتسكي فجأة، ونادى: «انطلق يا هذا!» ولف عباءته جيدًا حوله وضغط بجسمه مقترَّبًا أكثر وأكثر من الحشايا، وارتجت العربة، فجلس لافريتسكي معتدلًا، وفتح عينيه على اتساعها. وفي المنحدر أمامه امتدت قرية صغيرة وإلى اليمين قليلًا كان يرى مانورهاوس^(١) قديمًا متواضع المساحة أغلقت مصاريعه، وانحنت كفة بابيه، وعلى جانب منه أمام مخزن المحصولات الزراعية، بُني بخشب البلوط، وهو صغير ومُعتنى به جيدًا. أما الفناء الفسيح، فقد تغطى من أقصاه إلى أقصاه بحشائش القريص وهي خضراء كثيفة مثل حشائش القنب.

كانت هذه هي ضيعة فاسيليفسكوي.

اتجه السائق إلى جنب ميممًا شطر البوابة، ثم أوقف جواده، ونهض خادم لافريتسكي من مقعده مستعدًّا لأن يقفز من العربة، ثم صاح: «هاللو».

ارتفع نباح أجش ردًّا على هذا الصياح، ولكن لم يظهر كلب الباب، وأعد الخادم نفسه مرة ثانية للنزول وصاح: «هاللو»، فكرر النباح الضعيف، وتلا هذا فورًا أن جرى إلى الفضاء قادمًا من أحد الأركان رجل شعره أبيض كالثلج، يرتدي قباء من النانكين^(٢) نظر إلى العربة وهو يظلل عينيه لحمايتهما من الشمس، وفجأة ضرب بيديه على

(١) المسكن الرئيس في الضيعة، وهو محل إقامة السيد مالك الأرض.

(٢) نوع من القماش.

فخذه، وظل برهة يتململ ويأتي بحركات عصبية مضطربة، لا تستهدف غرضًا، وفي النهاية جرى ليفتح البوابة.

دخلت العربة إلى الفناء وهي تسحق العشب تحت عجلاتها، ووقفت أمام كفة الباب (واجهة البناء)، كان الرجل الذي اشتعل رأسه شيئًا، والذي بدا عليه واضحًا أنه نشيط بطبعه، قد سبق بالوقوف على الدرجة السفلى من السلم، وقد انفرجت ساقاه في ارتباك، وفك أزرار مشمع العربة، وبعد أن رفع السيور الجلدية بحركات اهتزت لها العربة، قبّل يد سيده وهو يعاونه على الهبوط منها.

قال لافريتسكي: «يوم سعيد، يوم سعيد يا أخي. إن اسمك أنطون، أليس كذلك؟ وهكذا فأنت ما زلت حيًّا ترزق؟».

انحنى الرجل العجوز في صمت، ثم جرى ليحضر المفاتيح، وبقي السائق دون حراك، وهو يميل ذات اليمين وذات اليسار، وينظر إلى الباب المغلق، واستمر خادم لافريتسكي في موقفه الرائع الذي ألفى نفسه فيه بعد أن قفز من العربة إلى الأرض، وأحد ذراعيه يستند إلى مقعد الحوذي.

أحضر الرجل العجوز المفاتيح وفتح الباب وهو رافع مرفقيه عاليًا في الهواء، ويتلو بجسمه دون حاجة تدعو إلى ذلك! وحينئذ وقف إلى جانب وانحنى ثانية على منطقته (مكان الحزام).

- هأنذا في البيت وقد عدت حقًا، فكّر لافريتسكي عندما دخل البهو والمصاريع تفتح الواحد بعد الآخر بصرير وقعقة. وهكذا اخترق ضوء النهار الحجرات التي طال هجرها.

الفصل التاسع عشر

بُنِيَ البيت الذي قد وصل إليه لافريتسكي، والذي فيه توفيت جلافيرا بتروفنا منذ عامين، من خشب الصنوبر في القرن الماضي. بدا قديمًا جدًّا، ولكنه صالح للسكنى لخمسين عامًا أخرى أو ما يزيد.

جاس لافريتسكي خلال جميع الحجرات، ولشدة جزعه من الذباب الذي طال عهده بالحياة، وحال لونه وعلق بالطنف دون حراك، وقد تغطت ظهوره بالتراب الأبيض، أمر بفتح النوافذ على مصاريحها في كل مكان، إذ لم يفتحها أحد منذ موت جلافيرا بتروفنا. وقد بقي كل شيء على ما كان عليه تمامًا في المنزل، ففي حجرة الاستقبال، أعادت الأرائك الصغيرة البيض وقوائمها الرفيعة وأغطيته الرمادية اللامعة، وكلها قد بُليت وتجددت، أعادت إلى الأذهان بوضوح عهد كاترين.

وفي تلك الحجرة أيضًا كان يقوم المقعد المشهور ذو المساند، الخاص بصاحبة البيت المتوفاة، وهو مقعد ذو ظهر مرتفع مستقيم، وفيه اعتادت حتى في شيخوختها أن تجلس دائمًا منتصبه الظهر. وقد علقت على الجدار صورة قديمة لجد فيدور الأكبر أندريه لافريتسكي، ومن

العسير أن يتبين الناظر إلى هذه الصورة ملامح وجهه الأسمر الشاحب من الأرضية المشدوخة المسودة، وأطلت عيناه الصغيرتان باكتئاب من تحت أجفان ثقيلة منتفخة بادية للعيان، وشعره الأسود الذي عطل من المساحيق، وقف جافاً منتصباً كشعر الفرشاة، فوق جبهته الثقيلة المتغضنة، ومن ركن في الصورة تدلى إكليل قاتم من نبات دم المسيح^(١)، وألمح أنطون قائلاً:

«لقد تلطفت جلافيرا بتروفنا وجدلته بنفسها».

وفي حجرة النوم كان يوجد سرير ضيق ذو سجف من قماش مخطط متناه في القدم، ولكنه من نوع جيد. وعلى الفراش أُلقيت كومة من الحشايا الباهتة ومضربة رقيقة، وفوق الوسادة المستطيلة عُلقت صورة تقديم العذراء المباركة في الهيكل، وهي الصورة نفسها التي قبلتها السيدة العجوز للمرة الأخيرة بشفتين دب فيهما البرود وهي تسلم الروح وحيدة مهملة. وبجانب النافذة كان يقوم نضد للزينة مُطَّعَم بأنواع مختلفة من الخشب، ومُزَيَّن بلوحات من النحاس الأحمر، ويحمل مرآة مستديرة في إطار، وقد حال لونه الذهبي إلى أسود، وعلى امتداد حجرة النوم كان المحراب (المصلى)، وهو حجرة صغيرة عارية الجدران، وفي الركن يقوم صوان ثقيل لحفظ الصور المقدسة، وعلى أرض الحجرة قطعة من البساط تعرت خيوطها، وغطتها قطرات من الشمع المتساقطة من الشموع، وعلى هذه كانت تسجد جلافيرا بتروفنا وهي تصلي.

(١) نبات دائم الزهر.

خرج أنطون مع خادم لافريتسكي ليفتح أبواب حظيرة الجياد وبيت العرب. وظهرت مكانه امرأة عجوز تكاد تدانيه عمراً تقريباً، غطت شعرها بشملة انسدت حتى حاجبيها، وكان رأسها يهتز وبدت عيناها مظلمتين، ولكن كانتا تحملان بريقاً من طاعة متحمسة معروفة عنهما، كامنة فيهما كالنار في الزند، وفي الوقت نفسه فهي تنطوي على حزن مفعم بالاحترام، حافل بالتوقير. قبّلت يد لافريتسكي وبقيت في مكانها قرب الباب في انتظار أوامره، في حين أنه لم يتمكن من أن يتذكر ماذا كان اسمها، أو ما إذا كان قد رآها من قبل، ثم ظهر أن اسمها أبراكسيا. فإنه منذ أربعين سنة خلت حذفت جلافيرا بتروفا اسمها من قائمة أسماء الخدم الذين عاشوا في البيت، وأمرتها أن تعود خادماً للطيور الداجنة. كانت نادراً ما تتكلم، وتبدو نصف بلهاء، وعليها سمة الذلة والعبودية، وبالإضافة إلى هذا الثنائي العجوز وثلاثة أطفال متفخي البطون صغار يرتدون أقمصاً طويلة، هم أحفاد أنطون، بالإضافة إلى هؤلاء، كان يعيش في البيت الكبير الخاص بسيد العزبة فلاح أقطع لا يؤدي ضرائب^(١). كان يصيح كديك أسود، ولم يكن يصلح لشيء، والمخلوق الذي زاد نفعاً عن الأقطع، قليلاً جداً، كان الكلب العجوز الواهن الذي أطلق نباحه محيياً مقدم لافريتسكي، فقد ظل عشرة أعوام كاملة مصفداً في أغلال ثقيلة أمرت جلافيرا بتروفا بشرائها، وكانت هذه الأغلال حملاً ثقيلاً ناء تحت ثقله، فلم يعد قادراً على الحركة.

(١) فلاح لم يحصل على المنحة المعتادة من الأرض من المجتمع، ولم يكن خاضعاً للضرائب كالآخرين.

وبعد أن فحص لافريتسكي المنزل خرج إلى الحديقة، وسر بها كل السرور، فقد كانت مغطاة بالعشب المدرج وتحفل بسن الأسد وشجيرات عنب الثعلب وتوت العليق، ولكن بها ظل ظليل وعدد من أشجار الزيزفون التي تنمو هناك، ذات قوام ضخمة خارق للعادة وأغصان منسقة على غير المألوف، فقد غرست متقاربة جدًا بعضها من بعض، ويبدو أن مائة سنة من الزمان قد مضت، منذ أن شذبت لآخر مرة، وفي أقصى الحديقة كانت توجد بحيرة صافية أحاطتها حاشية من الحلفاء العالية ذات لون ضارب إلى الحمرة، وسرعان ما تختفي آثار حياة إنسانية عفا عليها الزمن، فلم يقفر بعد المانورهاوس الذي كانت تسكنه جلافيرا، ولكن كان يبدو أنه غرق في هذا النوم الهادئ الذي يستسلم له كل كائن على الأرض، عندما يكون بمنجاة من التبرم بالحياة والملل منها.

وطاف لافريتسكي أيضًا بأرجاء القرية، نظرت إليه النساء من مداخل أكواخهن وقد حنت كل منهن خدها على راحة يدها، وانحنى الرجال من بعيد، وجرى الأطفال مختفين عن الأنظار، ونبحت الكلاب وهي قابضة في أماكنها، هادئة مستريحة، وفي نهاية المطاف شعر بالجوع، ولكنه لم يتوقع وصول طاهيه والخدم الآخرين قبل المساء، والعربة التي ستحمل إليه الأطعمة من لافريكي لما تصل بعد، وكان ضروريًا أن يلتجئ إلى أنطون، وسرعان ما دبر الرجل العجوز شؤون، فأمسك بدجاجة عتيقة وذبحها ونزع ريشها، واستخرجت براكسيا أحشاءها وغسلتها ببطء ودعكتها، كما لو كانت قطعة من البياضات في الغسيل، قبل أن تضعها

في الكفت^(١). وعندما تم إعدادها في آخر الأمر، أعد أنطون المائدة، فوضع بجانب الصفحة مملحة فضية ثلاثية الأعين سودها الزمن، وقنينة من الزجاج الصخري في رقبته الضيقة صمام زجاجي مستدير. وحينئذ أعلن، وبنغمة غنائية، إلى لافريتسكي، أن العشاء قد أُعد وأخذ مكانه خلف مقعد سيده، وقد لف مشوشًا (فوطه سفرة) حول يده اليمنى، وأحاطه نسيم من الماضي كعبير أشجار السرو العبق.

تذوق لافريتسكي الحساء، ثم أخرج الدجاجة منه، كان الجلد مغطى كله بحراقات مستديرة، وقد امتد في كل ساق منها عصب سميك، وكان لحمها صلبًا كالخشب، ولها نكهة تشبه الرائحة المنتشرة في المغسل، وبعد العشاء قال لافريتسكي إنه سوف يشرب الشاي إذا... وقاطعه الرجل العجوز قائلاً: «سوف أحضره في دقيقة واحدة» وقد بر بوعده، فقد وجدوا قبصات قليلة من الشاي ملفوفة في قصاصة ورق حمراء، كما عثروا على «صناوور»^(٢) صغير، ولكنه سريع وصاحب جدًا، وبعض قطع صغيرة جدًا من السكر بدت وكأنها قد ذابت.

شرب لافريتسكي الشاي من قرح كبير، وكان من فجر طفولته يذكر هذا القرح الذي صورت عليه أوراق اللعب، ولم يكن يسمح سوى للزائرين باحتساء الشاي من هذا القرح، وهو الآن يشرب منه كالزائر.

وقرب المساء جاء الخدم. لم يرغب لافريتسكي في أن ينام في فراش عمته، ولذا فقد كلف الخدم بإعداد فراش له في حجرة الطعام.

(١) الطاجن (كلمة مجمعية).

(٢) يقابل Urn في الإنجليزية، وهو وعاء كبير لغلي الشاي أو القهوة.

وبعد أن أطفأ الشمعة، رقد طويلاً ينظر حوالبه والأفكار القائمة تملأ رأسه.. خبر الشعور الذي يخامر كل شخص قدر له أن يقضي ليلة، للمرة الأولى في حياته، في حجرة طويلة مهجورة، فتوهم أن الظلام الذي أطبق عليه من كل جانب لن يستطيع أن يعود نفسه على النزول الجديد، فإن جدران المنزل نفسها كانت تعجب له، وفي النهاية تنهد وسحب الغطاء جيداً عليه وحاول النوم.

وظل أنطون واقفاً على ساقيه طويلاً بعد أن انصرف الجميع إلى فراشهم، وتحدث هامساً لبعض الوقت إلى أبراكسيا، وهو يصعد الزفرات بصوت خفيض في فترات متقطعة، ورسم إشارة الصليب ثلاث مرات، فما توقع الخدم العجائز أبداً أن يقيم سيدهم بين ظهرانيهم في فاسيليفسكوي وهو الذي يملك ضيعة جميلة، يقوم بها مانورهاوس كامل المعدات قريباً منها.

لم يكونوا ليستريبيوا في حقيقة الواقع من أن لافريكي كانت كريهة ينفر منها صاحبها، فقد أثارت في عقله ذكريات مؤلمة.

وبعد أن همس كل منهما في أذن صاحبه بما فيه الكفاية، أخذ أنطون عصا وقرع بها لوح حارس الليل الذي ظل معلقاً زمناً طويلاً صامتاً بجوار مخزن المحصولات الزراعية، ثم استلقى في الفناء في العراء، دون أن يحمل نفسه عناء الحصول على غطاء ما لرأسه البيضاء. كانت ليلة مايو هادئة ساكنة ومهدئة، فاستسلم الرجل العجوز للنعاس وراح في نوم عميق.

الفصل العشرون

وفي اليوم التالي نهض لافريتسكي في ساعة مبكرة نوعاً ما، وتحدث مع عمدة القرية^(١)، وزار ساحة البيدر، وأمر بفك إصر القيد عن الكلب الذي لم ينبح إلا قليلاً، ولكنه لم يخرج من بيت الكلاب. وحينئذ عاد إلى البيت حيث استسلم لأحلام وهو اجس هادئة، لم يصح منها طول يومه. قال لنفسه غير مرة: «هأنذا إذن في قاع النهر تماماً»^(٢).

جلس بجوار النافذة دون حراك، وبدأ أنه يصغي إلى جريان الحياة الهادئة التي تحوطه، وأصاخ السمع إلى الأصوات النادرة التي تنبعث من خلوة القرية. وخلف حشائش القريص كان صوت يغني، صوت رفيع خافت، وبعوضة توقع لحناً على مزمارها يصاحب الغناء. توقف الصوت، ولكن البعوضة استمرت تنفخ في مزمارها، ومن خلال طنين الذباب الرتيب الممل المزعج كان يسمع طنين نحلة كبيرة من النحل الطنان التي دأبت على ضرب رأسها في سقف الحجرة، وصاح ديك في

(١) Starosta رئيس القرية.

(٢) عبارة شعبية ذائعة تعبر عن حياة هادئة كأعماق النهر.

الشارع وهو يمتط النغمات الأخيرة من صياحه بصوت أبج، وقرقت عجلات عربة نقل تمر، وصرت بوابة القرية.

صاح صوت امرأة على حين غرة: «ماذا؟».

وقال أنطون لفتاة صغيرة تبلغ من العمر عامين، كان يحملها بين ذراعيه: «آه أيتها السيدة الصغيرة»، واستمر صوت المرأة نفسها يصيح: «أحضر القواص هنا» ثم أطبق على المكان صمت كصمت الموتى.

لا حركة تُحس ولا صوت يُسمع، والريح لا تحرك أوراق الشجر، وعصافير الجنة تمشي على الأرض بسرعة ورقة الواحدة إثر الأخرى دون صراخ، وكان طيرانها الصامت يترك انطباعات حزينة في قلب من يشاهدها «هأنذا، إذن في أعماق البحر تمامًا» فكر لافريتسكي مرة أخرى «وهنا الحياة دائمًا بطيئة وهادئة، ومن وقع في حماها فقد كُتب عليه أن يسلم نفسه للقدر. لا فائدة تُرجى هنا، من أن يتحرك الإنسان، ولا يوجد سبب لأن يضطرب أو يغتم. والقمين بالنجاح في هذا المضممار هو الذي يتلمس طريقه قدمًا صابرًا كما يفعل الفلاح وهو يتلمس خطوط الحقل بمحراثه. فيا لها من قوة تكمن في كل ما حوله! ويا لها من صحة موفورة أودعت في صميم هذا السكون الهادئ! وهناك في أسفل النافذة يتسلق الأرقطيون (أوراعي الحمام وهو نبات متسلق شائك) ذو الأوراق الكبيرة من بين العشب الكثيف. وفوق النافذة يمد اللوف^(١) ساقه الفضفي، وإلى أعلى تتدلى منه دموع العذراء^(٢) من غصنها الوردى، وعلى بُعد منها

(١) نباتات متسلقة.

(٢) نوع من النباتات المتسلقة.

في الحقول يشرق نبات الجلودار (نبات كالشعير) وقد ظهرت سنابل الشوفان، وما من ورقة على شجرة، أو نصل عشب على ساقه إلا وقد برز ممتدًا إلى أقصى غايته «لقد ضاعت خير سنوات عمري في حب امرأة».

استمر لافريتسكي يفكر: «حسنًا! إذن، فلندع الركود يعيدني إلى رشدي ويجعلني أهدئ من غلوائي، ولأدعه يعلمني ويغرس في قلبي القدرة على العمل كالآخرين على غير عجل».

ثم شرع يصغي مرة أخرى إلى الصمت ودون أن يتوقع أي شيء، ومع ذلك وفي الوقت نفسه كما لو كان ينتظر، ودون توقف شيئًا ما، لفه الهدوء من كل جانب، ومالت الشمس إلى المغيب في سماء زرقاء هادئة سبحت الغيوم في صفحتها بسلام واطمئنان، وكأنها تدرك لماذا وإلى أين تسبح. وفي الأركان الأخرى من العالم، وفي تلك اللحظة نفسها تضطرم الحياة وهي تدفع عجلتها في صخب. أما هنا فإن الحياة نفسها تنساب صامتة، كما ينساب الماء فوق عشب المراعي. كان الوقت متأخرًا في المساء قبل أن يتمكن لافريتسكي من أن ينتزع نفسه بعيدًا من تأملات هذه الحياة التي تنبثق بهدوء وتجري بهدوء، فذاب الأسى من أجل الماضي في عقله كما يذوب الثلج في الربيع، ولكن، ومن الغرابة أن نقول إن حب البيت لم يكن له تأثير قوي أو عميق من قبل مثلما كان في ذلك الوقت.

الفصل الحادي والعشرون

وفي مدى خمسة عشر يومًا نجح لافريتسكي في أن يقر النظام في بيت جلافيرا بتروفنا الصغير، وفي أن يشذب الفناء والحديقة، وصار الإسطل حافلًا بالحياد. وأحضروا إليه الأثاث المريح من لافريكي، وزودته المدينة بالنبيذ والكتب والصحف اليومية. وبالاختصار، فإن لافريتسكي قد زود نفسه بكل ما يحتاج إليه، وبدأ يعيش عيشة لم تكن كعيشة ملاك الأراضي العاديين تمامًا، كما لم تكن تشبه عيشة الناسك المنتظم، ومرت أيامه على نسق واحد مضطرد، ولكنها لم تكن ثقيلة الوقع عليه، رغم أن بيته لم يكن قبلة الزوار، فقد ملأ وقته بتدبير شؤون ضيعته باهتمام ومثابرة. وكان يخرج ممنطياً صهوة جواده في أرباض بلدته، كما كان يقضي وقتاً، وإن كان قصيراً، في القراءة، إذ كان يفضل الإصغاء إلى ما يقص عليه أنطون من قصص.

وكان لافريتسكي يجلس عادة بجوار النافذة يدخل غليونه، ويرشف قدحاً من الشاي البارد، ويقف أنطون بالباب، وقد صلب يديه خلف ظهره، ثم بدأ يروي قصصاً رصيناً عن الماضي الجميل، تلك الأيام

الأسطورية عندما كان الجاودار والشوفان يباعان، لا بالمكيال، ولكن في أجولة كبيرة مقابل روبلين أو ثلاثة روبلات لكل جوال، وعندما كانت، على جوانب الطريق كلها حتى المدينة، تمتد غابات لا يمكن اختراقها، وسهوب منبسطة مترامية الأطراف، بكر لم تمسسها يد بشر.

دمدم الرجل الذي يحمل فوق رأسه ثمانين عامًا قد مرت به من قبل: «ولكن الآن فإن كل شيء قد اجتث من جذوره، وحُرت الأرض رأسًا على عقب، حتى لم يعد أحد قادرًا على قيادة مركبته في أي جزء منها».

ثم يتحدث أنطون ويسهب في الحديث عن سيدته الراحلة جلافيرا بتروفتنا، وهو يذكر كم كانت حكيمة مقتصدة، وكيف أن سيدًا معروفًا حاول أن يظفر بقلبها، في فترة من الزمن، وقد طفق يواليتها بزياراته المتصلة، وكيف أنها كانت تتلطف معه، فتضع تكريمًا له، قبعة أيام الأعياد على رأسها، وقد زينتها شرائط الدمقس وترتدي ثوبها الأصفر المصنوع من قماش الشرق الأصيل، من أجله، ولكن كيف أنها بعد وقت قصير، قد غضبت على جارها، ذلك السيد، بسبب ما كان يلقي عليها من أسئلة طائشة: «أظن يا سيدتي، أنك دون شك تملكين مالا وافراً رهن أمرك؟».

فأمرت خدمها ألا يدعوه يدخل دارها مرة أخرى. وكيف أنها أمرت حينئذ أنه بعد موتها يجب أن يسلم كل شيء حتى أتفهاها، إلى لافريتسكي. وفي الواقع، فإن لافريتسكي وجد كل ممتلكات عمته سليمة لم تُمس، حتى قبعة الأعياد ذات شرائط الدمقس والثوب الأصفر المصنوع من قماش الشرق الأصيل.

أما الأوراق والوثائق القديمة التي اعتمد عليها لافريتشسكي، فلم يجد منها شيئاً عدا مجلد واحد قد أدخل عليه جده، بطرس أندريه، إضافات متعددة، ففي موضع قد تقرأ، احتفال بمدينة سانت بطرسبرج بمعاهدة السلم التي عقدها سمو الأمير ألكساندروفتش برزوروفسكي مع الإمبراطورية التركية. وفي موضع آخر، وصفة طبية من مغليات لأمراض الصدر، ومعها الملاحظة، ولقد حصلت الجنرالة براسكوفيا فيدوروفنا سالتيكوف على هذه الوصفة من أسقف لايف بيننج تريتي فيدور أفسينيتيفتش، وفي بعض الأوقات نعث على فقرة من معلومات سياسية كما يأتي:

«وبخصوص النمرور الفرنسية، فيسود شيء من الصمت» وبقرها في صحيفة موسكو جازيت نُشر نعي اللواء ميخائيل بتروفتش كوليتشيف، أليس هو ابن بطرس فاسيلفتش كولياشيف؟

ووجد لافريتشسكي أيضاً بعض التقاويم القديمة وكتب الأحلام، وأحد مؤلفات مسيو أمبورك الصوفي. ولقد أثارت الرموز والشعارات التي ران عليها النسيان طويلاً، ولكنها معروفة ومألوفة، كثيراً من الذكريات في ذهن لافريتشسكي. وفي المخبأ الأقصى لأحد أدراج نضد الزينة الخاص بجلافيرا، وجد لافريتشسكي حزمة صغيرة مختومة بالشمع الأسود ومربوطة بشريط ضيق أسود وبداخل الحزمة صورتان شخصيتان موضوعتان وجهاً لوجه، إحداها مرسومة بالطباشير الملون (باستل) وهي لأبيه في صباه، وقد تدلت خصلات شعره على جبينه وعينان مستطيلتان واهتان وفم نصف مفتوح، والأخرى وتكاد تكون

منطمسة، لامرأة في ثياب بيض وفي يدها وردة بيضاء، هي أمه. أما عن جلافيरा، فلم تكن تسمح مطلقاً برسم صورة شخصية لها.

وكان أنطون يقول للافريتسكي: «وعلى الرغم من أنني لم أعش حيثنذ في المنزل، ومع ذلك فيمكنني أن أتذكر جدك العظيم، أندريه أفاناسيفتش، فقد كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما مات. وذات يوم قابلته في الحديقة، وحيثنذ، راحت تصطك ركبتاي في صميمها، ولكنه لم يفعل بي شيئاً، وكل ما هنالك، أنه أرسلني إلى حجرة نومه لآتيه بمنديل جيبه. لقد كان سيّداً حقاً، الجميع يعترفون بذلك. ولم يكن يعترف بأن مخلوقاً أيّاً كان خيراً منه. فلا بأس من أن أخبرك بأن جدك العظيم كان يحمل تميمة، كان راهب من مونت آثوث قد أعطاه إياها، وإن ذلك الراهب قال له: «إني أعطيك هذه يا أوبويار، لقاء كريم ضيافتك، البسها ولا تخش قاضياً». حسنًا، فإنه لحق كما هو معروف جيداً أن الأيام كانت تختلف حيثنذ، إذ كان السيد يفعل كل ما يريد، فإذا ما وسوس الشيطان لأحد من الخاصة بمعارضته، فإنه لا يفعل سوى أن ينظر إليه ثم يقول: «أنت تسبح في ماء ضحل»^(١)، كانت هذه عبارة محبة لديه أثيرة عنده. وقد عاش جدك صاحب الذكرى المباركة، في حجرات صغيرة من الخشب، ولكن ما أعظم الثروة التي خلفها بعده! يا لها من فضة، ويا لها من مدخرات ومن جميع الأصناف، كانت تحفل بها مخازن المؤمن، كان مدبراً حقيقياً، وتلك القينة التي راقتك وسرك أن تمتدحها، كانت له، اعتاد أن يحتسي البراندي منها، ولكن انظر وتأمل،

(١) جزء من مثل روسي.

فإن جدك بطرس أندريتش قد زود نفسه بدار مشيدة بالحجر، ولكنه لم يدخر متاعاً، فقد سارت الأمور معه على غير ما يهوى، وعاش عيشة أسوأ بكثير من عيشة أبيه، ولم يحصل على ما يُرضي رغبات نفسه، ولكنه أتى على كل ماله، والآن لا يوجد شيء نذكره به؛ فلم يترك لنا من بعده أكثر من ملعقة من فضة، ولكل ما تركه لنا من بعده نزجي الشكر إلى جلافيرا بتروفنا على ما بذلت من عناية».

وقاطعه لافريتسكي قائلاً: «ولكن هل حقيقي أن الناس كانوا يطلقون عليها الساحرة العجوز؟».

أجاب أنطون، وعليه سمة عدم الرضى: «ولكن، إذن من أطلق عليها هذا الاسم؟».

وهكذا خاطر الرجل العجوز وسأل يوماً ما: «ولكن ماذا تعمل سيدتنا الآن يا أبي؟ وأين راق لها أن تتخذ مقامها؟».

أجاب لافريتسكي بجهد: «إني منفصل عن زوجتي وأرجوك ألا تسألني عنها».

وأجاب الرجل العجوز حزينا: «سمعا وطاعة».

وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع ركب لافريتسكي إلى مدينة آو، وقضى المساء في منزل آل كاليتين، وهناك لقي ليم وأحبه كثيراً، ومع أن لافريتسكي -وشكراً لوالده- لم يكن يستطيع العزف على أي آلة موسيقية، فقد هوى الموسيقى بكل عواطفه، الموسيقى الكلاسيكية أو الموسيقى الجادة، بتعبير آخر: لم يكن بانشين في دار آل كاليتين

في ذلك المساء؛ لأن الحاكم كان قد أرسله إلى مكان ما في الريف. وعزفت ليزا من غير أن يصاحبها أحد، وأجادت العزف وأتقنته. ونشط ليم وانتعش، فطوى صحيفة منشورة من الورق وقاد الموسيقى. نظرت إليه ماريا ديمتريفنا ضاحكة لحظة، ثم ذهبت إلى فراشها، فإن بتهوفن، في نظرها، كان مثيرًا لأعصابها.

وفي منتصف الليل سحب لافريتسكي ليم إلى منزله، حيث بقي معه حتى الثالثة صباحًا. تحدث ليم كثيرًا وطويلاً، وكان ينحني أقل مما اعتاد أن يفعل، وتفتحت عيناه واسعتين براقيتين، وظل شعره نافراً عن جبهته، فقد طال به العهد منذ أن حظي بمن يشاركه آماله وآلامه، وكان واضحاً أن لافريتسكي يرتاح له ويهتم به. وكان حذراً متيقظاً إذا ما ألقى عليه سؤالاً، فمست هذه المعاملة شغاف قلب الرجل المسن الذي أنهى حديثه بعرض موسيقاه على ضيفه، وعزف له وغنى أيضاً بصوته المضني بعض فقرات من أعماله، وكان من بين المعزوفات الأخرى التي أداها أغنية روائية لشاركان كان قد صاغها ألقاناً، تلك هي مقطوعة فريدولين، وامتدح لافريتسكي هذه الألحان بصوت عال جهير، واستعاده في مواضع كثيرة منها. وعند انصرافه دعاه لقضاء بعض الأيام معه، وسرعان ما وافق ليم الذي كان يصحبه إلى الباب ولبي الدعوة وهو يضغط يده بإخلاص. ولكن ما إن وجد نفسه وحيداً في الهواء المنعش البليل يظله فجر وليد لفوره، حتى تلفت حوله وأغمض عينيه نصف إغماض ومال على نفسه، وزحف عائداً كمذنب إلى مخدعه وأنَّ قائلاً بالألمانية: «لا بد وأن أكون قد فقدت صوابي» وهو يرقد في فراشه القصير الصلب.

ولقد حاول أن يتظاهر بالمرض عندما جاءتة عربية لافريتسكي بعد أيام قليلة. ولكن لافريتسكي صعد إليه في حجرته وأغراه على الذهاب معه، وكانت الحقيقة الواقعة أن لافريتسكي قد أمر بإرسال معزف (بيانو) إلى المنزل الريفي عمداً من أجله، كانت أقوى من أي حجة أخرى لحمله على الذهاب. وذهب الرفيقان إلى دار آل كاليتين معاً وأمضيا الأمسية هناك، ولكنها لم تكن أمسية سارة كتلك التي أمضياها في المناسبة السابقة.

كان بانشين حاضراً، وقد تحدث حديثاً مستفيضاً عن رحلته، وهو يقلد الملاك العديدين الذين قد قابلهم، في أسلوب فاكهي مسل، وهو يحاكي محادثاتهم هازلاً.

ضحك لافريتسكي ولكن أبى ليم أن يغادر ركنه حيث بقي صامتاً، وهو يحرك أطرافه كالعنكب في هدوء، وقد بدا كئيباً جهماً، وبقي على هذه الحال. ولم يعد إليه نشاطه وانتعاشه أبداً، إلا بعد أن نهض مستئذناً في الانصراف، وحتى بعد أن أخذ مكانه في العربة، ظهر الشيخ العجوز في بادئ الأمر أنه ما زال زاهداً في الصحبة والصحاب، غارقاً في أفكاره، ولكن الهواء الهادئ الدافئ والنسيم العليل، والظلال المعتمدة، وأريج العشب، وبراعم البتولا، والضوء الآمن في سماء رصعتها النجوم واختفى منها القمر، وإيقاع حوافر الخيل وزنخرتها (النفخ بالمنخر) ومفاتن الرحلة المختلطة والربيع والليل، ولجت كلها روح الألمانى المسكين، وبدأ يتحدث مع لافريتسكي من تلقاء نفسه.

الفصل الثاني والعشرون

بدأ يتحدث عن الموسيقى، ثم عن ليزا، ثم عن الموسيقى ثانية. وبدأ أنه ينطق كلماته ببطء أكثر عندما تحدث عن ليزا. وحول لافريتسكي مجرى الحديث إلى موضوع مؤلفاته، وعرض نصف مازح، أن يكتب ليرتو^(١) من أجله.

أجاب ليم: «هم... ليرتو.. لا، إن ذلك ليس في مقدوري، فلم يعد لدي النشاط الحماسي، وشطحات الخيال، وهي ما لا غنى عنه في الأوبرا، ولقد زایلتنني قوتي، ولكن إذا ما كان بي بقية من القدرة على عمل شيء، فأني قانع برومانسي^(٢)، وبالطبع فأني أفضل الكلمات المنمقة ذات المعنى الشعري.

ثم صمت وظل وقتاً طويلاً دون حراك، وعينه شاخصتان إلى السماء.

(١) كلمات الأوبرا أو أي عمل موسيقي طويل.

(٢) قصة ذات وقائع خارقة للعادة تقع في الحياة.

قال في النهاية: «وعلى سبيل المثال، شيئًا بهذا الأسلوب: أيتها النجوم، النجوم الطاهرة».

تحول لافريتسكي قليلًا، وبدأ يراقبه عن كثب. ردد ليم ثانية:

- أيتها النجوم، النجوم الطاهرة... أنت تطلين على الأبرار والأشرار سواء بسواء، ولكن أنقياء القلب وحدهم -أو شيء ما من هذا القبيل - هل تفهمني -أو بتعبير آخر، لا -أحبك، وعلى أي حال فلست بشاعر. فيم أفكر؟ ولكن شيء ما من هذا القبيل، شيء رفيع علوي.

دفع ليم قبعته عن جبينه إلى الخلف، فبدأ وجهه أكثر شحوبًا وشبابًا في ضوء السحر الواهن في الليل الصحو.

والى حديثه وهو يخفض صوته تدريجًا: «وأنت تعرفين أيضًا.. أنت تعرفين أن هؤلاء الذين يحبون، هم الذين يعرفون كيف يحبون، لأنك طاهرة، وأنت فقط تقدرين على تقديم العزاء، لا، كل الذي قلت ليس الذي أعني؛ فلست شاعرًا، ولكن شيء ما من هذا القبيل».

قال لافريتسكي معقبًا: «وإني لآسف لأنني لست شاعرًا أيضًا».

استمر ليم في حديثه وهو يغوص في ركن في العربة: «إنها أحلام فارغة»، ثم أغمض عينيه كما لو كان قد صمم على الاستسلام للنعاس. مرت عدة لحظات ولا زال لافريتسكي مصغيًا، همس الشيخ قائلاً: «أيتها النجوم، النجوم الطاهرة... الحب».

ردد لافريتسكي قائلاً لنفسه: «الحب...» ثم احتوته أحلام اليقظة وبكى قلبه بين أضلاعه. قال بصوت مرتفع بعد برهة من الوقت: «لقد

صغت عمل فريدولين، ألحانًا عذبة ساحرة، يا خريستوف فيدروفتش، ولكن ما رأيك؟ ألم يصبح فريدولين هذا، بعد أن مثل في حضرة الكونتيسة وقد جاء به زوجها إلى مجلسها، ألم يصبح لفوره عاشقًا لها... آيه!».

أجاب ليم: «أنت تظن ذلك؛ لأنه من المحتمل جدًا، فالتجربة...». ثم توقف دون أن يكمل حديثه، وحول وجهه عن لافريتسكي في اضطراب.

أطلق لافريتسكي ضحكة مكتومة، ثم حوّل وجهه بدوره بعيدًا عن رفيقه، وبدأ ينظر إلى الطريق. كانت النجوم قد بدأت تميل إلى الشحوب، والسماء تتحول إلى اللون الأشهب عندما وصلت العربة أمام درجات المنزل الصغير في فاسيليفسكوي.

أوصل لافريتسكي ضيفه إلى حجراته المعينة ثم ذهب إلى مكتبه وجلس أمام النافذة. وكان البلبل يغني في الحديقة أغنيته الأخيرة قبل ميلاد الفجر الجديد. وتذكر لافريتسكي أن في دار آل كاليتين أيضًا قد صدح بلبل في الحديقة، كما ذكر حركة عيني ليزا الهادئة، عندما ولت وجهها شطر النافذة الزجاجية وهو يوقع أنغامه الأولى، وبدأ يفكر فيها فداخل قلبه الهدوء.

وقال بصوت نصف هامس: «أيتها العذراء الطاهرة»، وأردف مبتسمًا: «أيتها النجوم الطاهرة»، ثم رقد هادئًا لينام.

ولكن ليم جلس وقتًا طويلًا على فراشه، وقد وضع صحيفة

موسيقية على ركبتيه، وبدا كما لو كان نغم عذب، ولكن لما يولد بعد، على وشك الهبوط بوحى عليه. فكان قد خبر القلق المحموم وأحس النصب والمتعة لقرب هبوط الوحي، ولكنه كان يخدعه دائماً.

همس قائلاً في النهاية: «لست شاعراً موسيقياً»، ثم غاص رأسه المضني ثقيلًا فوق الوسادة، وفي صباح اليوم التالي شرب لافريتسكي وضيفه الشاي في الحديقة تحت شجرة زيزفون عجوز.

قال له لافريتسكي، بين ما قال من الأشياء الأخرى: «يا مايسترو، سرعان ما ستجد لزماً عليك أن تؤلف أغنية زفاف مفرحة».

- وبأي مناسبة؟

- لماذا؟ بمناسبة زواج بانشين. ألم تلحظ أي اهتمام كان يوليها بالأمس؟ إن الأمور تجري يسرة سهلة معهما، وهذا واضح.

صاح ليم قائلاً: إن ذلك لن يتم.

- لماذا؟

وأضاف قائلاً بعد أن توقف هنيهة: «لأنه مستحيل، إن كل شيء جائز في هذا العالم، وعلى الخصوص في بلادك تلك، في روسيا».

- لتخرج روسيا الآن من موضوع الحديث، ولكن ما وجه الاعتراض من جانبك على هذا الزواج؟

- كل شيء يدعو إلى الاعتراض. كل شيء. إن ليزافيتا ميخائيلوفنا رزينة صادقة النية، حسنة الطوية، حباها الله بعواطف سامية. ولكن هو... إنه، ولنصفه بكلمة واحدة: ولوع.

- ولكن أليست تهواه؟

نهض ليم من مقعده، وقال:

- لا، ليست تهواه. وبتعبير آخر فهي نقية القلب، وهي نفسها لا تعرف ماذا تعني كلمات «أن يحب». ومدام فون كاليتين تقول لها إنه شاب ممتاز، وهي تطيع مدام فون كاليتين؛ لأنها ما زالت طفلة، على الرغم من أنها الآن في التاسعة عشرة من عمرها، وهي تصلي كل صباح، وتصلي كل مساء، وهذا جدير بالإعجاب، ولكنها لا تحبه، فهي لا تحب سوى ما هو نبيل، ولكنه ليس نبيلًا، أو بتعبير آخر، فإن روحه ليست نبيلة.

نطق ليم هذا الكلام بطلاقة وفصاحة، وقد امتلأ حيوية وأفعم نشاطًا، وهو يذرع المكان ذهابًا وجيئة بخطوات قصيرة أمام مائدة الشاي، وعيناه تسبحان على أرض الحجرة.

صاح لافريتسكي فجأة: «يا أعز مايسترو.. أظن أنك نفسك تهيم بابتنة عمي حبًا».

فتوقف ليم عن الكلام فجأة.

ثم بدأ الحديث قائلاً بصوت متهدج: «أرجوك ألا تمزح معي بهذه الطريقة، فلست مختل العقل، فأنا أتطلع إلى القبر المظلم، ولا أتطلع إلى مستقبل وردي».

أحس لافريتسكي بالأسى من أجل الرجل الشيخ وسأله الصفح، وبعد الإفطار، عزف ليم أغنيته، وبعد الغداء وتحت إغراء لافريتسكي،

بدأ يتحدث ثانية عن ليزا، وأصغى لافريتسكي إليه باهتمام وحب استطلاع.

قال أخيراً: «ما قولك في هذا يا خرسنوف فيدورفيتش؟ يبدو أن كل شيء هنا منظم الآن، والحديقة في ازدهار كامل. فلماذا لا أدعوها للمجيء إلى هنا اليوم بصحبة أمها وعمتي العجوز».

- إيه؟ هل هذا يلائمك؟

أحنى ليم رأسه فوق طبق طعامه، وقال بصوت يكاد لا يسمع: «تدعوها!».

- ولكن لا داعي لدعوة بانشين.

فأجاب الرجل العجوز، وعلى فمه ابتسامة كابتسامة الطفل:

- لا، لا داعي لذلك.

وبعد يومين ذهب لافريتسكي إلى المدينة، وعرج على دار آل كاليتين.



الفصل الثالث والعشرون

وجدتهم جميعاً في البيت، ولكنه لم يخبرهم بخطته فور وصوله، فقد ود أن يتحدث إلى ليزا على انفراد أولاً، فواتته الفرصة عندما تركوه وحيداً معها في حجرة الاستقبال، وبدأ يتجاذبان أطراف الحديث. وكان من مألوف عاداتها ألا تخجل أبداً إذا ما تحدثت إلى أحد، وكانت في ذلك الوقت قد نجحت في أن تألفه وترتاح إليه.

أصغى إلى ما قالت له وردد على مسامعها، وهو يصغي إليها شارد الفكر كلمات ليم، واتفق معه فيما قال. فإنه قد يحدث أحياناً أن شخصين يعرف أحدهما الآخر من قبل، ولكنهما لا يرتبطان برباط قوي يصبحان صديقين أليفين بعد مرور لحظات قليلة فجأة، وسرعان ما يعبر الإحساس بهذه الألفة عن نفسه في نظراتهما، وفي ابتساماتهما الرقيقة الحنونة وفي حركاتهما نفسها. وهذا ما وقع الآن للافريتسكي وليزا.

- آه، ها أنت ذا على حقيقتك!

فكرت وهي تنظر إليه نظرات الود والصدقة.

- آه، ها أنت ذا على حقيقتك!

فكر أيضًا ولم يدهش كثيرًا حينئذ عندما أخبرته، وبقليل من التردد، أنها طالما ودت أن تفضي إليه بشيء ما، ولكنها كانت تخشى أن تضايقه. قال لها، وهو يقف ساكنًا أمامها: «لا تخشي شيئًا، وهاتِ ما عندك». رفعت ليزا عينيها الصافيتين إلى عينيه، وقالت: «أنت طيب جدًا» وفي الوقت نفسه فكرت، «نعم، هو طيب حقًا».

- آمل أن تغفر لي، فلم يكن يجدر بي أن أجترئ وأتحدث إليك عنه -ولكن استطعت - لماذا انفصلت عن زوجتك؟».

ارتجف لافريتسكي، ثم نظر إلى ليزا وجلس بجانبها، وبادرها قائلاً: «يا طفلي، إنني أضرع إليك ألا تلمسي ذلك الجرح، إن لمساتك رقيقة، ولكن... ولكن على الرغم من ذلك كله فسوف تؤلمني».

استمرت ليزا قائلة، وكأنها لم تسمعه: «إنني أعرف أنها مذنبه أمامك، ولا أريد أن أبرئها. ولكن كيف يمكن أن يفترقا من زوجهما الله؟ (من زوجة الله لا يفرقه إنسان)».

فقال لافريتسكي في شيء من البرود: «إن معتقداتنا، لذلك السبب، لمتباينة إلى حد كبير يا ليزا ميخائيلوفتش».

- سوف لا نستطيع أن يفهم أحدهما الآخر.

شحب لون ليزا، وارتعش جسمها قليلاً من هامتها إلى أخصصها، ولكنها لم تصمت.

قالت في هدوء: «يجب أن تغفر، إذا كنت ترغب في أن يغفر الله لك».

فصاح لافريتسكي مستنكراً: «أغفر! يجب عليك أولاً أن تتعرفني على السيدة التي تدافعين عنها. فهل يعقل أن أغفر لتلك المرأة وأعود بها إلى بيتي، تلك المخلوقة الجوفاء الفاقدة القلب. ومن الذي أخبرك أنها تريد العودة إليّ؟ ولماذا؟ فهي راضية كل الرضى عن موقفها، ولكن لماذا نتحدث عنها؟ فإن اسمها يجب ألا يجيء على لسانك أبداً؛ فأنت نقية طاهرة، وفي وضع لا يسمح بأن تفهمي مثل هذه المخلوقة».

فقالت ليزا في جهد: «ولماذا نتحدث عنها بمثل هذا الحقد؟» وهنا بدأ ارتعاش يديها يبدو واضحاً «لقد تركتها بمحض اختيارك يا فيدور إيفانتش».

فانفجر لافريتسكي مجيباً وقد نفذ صبره: «أنت لا تعرفين إلى أي صنف من المخلوقات تنسب».

همست ليزا متسائلة، وقد أسبلت عينيها إلى أسفل: «إذن لماذا تزوجتها؟».

قفز لافريتسكي سريعاً من مقعده قائلاً: «لماذا تزوجتها؟ لقد كنت حدثاً لا خبرة ولا تجربة لي آنئذٍ.. لقد خدعت، لقد أغواني المظهر الجميل. لم أفهم النساء، بل لم أفهم أبداً. الله يهبك حياة زوجية أسعد حظاً... ولكن كوني على يقين مما أقول بأن من المستحيل أن تتأكدي من شيء».

فأجابت ليزا وقد بدأ صوتها يختلج: «أنا أيضًا قد لا يسعدني الحظ بالسعادة، ولكن حينئذ يجب أن أذعن خاضعة، لا يمكنني التعبير عن ذات نفسي، ولكنني أعني أن أقول إننا إذا لم ندعن...».

قبض لافريتسكي بيديه وضرب الأرض بقدمه.

فقالت ليزا في عجلة: «لا تغضب... أرجوك ألا تغضب».

وفي تلك اللحظة دخلت ماريا ديمتريفنا الحجرة، فوقفت ليزا وهمت بالانصراف، ولكن لافريتسكي ناداها على غير توقع منها: «قفي لحظة، فإنني أريد أن أرجوك وأمك أن تسديا إليّ معروفًا، ألا وهو أن تحضرا لزيارتي في بيتي الجديد، فقد حصلت على معزف (بيانو) وكما تعلمين أن ليم يقيم معي، وزهور الليلاك قد تفتحت. سوف تنشقان هواء الريف، وفي إمكانكما العودة في اليوم نفسه. هل توافقين؟».

نظرت ليزا إلى أمها التي سرعان ما تظاهرت بالمعاناة، ولكن لافريتسكي لم يعط مدام كاليتين فرصة أن تفتح فمها، فقد أخذ لتوه كلا يديها في يديه وقبلهما. أما ماريا ديمتريفنا التي كانت دائمًا تتجارب مع الوسائل الظافرة، وهي التي لم تكن منذ لحظة تتوقع أبدًا مثل هذه اللفتة المهدبة من «الدب» فقد تأثرت فنزلت عند رغبته. وبينما كانت تفكر في تعيين اليوم، صعد لافريتسكي إلى ليزا في الطابق العلوي، وما زال متأثرًا بعواطفه، وهمس في أذن ليزا جانبًا: «شكرًا، فأنت فتاة طيبة وأنا على خطأ» ثم غشيت الحمرة وجهها الشاحب الذي أشرق بابتسامة هادئة بهجة، كما ابتسمت عيناها أيضًا، وحتى تلك اللحظة كانت تخشى أن تكون قد أساءت إليه.

سألت ماريا ديمتريفنا مستفسرة: «بانشين يمكنه المجيء معنا، على ما أظن؟».

فأجاب لافريتسكي: «طبعًا. ولكن أليس من الأفضل لكلينا أن نحفظ بأنفسنا داخل دائرة الأسرة؟».

بدأت ماريا ديمتريفنا الحديث: «ولكني أظن...» وأضافت على كل حال: «حسنًا كما تهوى».

وقر العزم على ذهاب لينوتشكا وشورتشكا ورفضت مارفا تيموفينا الاشتراك في الرحلة.

قالت له: «إنه لمما يضجرني، يا عزيزي أن أحرك عظامي العجوز، ولا يوجد في بيتك على ظني مكان أقضي فيه الليلة، وزيادة على ما ذكرت، فلا يمكنني النوم إطلاقًا في فراش غريب، فليمرح هؤلاء الشباب كما يحلو لهم».

لم يحظ لافريتسكي بفرصة أخرى للتحدث مع ليزا على انفراد.. ولكنه ظل يتطلع إليها بأسلوب أعجبها وأدخل السرور على قلبها، وفي الوقت نفسه حيرها قليلًا. وشعرت بأسف عميق من أجله، وعندما انصرف استأذنها مودعًا بضغط حار على يدها، فسبحت في أحلام اليقظة حين وجدت نفسها وحيدة.



الفصل الرابع والعشرون

وعند دخول حجرة الاستقبال بعد عودته إلى البيت، قابل لافريتسكي رجلاً طويل القامة نحيل الجسم، ذا وجه متجعد، ولكن يترقق به ماء الحياة والنشاط، وخط الشيب فوديه الأشعثين، وله أنف طويل وعينان صغيرتان حمراوان.

كان ذلك الشخص الذي يرتدي معطفًا رثًا هو ميخائيليفتش، زميله في الجامعة، ولم يتعرف عليه لافريتسكي في أول الأمر، ولكنه عانقه عناقًا حارًا بمجرد ما أعلن له شخصيته، فلم يكن الصديقان قد التقيا منذ أيام موسكو الخوالي. وتلا هذا اللقاء صيحات باستفهامات، وعادت إلى الضوء ذكريات كانت قد اختفت عن الأنظار طويلاً، وبينما يدخل غليوفاً بعد آخر عجباً، ويجرع الشاي بشراهة، ويلوح بيديه الطويلتين في الهواء. قص ميخائيليفتش مغامراته، لم يكن فيها ما يدل على أنه أتى عملاً باهراً أو أحرز من النجاح في مشروعاته وأعماله الخاصة ما يفاخر به، ولكنه ظل يضحك ضحكاً أجش عصبياً متصلاً، وتبين أنه منذ ما

يقرب من شهر كان قد حصل على وظيفة في بيت محاسبة خاص لتاجر خمور غني^(١)، وكان هذا البيت يقع على بعد ثلاثمائة فيرست من بلدة آو. ولدى سماعه بعودة لافريتسكي من الخارج، فلقد اختمرت الفكرة في رأسه وجاء لرؤية صديقه القديم مرة أخرى. وكان يتحدث باهتزاز كعادته في أيام شبابه، وأصبح صاخبًا ومتحمسًا كعهدنا به في صباه.

وبدأ لافريتسكي يتحدث عن شؤونه الخاصة، ولكن ميخائيليفتش أوقفه متسرعًا وهو يتلعثم في حديثه: «لقد بلغت مسامعي يا أخي، لقد بلغت مسامعي.. من كان يتوقع هذا؟» ثم حول مجرى الحديث إلى مواضيع عامة.

قال له: «يجب أن أرحل غدًا يا أخي، فإن اليوم إذا سمحت بذلك، سوف نجلس معًا حتى ساعة متأخرة من الليل. إنني أريد أن أحصل على فكرة واضحة حقًا عما أنت عليه الآن. ما هي أهدافك ومعتقداتك، وإلى أي صنف من الرجال تنتمي، وماذا علمتك الحياة؟ (ما زال ميخائيليفتش يستعمل العبارات السائدة في عام ١٨٣٠) أما فيما يخصني يا أخي، فقد تغيرت من وجهات كثيرة، لقد فاضت بي الحياة حتى بلغت الترقوة. من الذي قال ذلك؟ ولكن في الهام الجلل من الأمور فإنني لم أتغير وأؤمن الآن كسابق عهدي في الماضي بالخير والحق، ولست أؤمن فحسب، ولكنني واثق الآن. نعم، واثق كل الثقة. أصغ إليّ، إنني أنظم الشعر، وأنت تعرف. سوف أقرأ عليك مقطوعي الأخيرة، وقد عبرت فيها عن أكثر معتقداتي إخلاصًا، والآن أصغ إليّ».

(١) أحد المقاولين الذين كانوا يشترون حق تزويد الناس بالخمير.

بدأ ميخائيليفتش يقرأ قصيدته التي كانت طويلة نوعاً ما، وانتهت
بالآيات الآتية:

«بكل قلبي قد أسلمت نفسي للأحاسيس الجديدة في قلبي،
وغدوت وكأني صرت طفلاً. ولقد أحرقت كل ما اعتدت عبادته،
وصرت أعبد كل ما اعتدت إحراقه».

كادت الدموع تطفّر من عيني ميخائيليفتش وهو يلقي البيتين
الآخرين. وسرت في شفّتيه الغليظتين خلجة طفيفة، وهي سمة العاطفة
الجياشة، وأشرق وجهه الساذج، وظل لا فريتشكي مصغياً حتى استيقظت
فيه روح المعارضة أخيراً. فقد أثّره طالب موسكو بحماسة، الذي كان
دائم الغليان والذي كان معدّاً للاستعمال باستمرار. وما مضى ربع ساعة
إلا وقد احتدم حوار عنيف بين الصديقين، وكان حواراً من المحاورات
التي لا تنتهي، والتي لا يقدر عليها إلا الروسيون فقط، فإن الصديقين،
وبعد فرقة دامت أعواماً عديدة ومرت بهما في عالمين مختلفين، لم
يفهم أحدهما أفكار الآخر في وضوح بله أفكاره الخاصة التي يتمسك
بنصّها، وهما لا يختلفان إلا في الألفاظ فقط، تجادلا في الآراء المجردة
الخالصة، وتجادلا تماماً كما لو كان الأمر بينهما موضوع حياة أو موت!
كانا يتصايحان ويصرخان عالياً إلى حد أقلق كل من في البيت.

أما ليم المسكين، وكان قد دخل حجرته وأغلق دونه الأبواب لحظة
وطأت أقدام ميخائيليفتش أرض المنزل، فقد استبدت به الحيرة تماماً،
كما بدأ يخالجه لون من الخوف الغامض.

وعند منتصف الليل صاح به ميخائيليفتش: «وماذا عساك^(١) تكون أيها المخدوع؟».

أجاب لافريتسكي قائلاً: «وهل بيني وبين الرجل المخدوع شبه ما؟».

«نعم إنني شاحب ومريض دائماً، ولكنني إذا أردت ففي قدرتي أن أرفعك عن الأرض بيد واحدة. حسناً إذن، فإذا لم تكن المخدوع، فأنت على الأقل من أصحاب الشك^(٢) وهذا ما زال أسوأ ما في الأمر. ولكن بأي حق تكون من أصحاب الشك؟ وإن حياتك لم تكن ناجحة كما أعتقد، ولم يكن هذا خطأك، فقد وهبك الله روحاً حافلة بالحنو والحب العارم، وقد حالت القوة بينك وبين النساء. وكانت أول امرأة تلقاها قادرة على خداعك بكل تأكيد».

فأجاب لافريتسكي معقّباً: «وقد خدعتك أيضاً، هذا أمر مسلم به، مسلم به لا مراء. ففي هذا الشأن كنت أداة في يد القدر، ولكنني أهدي، فليس هناك شيء يسمى القدر، ولكن هي عادتي القديمة في التعبير عن نفسي لا أتوخى الدقة. ولكن ماذا يبرهن على ذلك؟».

- إنه يبرهن على هذا كثيراً. إنني قد أفسدت منذ باكورة طفولتي. حسناً، إذن فلتقوّم نفسك، وهذه الفائدة التي تجنيها من كونك رجلاً من أنك أحد أفراد جنس الذكور. فليس من الواجب عليك أن تستعير القوة، ولكن مهما تكن الأوضاع، فإنه لمن الجائز والمباح مؤكداً أن

(١) blase حرفياً.. disillusioned ومعناها المخدوع.

(٢) a Sceptic.

تبدأ العمل صاعدًا من الحقيقة المجردة، كما يقال: إلى أن تصل إلى قانون عام.. إلى قاعدة لا تتغير ولا تتبدل».

فسأله لافريتسكي مقاطعًا: «أي قاعدة تعني؟ أنا لا أعترف».

فصاح الآخر مقاطعًا صاحبه بدوره: «لا، تلك قاعدتك، تلك قاعدتك».

فقال ميخائيليفتش مرعدًا بعد ساعة: «أنت أناني وتلك قاعدتك، لقد أردت بهجة نفسك، أردت حياة سعيدة، أردت أن تعيش لنفسك فقط».

- وماذا عسى أن تكون بهجة النفس؟ وقد خذلك كل شيء، وقد تداعى كل شيء تحت قدميك.

- ولكنني أسألك ماذا عسى أن تكون بهجة النفس؟

- ويجب أن يتداعى لأنك كنت تنشُد العون، حيث من المستحيل أن تجده، لأنك بنيت منزلك على رمال ميساء تغوص فيها الأرجل.

- أفصح عما تقول ولا تستعمل الاستعارة؛ لأنني لا أفهمك.

- لأن... فلتضحك إذا ما شئت؛ لأن قلبك خال من الإيمان، عاطل من الحماس القوي وما به إلا إدراك زهيد فقط. وما أنت إلا مخلوق جدير بالعطف، وحواري فولتير المتخلف عن عصره، هذا هو أنت.

- من؟ أنا حواري فولتير؟

- نعم، فأنت ترسم خطى أبيك وتنسج على منواله، ولم تشك في هذا إطلاقًا.

قال لافرييسكي: «وبعد ذلك، فلي الحق أن أقول إنك متعصب».

فأجاب ميخائيليفتش آسفًا: «وأسفاه، إنه لمن سوء الطالع أنني حتى ذلك الوقت لا أستحق بحال من الأحوال مثل هذا الاسم العظيم».

وفي الساعة الثالثة صباحًا صاح ميخائيليفتش في نفسه قائلاً: «لقد عرفت الآن ماذا أسمىك... لست من أصحاب الشك، ولست متحمسًا، ولست حوارى فولتير، أنت مرموط (فأر الجبل) ومرموط مذنب، مرموط ذو ضمير، وليس مرموطًا ساذجًا. إن الفئران تترقد على سطح الفرن^(١) ولا تعمل عملاً؛ لأنه ليس في مقدورها أن تعمل شيئًا، ولكنك رجل مفكر، ومع ذلك فإنك تترقد خاملاً هناك. في إمكانك أن تعمل شيئًا ما، ولكن لا تعمل أي شيء، وترقد على سطح الفرن، وقد امتلأ كرشك وتقول: إنني أرقد خاملاً، هذا هو ما يجب؛ لأن كل ما يعمله الإنسان باطل الأباطيل، وترهات لا تفيد بشيء».

فتساءل لافرييسكي مصرًا: «ولكن ما الذي جعلك تحكم عليّ بالكسل والبطالة؟ ولماذا تفترض أن لي مثل هذه الآراء؟».

استمر ميخائيليفتش في حديثه دون توقف: «وبجانب هذا فأنتم أيها الناس جميعًا، كل إخوانك فئران جبل تعمقت في قراءاتها. أنتم جميعًا تعرفون أين يؤلم الألماني حذاؤه، وأنتم جميعًا تعرفون عيوب الإنجليز والفرنسيين، ومعرفتكم التاعسة تعاونكم في تبرير فتوركم المخزي، وكسلكم البغيض. يوجد بعض الناس يعتزون بهذا، إنني بكل

(١) سطح الفرن يكون مكان النوم في منزل الفلاح الروسي كما هي الحال في القرية المصرية.

تأكيد رجل علامة، أرقد عاطلاً، وهم على حماقة تجعلهم يبحثون عن المتاعب. نعم... فإن أمثال هؤلاء الناس موجودون على التأكيد بيننا، وإني لا أقول هذا مشيراً إليك، أو إياك أعني، فإن أمثال هؤلاء الأشخاص سوف يقضون حياتهم في فتور وملل، ثم يألّفون هذه الحياة ويعيشون فيها كما يعيش الفطر في القشدة».

لم يتمالك لافريتسكي نفسه من أن يضحك من مقارناته.

- أوه، يا لفترة الملل تلك... إن فيها هلاك الروسيين، فإن المرموط المسكين مُصر دائماً على العمل...».

صاح لافريتسكي بدوره: «ولكن مع ذلك، ما الذي تزجرني من أجله؟ أن تعمل، أن تعمل. الأفضل أن تقول ما الذي يجب أن نفعله، بدلاً من الزجر، يا ديموستينيس بولتافا^(١)».

أجاب ديموستينيس في لهجة ساخرة:

- آه، نعم، ذلك ما تبغي... لا يا أخي، سوف لا أقول لك ذلك، فعلى كل فرد أن يعلم نفسه ذلك، ما لك، ونبيل، ولا تعرف ماذا تفعل... فلا إيمان عندك إذن؛ وإلا لعرفت ماذا تفعل، ولكن لا إيمان ولا إلهام. تضرع إليه لافريتسكي: «وعلى أي حال من الأحوال، دعني أتنفس لحظة أيها الشيطان! دعني أنظر حوالِيَّ!»

أجاب ميخائيليفتش، بحركة آمرة من يده: «لا دقيقة للتنفس،

(١) ديموستين خطيب الإغريق المشهور، وبولتافا هي المدينة الجامعية في روسيا الصغرى. ولندكر أن ميخائيليفتش روسي صغير.

ولا ثانية، لا ثانية واحدة. فإن الموت لا يتمهل والحياة يجب ألا تتمهل». صاح المتحدث قائلاً في الرابعة صباحاً، وقد بح صوته نوعاً ما: «وفي أي زمان وأي مكان تراءى للآدميين أن يتحولوا إلى فئران؟ ولماذا يحدث هذا هنا؟ ولماذا يحدث هذا الآن؟ وفي روسيا، وعندما يُلقى واجب على كاهل كل فرد مستقلاً عن الآخرين، وتقع عليه مسؤولية عظيمة أمام الله، وأمام الأمة، وأمام نفسه... إننا ننام والزمن يسير. إننا ننام».

لاحظ لافريتسكي قائلاً: «اسمح لي أن أبين لك أننا لا ننام في الوقت الحاضر، بل على النقيض، نمنع الآخرين من النوم، ونملأ حناجرنا بالصباح، كما تفعل الديكة وهي فوق أبواب مخازن الحاصلات الزراعية. أصغ يا صاح، فإن ذلك الديك يصبح للمرة الثالثة».

أضحكت هذه الدعابة ميخائيليفتش وخفتت من غلوائه، فقال مبتسماً: «تصبح على خير» ووضع غليونيه في جرابه، وأجاب لافريتسكي قائلاً: «وتصبح على خير أيضاً» ورغم هذه التحية، فقد واصل الصديقان الحديث وقتاً جاوز الساعة، ولكن كفت أصواتهما عن الارتفاع، وجرى حديثهما هادئاً، حزيناً مشبعاً بالعطف.

وفي اليوم التالي رحل ميخائيليفتش على الرغم مما بذله مضيفه من محاولات ليشنيه عن الرحيل، لم ينجح لافريتسكي في حمله على البقاء، ولكنه نجح في الحصول على ما شاء من حديث منه.

ولقد وضح أن ميخائيليفتش مفلس خاوي الوفاض تماماً، وحز في نفس لافريتسكي ما رآه عليه بالأمس من دلائل وسمات فقر مقيم.

كان حذاؤه ممزقًا، ومعطفه ينقصه زر من خلف، ويدها غريبتان على القفازات، وقد التصق بشعره قطعة أو قطعتان من الريش، ولما وصل إلى البيت لم يطلب ماء ليغتسل، وفي أثناء تناول العشاء، كان يلتهم الطعام كما يفعل سمك القرش، وهو يمزق اللحم أربًا بأظافره، ويقضم العظام بصوت عال بأسنانه القوية.

ولقد وضح أيضًا أنه لم يفلح في الخدمة المدنية، وأنه قد وضع كل آماله بين يدي زارع خمور كان قد ألحقه بالعمل عنده، لا لسبب سوى أن يكون عنده «رجل متعلم» في مكتب المحاسبة. وعلى الرغم من كل هذا، وبحال ما، فإن ميخائيليفتش لم يفقد شجاعته، وسار في طريقه قدمًا يعيش عيشة الساخر، المثالي الشاعر، وهو يعنى في حماس بمصائر الإنسانية، ويهتم لدعوته في الحياة، لا يأبه إلا قليلًا جدًا بأمر الحياة أو الموت جوعًا.

لم يتزوج ميخائيليفتش إطلاقًا، ولكنه أحب مرات لا تُعد ولا تُحصى، وكان دائمًا ينظم الشعر مترنمًا بحبيباته جميعًا، وقد تغنى في حماس شديد بحب سيدة مجهولة، ذات شعر حالك أثيث^(١) لامع. وقد تواترت الشائعات بأن هذه السيدة لم تكن سوى فتاة يهودية التف حولها عدد عديد من الأصدقاء من ضباط الفرسان، ولكن إذا ما أنعمنا النظر في ذلك الأمر، استبان أنه ليس بذى أهمية عظيمة.

أما عن ليم فإن الأمور لم تسر سيرًا حسنًا في علاقاته مع ميخائيليفتش؛ لأن أسلوبه في الحديث وهو يجأر رافعًا عقيرته، وسلوكه

(١) أثيث: غزير طويل. [المحرر].

الخشن، أفرعا الرجل الألمانى الذى لم يآلف هذه العادات من قبل. كان منكود الحظ يتعرف فى سرعة ومن بعيد على آخر، ولكنه فى شيوخته ندر ما كان يرغب فى الاختلاط بأحد، ولم يكن هذا بالأمر الغريب الذى نعجب له، فلم تؤلف بين قلبيهما مصالح مشتركة، ولا آمال مشتركة.

وتحدث ميخائيليفتش قبل رحيله طويلاً مع لافريتشكي، وتنبأ له بدمار تام إذا لم ينهض من سباته، وطلب منه فى رفق ولين أن يشغل نفسه بصفة جدية بوضع الرقيق فى أرضه، وضرب بنفسه مثلاً يحتذى قائلًا إنه قد تطهر فى أنون الإحن ثم دعا نفسه مرات عديدة بالرجل السعيد، متشبهاً بطائر السماء وزنبقة الوادى.

وقال لافريتشكي معقبًا: «إنها زنبقة غرباء على أى حال».

أجاب ميخائيليفتش متلهللاً: «آه، يا أخى يجب ألا يصدر عنك ما لا يتناسب مع الأرستقراطى، ولكن يجب عليك أيضًا أن تشكر الله الذى أجرى الدم الشعبى المتواضع فى عروقك. وإني لأرى الآن أنك فى حاجة إلى مخلوق سماوى طاهر يوقظك من رقادك».

قال لافريتشكي: «شكرًا يا أخى. فإن لى ما يكفينى من هذه المخلوقات السماوية».

صاح ميخائيليفتش قائلًا: «صه أيتها الأبله».

قال لافريتشكي مصححًا خطأ صاحبه: «أيتها الساخر».

فردد ميخائيليفتش الذى لا يرتبك ولا يتبلبل: «تمامًا أيتها الأبله». وبعد أن أخذ ميخائيليفتش مكانه فى العربة، حيث وضعت الحقيبة

الخواوية المنبسطة بشكل يدعو إلى العجب، راح يتحدث دون توقف، وقد لف نفسه في معطف إسباني ذي بنيقة حالت حمراء اللون لطول الاستعمال، وله مخالبا أسد بدلاً من الكلابات، واستمر يصب آراءه عن مصير روسيا وهو يلوح بيده السمرء في الهواء، وكأنه يبذر حب النجاح المقبل، وفي النهاية انطلقت الجياد في سبيلها.

صاح قائلاً وهو يميل كله تقريباً إلى خارج العربة، وهو يكاد لا يحفظ توازنه: «تذكر كلماتي الثلاث الأخيرة، الدين والتقدم والإنسانية.. وداعاً!» واختفى عن الأنظار رأسه المغطى بقلنسوة ضغطت عليه حتى بلغت عينيه. وبقي لافريتسكي وحيداً بالباب، حيث ظل واقفاً يحملق باهتمام في الطريق، إلى أن غابت العربة عن الأنظار.

فكر لافريتسكي وهو يقفل عائداً إلى البيت: «ربما كان على حق. ومن المحتمل أن أكون مرموطاً (فأراً جبلياً)»؛ فلقد وجد كثير مما قاله ميخائيليفتش طريقه إلى قلب لافريتسكي، رغم أنه حتى ذلك الوقت كان يعارضه ويخالفه، فإن الإنسان إذا كان أميناً كل الأمانة، فلا يوجد أبداً من ينقض آراءه.



الفصل الخامس والعشرون

وبعد مرور يومين وصلت ماريا ديمتريفنا إلى فاسيليفيسكوي، برًا بوعدها، وكان معها كل الشابات في بيتها، وسرعان ما انطلقت الفتيات الصغيرات إلى الحديقة، ولكن ماريا ديمتريفنا جاست خلال المنزل في تراخ، وأطرت في تراخ أيضًا كل ما رأت فيه، واعتبرت زيارتها للافريتسكي تفضلاً عظيمًا منها يقرب من عمل الخير والإحسان. ابتسمت متلطفة عندما جاء أنطون وبراكسا ليقبلا يدها جريًا على مألوف العرف القديم بين رقيق المنازل، ثم طلبت الشاي بصوت واهن خفيض.

ومما بعث الضيق الشديد في نفس أنطون، وقد ارتدى زوجًا من القفازات المصنوع من الصوف المحبوك الأبيض، أنه لم يحظ بشرف تقديم الشاي إلى السيدة الزائرة، بل كان الذي قدمه خادمًا مأجورًا، وهو في رأي الرجل العجوز، فتى خالي الذهن تمامًا من آداب اللياقة. وعلى كل حال، فقد كان لأنطون ما أراد في أثناء تناول الغداء، ففي خطوات

ثابتة أخذ مكانه خلف مقعد مدام كاليتين، ورفض التخلي عن مركزه لكائن من كان، فإن ظهور الزائرين في فاسيليفيسكوي، وهو منظر اختفى من هناك لسنين كثيرة، كان يضطرب له الرجل العجوز ويطرب، وكان يسره أن يرى سيده على علاقة بأهل المكانة الملحوظة في المجتمع.

لم يكن أنطون الشخص الوحيد الذي تضايق في ذلك اليوم، فإن ليم أيضاً أصبح عصبياً حاد المزاج. كان يرتدي معطفاً أقرب إلى القصر، وفي لون السعوط ذا أطراف مدببة، وقد عقد رباط رقبتة بشدة واستمر يسعل دون توقف، وكان يوسع الطريق مرحباً بكل مار، وقد ارتسمت على محياه سمات الرقة والعطف. أما عن لافريتسكي فقد لاحظ ليم، وهو راض عن ملاحظته، أنه ما زال صديقاً لـليزا كعهده به من قبل، إذا ما وطئت أقدامها عتبة الدار، حتى مدت يدها بترحاب قلبي لتصافحه.

وبعد الغداء تناول ليم ربطة صغيرة من صحائف الموسيقى من جيب في ذيل معطفه، ومن حيث كان يضع يده باستمرار، وفي صمت وقد أطبق شفتيه، وضع الربطة على المعزف (البيانو) وكانت تحتوي على رومانس (قصة حب) ألمانية قديمة الأسلوب، وضع ألحان كلماتها بالأمس. وفي هذه القصة جاء ذكر النجوم، وسرعان ما جلست ليزا إلى المعزف، وترجمت كلمات القصة أنغاماً وألحاناً، ولكن جاءت الموسيقى - مما يدعو إلى الأسف - مكبوتة مضطربة بحال لا تسر، وكان واضحاً أن المؤلف قد حاول التعبير عن فكرة عاطفية عميقة، ولكنه فشل في تحقيق هذه الرغبة، فلم يصل إلى نتيجة، وبقيت المحاولة في هذا الحيز ولم تجاوزه. وأحس لافريتسكي وليزا بهذا، كما شعر ليم به

أيضاً، ومن غير أن ينبس بينت شفة أعاد القصة إلى جيبه، وكانت إجابته على اقتراح ليزا بأن تعاود الكرة، أن هز رأسه وقال بلهجة ذات معنى: «ليس الآن»، ثم طأطأ رأسه وحنى كتفيه وغادر الحجرة.

وقرب المساء، خرجوا جميعاً وذهبوا لصيد السمك، وكان في البحيرة الصغيرة في نهاية الحديقة أعداد كبيرة من سمك الشبوط وغيره، ووضع الخدم مقعداً ذا مساند من أجل مدام كاليتين في الظل بقرب حافة الماء، كما نشروا بساطاً تحت قدميها. وإذا كان أنطون صياداً قديماً محنكاً له خبرة عظيمة، فقد قدم خدماته إليها، كان يثبت الديدان في حماسة ويضغطها بين أصابعه ويبصق عليه، ثم يلقي الحبل بنفسه في الماء، ويوجه جسمه كله إلى الأمام في رشاقة.

كانت ماريا ديمتريفنا قد تحدثت عن شأنه في ذلك اليوم إلى فيدور إيفانوفتش، وقد استعملت هذه العبارة الفرنسية المجمعية: «لم يعد يوجد في الوقت الحاضر أمثال هذا الشاب كما كان في الماضي».

ذهب ليم والفتاتان الصغيرتان إلى السد في أقصى البحيرة، وأخذ لافريتسكي مجلسه بجوار ليزا، واستمرت الأسماك تأكل الطعام، وفي كل دقيقة كان يلمع شبوط أسير في الهواء وتبدو جوانبه تارة ذهبية وفضية تارة أخرى، وكانت الفتاتان الصغيرتان تطلقان صيحات البهجة والفرح باستمرار.

أما مدام كاليتين، فقد ندت عنها صيحات حزينة غير مرة (مرتين أو ثلاث مرات) وكان نصيب لافريتسكي وليزا من الصيد أقل من نصيب الآخرين، ومن المحتمل أن يكون سبب هذا أنهما لم يعنيا كما

عنى الآخرون بالصيد، فتركوا العوامات (غمازات سنارات السمك) يجرفها التيار إلى حافة البحيرة، وكانت أعواد البردي الخالية الضاربة إلى الحمرة تهمس في هدوء حولهما، وتلألأ أمامهما في سكون الماء الساجي، كما كان حديثهما هادئاً أيضاً.

وقفت ليزا على الطوار (الذي وضع هناك لاستعمال الغسالات)، وجلس لافريتسكي على غصن منحني من أغصان الصفصاف. كانت ليزا ترتدي ثوباً أبيض وقد شددت إلى خصرها شريطاً عريضاً أبيض أيضاً، تدلت قبعتها المصنوعة من القش من إحدى يديها وباليدي الأخرى وبيعض الجهد حملت قسبة الصيد التي انحنى في الماء. حملق لافريتسكي في منظرها الجانبي الطاهر نوعاً ما، ونظر إلى شعرها وقد تحول إلى ظهرها خلف أذنيها، وإلى وجناتها الناعمة الملمس بلونها الذي يضارع لون وجنات طفل صغير السن، ثم فكر: «ما أجملك وأنت تقفين هناك بجانب بحيرتي!».

لم تنظر إليه ليزا، ولكنها ثبتت ناظريها على الماء، وفي أطراف عينيها كمنت ابتسامة غامضة، وقد سقط ظل شجرة صفصاف مجاورة على لافريتسكي وليزا.

ثم بدأ قائلاً: «هل تعرفين أنني فكرت ملياً في حديثنا الأخير، وأني قد وصلت إلى تلك النتيجة، ألا وهي أنك طيبة إلى أقصد حد».

فأجابت ليزا، وقد اضطربت اضطراباً عظيماً: «من المؤكد أنني لم أرم إلى أن...».

ردد لافريتسكي قائلاً: «إنك طيبة إلى أقصى حد، فأنا رجل لم

تصقلني التجارب بعد، ولكنني أحس أن كل من يراك يجب أن يختر صريع هواك. وما هو ذا ليم مثلاً، إنه يهواك حقاً».

لم يتقطب حاجبا ليزا تماماً، ولكنهما ارتعشا، هذا ما كان يحدث لها دائماً إذا طرق سمعها ما لا تود سماعه.

وأضاف لافريتسكي قائلاً: «لقد شعرت بالأسف من أجله اليوم، عندما خابت قصته الغرامية. إذا كنا شباباً وننشد المعرفة، فذلك أمر يمكن احتماله، ولكن إذا تقدمت بنا السن وزايلتنا القوة، فذلك ثقل حقاً. وإن أسوأ ما في الأمر أن الإنسان لا يدرك متى تخذله قوته، وأن هذه الضربات لشديدة النكير على الرجل المسن».

والى لافريتسكي كلامه، وبعد وقفة قصيرة قال: «خذي حذرك... إن بك لدغة... وسمعت أن بانشين قد كتب قصة حب ساحرة جداً».

أجابت ليزا: «نعم إنها عمل صغير، ولكنه لا بأس به».

سأل لافريتسكي: «ولكن ما رأيك فيه هو نفسه؟ هل هو موسيقار جيد؟».

- أظن أن له ملكة موسيقية عظيمة، ولكنه لما يهذب بعد هذه الملكة كما يجب.

- هذا هو الموقف بالضبط. ولكن هل هو رجل طيب؟

ضحكت ليزا ضحكة عالية، ونظرت بسرعة إلى فيدور إيفانوفتش.

صاحت قائلة وهي تخرج حبلها من الماء، ثم ألقته به بعيداً داخل

الماء مرة ثانية: «يا له من سؤال غريب!».

- لِمَ هو سؤال غريب؟ إني أستفسر عنه كما يفعل شخص أقام بعيداً عن هذا المكان زمناً طويلاً، كما يفعل كل ذي قربى.

- ذو قربى؟

- نعم، فإني أعتقد إني خالك بصورة ما!

قالت ليزا: «إن فلاديمير نيكولايفتش حسن الطوية، وهو ماهر. إن أمي تحبه كثيراً جداً».

- وأنت! هل تحبينه؟

- إنه رجل طيب، فلماذا لا أحبه؟

- آه. قالها لافريتسكي ثم صمت وتلاعب على وجهه تعبير نصفه حزين ونصفه ساخر، ولقد أَلَقَت النظرة الثابتة التي حدج بها ليزا الارتباك في روعها، ولكنها استمرت في ابتسامتها.

وأنّ قائلاً في النهاية، وكأنه يحدث نفسه وقد أشاح بوجهه بعيداً: «حسنًا، وليهبها الله السعادة».

احمر وجه ليزا خجلاً.

قالت له: «أنت مخطئ يا فيدور إيفانوفتش، أنت مخطئ في تفكيرك»، ثم سألته على حين فجأة: «ولكن ألا تميل إلى فلاديمير نيكولايفتش؟».

- لا.

- لماذا؟

- أظن أن لا قلب له.

اختفت الابتسامة من شفتي ليزا، وقالت له بعد فترة صمت طويلة:
«إن من عادتك أن تحكم على الناس حكمًا قاسيًا».

- لا أظن ذلك. فأني حق لي أن أحكم على الآخرين حكمًا قاسيًا.
وإنني لأود أن أعرف متى كنت في حاجة إلى الغفران لنفسني؟ أو أنك
قد غاب عنك أن الكسالى فقط هم الذين لا يسخرون مني، ولكن
أخبريني..»، وأضاف قائلاً: «هل حفظت العهد وأوفيت بالوعد؟».

- أي وعد؟

- هل صليت من أجلي؟

- نعم، لقد صليت من أجلك، وأنا أصلي كل يوم، ولكن أرجوك
ألا تتحدث باستخفاف عن ذلك.

بدأ لافريتسكي يؤكد لليزا أنه ما دار بخلده قط أن يفعل هذا، وأنه
يحمل الاحترام العميق لجميع المعتقدات. وبعد ذلك شرع يتحدث عن
الدين، وعن مغزاه وأهميته في تاريخ الإنسانية، وتحدث أيضًا عن معنى
المسيحية.

قالت ليزا في جهد: «يجب أن يكون الإنسان مسيحيًا؛ لا lidرك ما
هو سماوي أو ما هو دنيوي، ولكن لأن كل نفس لا بد ذائقة الموت».
وبحركة اضطرارية مفاجئة رفع لافريتسكي عينيه إلى عيني ليزا،
والتقت نظرتها بنظرته، قال: «ماذا تعني عبارتك تلك؟».

فأجابت: «إنها ليست عبارتي».

- ليست عبارتك؟ ولكن لماذا تحدثت عن الموت؟

- لا أعلم. وغالبًا ما أفكر فيه.

- غالبًا؟

- نعم.

- لا يقر إنسان هذا وهو ينظر إليك الآن؛ فوجهك يبدو سعيدًا، مشرقًا، وأنت تبتسمين.

وأجابت ليزا ببساطة: «نعم، أنا أشعر بالسعادة الآن».

وشعر لافريتسكي بميل ليقبض على يديها ويضغطها في حرارة.

صاحت مدام كاليتين: «يا ليزا، يا ليزا، تعالي إلى هنا، وانظري أي شبوط هذا الذي قد اصطدته!».

أجابت ليزا قائلة: «ليبك يا أماه» وذهبت إليها.

ولكن لافريتسكي بقي جالسًا على غصن الصفصاف.

وفكر قائلاً: «إنني أتحدث إليها تمامًا كما لو كنت لا أزال أهتم بالحياة».

وكانت ليزا قد علقت قبعتها فوق غصن شجرة كبيرة عندما ذهبت، ونظر لافريتسكي بإحساس غريب ورقيق على الأغلب إلى القبعة، وإلى أشراطها الطويلة التي تثبت قليلاً. وسرعان ما عادت ليزا ثانية، وأخذت مكانها السابق على الطوار.

وبعد مرور دقائق قليلة سأله قائلة: «ولماذا تظن أن فلاديمير

نيكولايفتش لا قلب له؟».

- لقد سبق أن أخبرتك أنه من المحتمل أن أكون مخطئًا، وعلى أي حال من الأحوال فإن الزمن كفيف بإظهار كل شيء.

غرقت ليزا في تأملاتها، وبدأ لافريتشكي يتحدث عن أسلوب حياته في فاسيليفيسكوي وعن ميخائيليفتش وعن أنطون، وشعر بأنه مضطر إلى التحدث إلى ليزا، وأن عليه أن يفضي إلى ليزا بكل ما يجيش في قلبه، وأصغت إليه بالتفات كبير وباهتمام شديد رؤوف، وبدت له الملاحظات القليلة التي أبدتها والإجابات التي أعطتها معقولة وطبيعية، ولقد صرح لها بذلك أيضًا.

أخذ ليزا العجب وقالت: «حقًا، إن فيما يخصني، ظننت أنني شبيهة بخادمتي ناستاسيا، وليس عندي كلمات خاصة بي، فلقد قالت يومًا لخطيبها: (سوف يأتي يوم تملني فيه، فأنت تحدثني حديثًا جميلًا عن كل شيء، ولكن ليس عندي كلمات خاصة بي أقولها لك)».

فكر لافريتشكي قائلاً: «المجد لله».



الفصل السادس والعشرون

وفي الوقت نفسه جاء المساء وأبدت ماريا ديمتريفنا رغبة في العودة إلى المنزل، و ببعض الصعوبة تمكنوا من انتزاع الفتيات الصغيرات بعيداً عن البحيرة، وإعدادهن للرحلة. وقال لافريتسكي إنه سيرافق ضيوفه حتى منتصف الطريق إلى المنزل، وأمر بأن يسرجوا له جواداً. وبعد أن أشرف على راحة ماريا ديمتريفنا في عربتها، نظر حواليه بحثاً عن ليم، ولكنه لم يعثر على أثر للرجل العجوز في أي مكان، فقد اختفى في اللحظة التي انتهى فيها الصيد. دفع أنطون الباب بقوة جديرة بالاعتبار في مثل سنه، وصاح بصوت جاف: «تقدم أيها السائق!».

وانطلقت العربة في طريقها. احتلت ماريا ديمتريفنا المقاعد الخلفية، وجلسَت الفتاتان والخادمة في المقاعد الأمامية.

كان المساء دافئاً وساكناً، والنوافذ مفتوحة على كلا الجانبين. امتطى لافريتسكي صهوة جواده وسار محاذياً العربة بجانب ليزا، وقد وضع يده على الباب وألقى العنان على غارب جواده الذي يخب على

مهمل، وبين الفينة والفينة كان يتبادل كلمتين أو ثلاثة مع الفتاة الصغيرة. اختفى تلاًؤ المساء وجاء الليل، ولكن بدا أن الهواء يزداد حرارة عن ذي قبل. وتأهبت ماريا ديمتريفنا للنوم على الفور، كما استسلمت الفتيات الصغيرات والخادمة للنعاس أيضًا. ومضت العربية تطوي الطريق بهدوء وسرعة. وعندما مالت ليزا إلى الأمام أضاء القمر -الذي طلع لتوه- وجهها، وهبت نسائم الليل الذكية على عينيها ووجناتها وشعرت بسعادتها. قرت يدها على باب العربية بجوار لافريتسكي، وشعر هو أيضًا بالسعادة وهو يسبح في دفء الليل الهادئ، ولا يحرك عينيه بعيدًا عن الوجه الشاب الجميل ويصغي إلى الصوت الشاب الواضح حتى في همساته، الصوت الذي فاه بكلمات قليلة جميلة.

وغاب عن ملاحظته لبعض الوقت أنه قد جاوز في رحلته ما يزيد على نصف الطريق، وإذن فلن يقلق راحة مدام كاليتين، ولكنه ضغط يد ليزا برفق، وقال: «نحن أصدقاء الآن، ألسنا أصدقاء؟» فأومأت برأسها موافقة، وشد زمام جواده وانطلقت العربية تطوي الطريق في هدوء وهي تتمايل تارة، وتنحني أخرى على كل الجانبين.

عاد لافريتسكي إلى المنزل مشيًا على الأقدام، فقد أسره وخب لبه سحر ليل الصيف، وقد بدا كل ما انتشر حوله غريبًا عجيبيًا، وفي الوقت نفسه مألوفًا لديه، جيدًا عزيزًا عليه كل الإعزاز. فكل شيء، البعيد والقريب، كان هادئًا ساكنًا، والعين ترى على مدى البصر إلى بُعد كبير، مع أنها لا تستطيع التفرقة كثيرًا بين ما ترى، ولكن بتأثير ذلك الهدوء نفسه بدأت حياة جديدة مزدهرة تشعر الناس بوجودها.

سار جواد لافريتسكي بقوة وهو يتمايل بثبات ذات اليمين وذات الشمال، وكان ظله الأسود العظيم يتحرك بجانبه، وكان في وقع حوافره لون من الفتنة الغامضة، وشيء غريب وبهيج في صيحات طائر السمان الصاخبة، وتوارت النجوم في غلالة من الضباب المضيء، والقمر لما يكتمل بعد، أضواء ببريق ثابت، وفاض ضوءه وقد تكبد السماء في جدول أزرق، ثم تهاوى شعاعاً من ذوب الذهب النضار على غلالة السحب الرقيقة التي سارت بإزاء ضوء القمر وعلى كتب منه.

ولقد جاءت برودة الليل ببلل قليل إلى عيني لافريتسكي وطافت مداعبة كل أعضاء جسمه، وفاضت تياراً منطلقاً إلى صدره. كان شاعراً ببهجة الحياة، فسعد بتلك البهجة: «حسناً فما زالت في العمر بقية، فلم تحرمنا حرماناً تاماً».

لم يقل من هي التي تحرمه، ولا مِمَّ تحرمه. ثم بدأ يفكر في ليزا، وأنها لمن العسير أن تكون عاشقة لبانشين، فإذا كان قد التقى بها في ظروف أخرى، فلا يدري أحد ماذا كان ينجم عن هذا اللقاء، وها هو ذا قد عرف مشاعر ليم تجاهها الآن، رغم أنها ليس عندها كلمات خاصة بها. وبالإضافة إلى أن ذلك لم يكن حقاً، إذ كان عندها كلمات خاصة بها، وعادت عبارتها: «لا تتكلم باستخفاف عن ذلك» إلى ذاكرة لافريتسكي، وصار ممتطياً صهوة جواده وقتاً طويلاً مطأطئ الرأس، ثم رفع رأسه واعتدل وهو يردد قائلاً:

«ثم حرقت كل ما كنت أقدر، وقدست كل ما كنت أحرق».

ثم هوى بسوطه على ظهر جواده، وانطلق يعدو في طريقه إلى المنزل.

وعندما ترجل ألقى نظرة أخيرة حوله، وعلى شفثيه تتلاعب ابتسامة على غير إرادته. الليل والصمت، الليل الحنون يرقد على التلال، وفي الوديان، ومن أعماقه الذكية البعيدة سواء أكانت من السماء أم من الأرض - ليس في مقدورنا أن نعرف - انهمر دفء رقيق هادئ، ودع لافريتسكي ليزا للمرة الأخيرة، وأسرع الخطى صعدًا على الدرج.

ومر اليوم الثاني متباطئًا نوعًا ما، وسقط المطر في الصباح الباكر، وبدأ ليم ينظر شاكًا وأطبق شفثيه بإحكام أكثر وأكثر، وكأنني به قد قطع على نفسه عهدًا بالآلا يفتحها ثانية مطلقًا.

وعندما استلقى لافريتسكي في فراشه في الليل، حمل معه إلى الفراش حزمة كاملة من الصحف الفرنسية كانت ملقاة لم تُفتح على النضد منذ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، وبدأ يفضّ دون مبالاة أغلفة هذه الصحف ويلقي نظرات خاطفة على محتويات أنهر تلك الصحف والتي فيها، وفي مثل هذه الظروف لم يكن جديد فيها إلا النذر البشير. وبينما هو على وشك أن يطرحها جانبًا، إذ قفز فجأة من فراشه وكأنه قد لدغته أفعى؛ ففي الصفحة الخاصة في إحدى الصحف كان صاحبنا السابق جوليس قد نقل إلى قرائه «نبأ مؤلمًا» وكتب قائلاً: «إن الفاتنة الجميلة من موسكو، وواحدة من ملكات الأزياء وزينة الصالونات الباريسية، ألا وهي مدام لافريتسكي، قد توفيت على حين غرة تقريبًا. وهذا النبأ، وهو لسوء الحظ صادق كل الصدق، وصل تَوًّا إلى جوليس وكان، استمر الخبر يقوم، كما يزعم، صديقًا للراحلة.

ارتدى لافريتسكي ملابسه، وذهب إلى الحديقة، ومشى إقبالًا وإدبارًا في إحدى طرقاتها حتى بزوغ النهار.

وفي أثناء تناول طعام الإفطار في صباح اليوم التالي، طلب ليم من لافريتسكي أن يسمح له بالحصول على جياذ ليعود إلى المدينة.
وقال الرجل العجوز ملاحظاً: «لقد حان الوقت لأعود إلى العمل.
أعني إلى الدروس، إني أبدد وقتي هباء دون طائل».
لم يجب لافريتسكي فوراً، فقد بدا أنه شارد الفكر.
قال أخيراً: «حسنًا جدًّا، سوف أذهب بنفسني معك».

وبعد أن رفض ليم مساعدة الخادم، حزم حقيبته الصغيرة وهو منفعل يشكو ويتأوه وهو منحني عليها، ثم مزق بعض صحائف الموسيقى وأحرقها. جاءت العربّة إلى باب الدار، وإذ هم لافريتسكي بمغادرة حجرة مكتبه، دس في جيبه الصحيفة التي كان قد قرأها بالأمس. وفي أثناء الرحلة كلها لم يقل لافريتسكي الكثير، وحذا ليم حذوه، فقد كان كل منهما مستغرقًا في هواجسه، وكان كل منهما بدوره مسرورًا لأن الآخر لا يقلق باله. وكان افتراقهما فاترًا نوعًا ما، وهو حدث في مثل هذه الظروف، كثيرًا ما يقع بين الأصدقاء في روسيا.

وأوصل لافريتسكي في عربته صديقه الشيخ إلى مسكنه المتواضع، وحمل ليم حقيبته معه عندما غادر العربّة، ودون أن يمد يده ليصافح صديقه، حمل الحقيقة أمامه بكلتا يديه، ودون أن ينظر إليه أيضًا قال بالروسية: «وداعًا»، ورد لافريتسكي قائلًا: «وداعًا»، وأمر حوزيه أن يذهب به إلى مسكنه؛ لأنه قد اتخذ له مقامًا في مدينة آو.

وبعد أن كتب عدة خطابات وتناول غداءه على عجل، ذهب إلى دار آل كاليتين حيث لم يجد أحدًا سوى بانشين الذي أخبره أن ماريّا

ديمترييفنا سوف تحضر حالاً. وسرعان ما دخل معه في حديث بأسلوب متناه في العطف والرقّة. وحتى ذلك اليوم لم يكن بانشين متشامخاً تماماً في سلوكه إزاء لافريتسكي، بل كان متلطفاً معه، ولكن ليزاً، في وصفها لنزعتها بالأمس، تحدثت عن لافريتسكي الرجل الممتاز البار، وكان في هذا الكفاية، فإن من الواجب أسر الرجل «الممتاز».

بدأ بانشين الحديث بالثناء على لافريتسكي، ثم وصف له النشوة التي، كما قال هو، قد تحدث بها جميع أفراد أسرة كاليتين عن فاسيليفسكوي، ثم جرياً على مألوف عاداته أدار الحديث حول شخصه بمهارة، فبدأ بالحديث عن مهنته وعن وجهات نظره في الحياة والعالم والخدمة العسكرية، وألمح بكلمة أو اثنتين إلى مستقبل روسيا، وعن ضرورة القبض بيد قوية على حكام الأقاليم، وهو يمزح ضاحكاً من نفسه بهذا الخصوص، وأضاف أنه قد عهد إليه مع آخرين في سانت بطرسبرج بمهمة إذاعة فكرة تقويم الأملاك بين الناس وتقريبها من أفهامهم، فتحدث بإسهاب محتمل وبثقة عاطلة من الحرص مجردة من الاكتراث. كان يذلل جميع الصعوبات، وهو يتلاعب بأهم المشاكل الإدارية والسياسية، كما يلعب الساحر بكراته، وكانت هذه التعبيرات مثل «هذا ما يجب أن أفعله إذا كانت السلطة في يدي»، «وأنت، بوصفك رجل ذكي توافق معي ولا شك» تدور على لسانه دائماً.

أصغى لافريتسكي بفتور إلى بلاغة بانشين، فهذا الشاب الوسيم، البار، الكيس لغير ضرورة، بابتسامته الصافية الهادئة، وصوته المؤدب وعينه المتشوفتين للمعرفة، هذا الشاب لم يلق قبولاً عنده، وحدث

بانشين لفوره بما جبل عليه من تقدير سريع لمشاعر الآخرين، والذي كان من أخص سماته، حدث بأنه لا يبعث أي رضا في نفس من يخاطبه، ولذا فقد غادر المكان متعللاً بعذر مقبول، وقد قرر أنه من المحتمل أن يكون لافريتسكي رجلاً ممتازاً، ثم جاءت مارقا تيموفينا وليزا، وتلاهما جميع أفراد الأسرة الآخرين. وفيما بعد، وصلت عاشقة الموسيقى، مدام بلينشتين، وهي امرأة صغيرة الجسم لها وجه صغير يكاد يكون كوجه طفل جميل ولكنه مضني، وترتدي ثوباً أسود صاخب الحفيف، وتحمل مهواة ملونة بألوان مختلفة، وتحلي ذراعيها بأساور سميكه من الذهب، وبصحبته جاء زوجها وهو رجل بدين متورد الوجنتين، كبير اليدين والقدمين، أبيض الأهداب، يتمتع بابتسامة لا تفارق شفثيه الغليظتين أبداً، لم يكن من عادة زوجه أن تتحدث إليه في المجتمع، أما في البيت وفي لحظات صفوها، فكانت تدلله.

عاد بانشين وعاد معه النشاط والضوضاء إلى الحجرة، ومثل هذا الجمع من الناس لم يكن بحال من الأحوال ليلقى القبول والرضا عند لافريتسكي، وكان متضايقاً على الخصوص من مدام بلينشتين التي ظلت تحديق فيه النظر باستمرار من خلال عويناتها، ولو لم يكن له شأن مع ليزا لغادر المكان حالاً، فقد كان يود أن يفضي إليها بكلمات قلائل وهما بمنجاة من الآخرين، ولكنه ظل وقتاً طويلاً لا يظفر بهذه السانحة المناسبة لتحقيق رغبته، وكان لزاماً عليه أن يقنع بملاحقتها بنظراته وهي تتجول هنا وهناك، وكان يفعل هذا بسرور خفي، فلم يبد له وجهها من قبل أكثر نبلاً وأعظم سحرًا، ولا غرو فقد كانت تتألق في روعة حسننها

بمحضر مدام بلينشتين. كانت تلك السيدة تتململ باستمرار في مقعدها وهي تحرك كتفيها الضيقتين، ضاحكة ضحكاً مصطنعاً، وهي تغمض عينيها أو تفتحها باتساع غير طبيعي، وجلست ليزا ساكنة وهي تنظر نظرات مستقيمة إلى الأمام ولم تضحك أبداً.

وجلست مدام كاليتين إلى مائدة اللعب مع ماريا تيموفينا وبلينشتين وجيديونوفسكي وهو يلعب ببطء شديد، كان يرتكب أخطاء مستمرة وهو يغمض عينيه ويحفف وجهه بمنديله، وتظاهر بانشين بمظهر الكآبة، وعبر عن نفسه تعبيراً موجزاً وحزيناً وذا مغزى معاً، كما يفعل فنان لم يؤت فرصة ما بعد للظهور، ولكن برغم توسلات مدام بلينشتين وهي تتدلل عليه إلى حد بعيد، لم يقبل أن يغني الرومانس (القصة الغرامية) فقد كان وجود لافريتسكي يضايقه.

أما عن لافريتسكي نفسه، فلم يتكلم إلا بقدر قليل، ولكن التعبير الغريب الذي كان يحمله وجهه لفت نظر ليزا فور دخولها الحجرة، وسرعان ما أحست أن لديه أمراً يرغب في أن يفضي به إليها، ولكن من دون أن تعرف ما السبب، فقد كانت تخشى أن تسأله أسئلة ما. وأخيراً، وإذ هي تعبر إلى الحجرة المجاورة لتعد الشاي، نظرت تجاهه على غير وعي منها تقريباً فتبعها لتوه.

سألت وهي تضع إبريق الشاي على الصناوور^(١): «وما خطبك؟».

قال: «لقد لاحظت شيئاً ما، إذن...».

- إنك تختلف اليوم عما عهدت أن أراك من قبل!

(١) وعاء كبير لغلي الشاي أو القهوة.

فانحنى لافريتسكي على النضد.

وبدأ قائلاً: «لقد أردت أن أخبرك نبأ، ولكن الآن الأمر مستحيل، فخذني واقرئي الجزء من هذه الصفحة الخاصة الذي وضعت عليه علامة بالقلم الرصاص»، وأعطاهما الصحيفة التي أحضرها معه، ثم أضاف قائلاً:

- أرجو أن تحتفظي بالسر، وسأعود في صباح الغد.

كانت ليزا مندهشة حائرة حقاً، وفي تلك اللحظة ظهر بانشين في مدخل الباب، فдست الصحيفة في جيبها.

فسأل بانشين بنغمة المستغرق في أفكاره: «هل قرأت أوبرام^(١) يا ليزافيتا ميخائيلوفنا؟».

وأجابت ليزا إجابة غامضة وهي تغادر الحجرة، ثم صعدت إلى الطابق العلوي. عاد لافريتسكي إلى حجرة الاستقبال واقترب من مائدة اللعب. احمرت ماريا تيموفينا خجلاً وبدأت وقد حلت أربطة قبعتها، تشكو له من شريكها في اللعب جيديونوفسكي الذي طبقاً لما قالت، لما يتعلم بعد خطواته.

قال: «إن لعب الورق، كما هو واضح، يختلف اختلافاً بيناً عن القيل والقال» وفي الوقت نفسه لم يقلع جيديونوفسكي عن أن يطرف بعينه ويخفف عرقه بمنديل جيبه.

وعادت ليزا في الحال إلى حجرة الاستقبال وجلست في ركنها. نظر لافريتسكي إليها ونظرت إليه وذاق كل منهما إحساساً مؤلماً، فقد

(١) الرومانس العاطفية التي تحمل ذلك الاسم لمؤلفها بيفرت دي سينانكور.

كان يستطيع أن يقرأ الحيرة والارتباك على وجهها، كما تبين عليه لوناً من التأنيب الخفي. وعلى الرغم من رغبته الشديدة في التحدث إليها، فلم يستطع أن يظفر بالحديث معها. ولما كان يضايقه أن يمكث معها في حجرة واحدة، شأنه شأن أي زائر بين الزائرين الآخرين، لذا عقد العزم على الانصراف.

وعندما كان يستأذنهما في الانصراف احتال ليعيد على مسامعها القول بأنه سوف يعود اليوم التالي، وأضاف قائلاً إنه يعتمد على صداقتها. فأجابت قائلة: «تعال»، والنظرة الحائرة ما زالت مرتسمة على وجهها.

وبعد رحيل لافريتسكي استشعر بانشين النشاط والانتعاش، وبدأ يبذل لجيديونوفسكي النصيح ويطارح مدام بلينشتين غراماً مزيفاً، وفي النهاية أنشد الرومانس (قصة الحب) ولكن وهو يحملق في وجه ليزا ويتحدث إليها، كان يحتفظ بمظهره كما كان من قبل، وهو مظهر يحمل معنى عميقاً به أثر من الحزن.

لم ينم لافريتسكي تلك الليلة كلها، لم يكن تعساً ولم يكن مضطرباً، بل على النقيض، كان هادئاً كل الهدوء، ولكنه لم يستطع النوم، ولكن لم يكن أيضاً يستعيد الماضي أو يذكره. وكل ما هنالك أنه كان ينظر إلى حاضر حياته وكانت ضربات قلبه ثابتة سوية. ومرت الساعات سراعاً وهو لم يفكر حتى في النوم قط، وفي فترات متباعدة كان يطرق حاضره الفكر «بالتأكيد ليس هذا صدقاً، وهذا كله لغو باطل»، وحينئذ يتوقف عن الحديث، ويترك رأسه حالاً لتسقط إلى الخلف، ثم ينصرف مرة أخرى إلى التفكير في مجرى حياته.

الفصل السابع والعشرون

لم تستقبل مدام كالييتين لافريتسكي بالترحاب عندما قدم لزيارتها في اليوم التالي، وفكرت قائلة:

«آه.. إنه يجعل من زيارته لنا عادة له»، لم تكن بطبعها تميل إليه كثيراً. وكان بانشين الذي سيطر عليها سيطرة كاملة، قد امتدحه بالأمس في استخفاف فطن شديد. ولما لم يلق منها المعاملة الجديرة بكرام الضيوف، ولم تر أنه من الضروري أن تهتم بشخص من ذوي قرباها وهو فرد من الأسرة غالباً، فلم تمض نصف ساعة إلا وقد ترك المكان وذهب إلى الحديقة، وهناك كان هو وليزا يمشيان في إحدى طرقات الحديقة ولينوتشكا وشورتشكا تلعبان حول أصص الزهر على غير بعيد منها.

كانت ليزا هادئة على عاداتها، ولكنها كانت شاحبة الوجه أكثر من المؤلف. أخرجت الصحيفة المطوية من جيبتها وناولتها إلى لافريتسكي.

وقالت: «هذا خبر مفزع!».

- لم يجب لافريتسكي.
- ولكن فضلًا عن ذلك، فقد يكون ليس حقيقياً!
- ابتعدت ليزا قليلاً في سيرها.
- ولذلك السبب سألتك ألا تفضي به لأحد.
- بدأت ليزا الحديث راجية متسائلة: «خبرني بربك أأنت آسف؟
- أأنت آسفاً أبداً؟».
- فأجاب لافريتسكي: «أنا نفسي لا أعرف حقيقة شعوري».
- ولكنك أحببتها في وقت ما.
- نعم أحببتها.
- أحببتها حباً جماً.
- نعم.
- ومع ذلك فأنت لا تأسى لموتها؟
- ليس الآن فقط هي في عداد الأموات بالنسبة لي».
- إن ما تقوله إثماً، ولا تغضب مني، فقد دعوتني صديقة لك، ومن حق الصديق أن يقول ما يشاء، وإنه ليلدو لي مفرعاً حقاً، فإن التعبير الذي ارتسم على وجهك بالأمس لم يكن له أثر طيب في نفسي، فهل تذكر شكواك ضدها منذ وقت ليس بالبعيد، وفي ذلك الوقت نفسه، ربما كانت قد صارت في عالم غير عالم الأحياء. إنه لفظيح، إنه بالضبط كما لو كان قد جاء عقاباً لك.

ضحك لافريتسكي ضحكاً مرّاً:

- هل تظنين هذا؟ على أي حال من الأحوال فأنا حر طليق الآن.

- لا تتكلم بهذا الأسلوب أكثر مما فعلت، ما قيمة حريتك لك؟ ما كان ينبغي لك أن تفكر في ذلك الآن، وكان الأجدر بك أن تتحدث عن الغفران.

فقاطعتها لافريتسكي قائلاً بحركة نافذة الصبر: «لقد غفرت لها منذ زمن طويل».

وأجابته ليزا وقد اخضل بالحمرة وجهها: «لا، فأنا لا أعني ذلك، أنت لم تفهمني كما يجب، فأنت هو الذي يجب أن تجاهد لتحصل على الغفران».

- من هو الذي سيغفر لي؟

- من؟ كيف ذلك؟ إنه الله، فمن ذا الذي يمكنه أن يهبنا الغفران سوى الله سبحانه وتعالى!

قبض لافريتسكي على يدها.

صاح قائلاً: «آه... يا ليزافيتا ميخائيلوفنا.. ثقي أنني قد نلت من العقاب ما يكفي، وقد كفرت عن ذنوبي جميعاً، صدقيني».

قالت ليزا بصوت خفيض: «لا يمكنك أن تقول ذلك، لقد نسيت، إنه لم يكن منذ زمن طويل أن كنا نتحدث، وإنك لم تكن راغباً في الصفح عنها» ومشيا في طريقة الحديقة بعض الوقت صامتين.
وسأله ليزا، ثم توقفت فجأة: «وما مصير ابنتك إذن؟».

ارتعش لافريتسكي، ثم قال:

- آه.. لا تشغلي بالك بها، فقد أرسلت خطابات إلى شتى ربوع العالم. إن مستقبل ابنتي - كما تقولين - قد تأكد، ولا حاجة بك أن تهتمي لهذا الأمر.

ابتسمت ليزا ابتسامة حزينة.

استمر لافريتسكي قائلاً: «ولكنك على حق، ماذا عساني فاعل بحريتي، وأي فائدة تُرجى من هذه الحرية؟».

سألته ليزا، دون أن تجيب عن سؤاله: «متى حصلت على هذه الصحيفة؟».

- في اليوم التالي لزيارتك.

- وإنك لا... لا تذرف دمعة واحدة؟

- لا، فقد صُغقت. ولكن من أين لي بالدموع؟ هل ينبغي لي أن أبكي على الماضي؟ ولماذا؟ فإن ماضيّ كله الآن، كما لو كان قد أتت عليه النيران، وسقطتها لم تحطم حياتي في الواقع، بل برهنت لي فقط أن السعادة حقاً لم توجد قط في حياتي. فماذا إذن بقي لي أبكي عليه؟ وزيادة على ذلك.. فمن يدري؟ ربما أكون قد حزنت أكثر لو أن هذا النبأ قد وصلني مبكراً خمسة عشر يوماً.

«خمسعة عشر يوماً!» أجابت ليزا: «ولكن ماذا يمكن حدوثه ليصنع مثل هذا الفارق الكبير في تلك الأيام الخمسة عشر؟».

لم يحر لافريتسكي جواباً في بادئ الأمر، واصطبغ وجه ليزا بحمرة الخجل فجأة أكثر من ذي قبل.

أجاب لافريتسكي على غير توقع منه: «نعم، نعم! لقد حدثت به! في غضون هذه الأيام الخمسة عشر تعلمت ماذا يشبه قلب المرأة عندما يكون طاهرًا نقيًا، وإن ماضي حياتي يبدو أكثر بعدًا مما اعتاد أن يكون لي».

شعرت ليزا بقليل من القلق، فتولت ببطء إلى حيث كانت ليونتشكا وشورتشكا في حديقة الزهور.

قال لافريتسكي وهو يتبعها: «ولكني سعيد إذ أطلعتك على هذه الصحيفة، فقد درجت على ألا أخفي عنك شيئًا، وإني آمل أن تثقي بي قدر تثقي بك في مقابل ذلك».

قالت ليزا وهي ساكنة لا تسمع لها ركزًا: «هل تثق بي حقًا؟ في مثل تلك الحال يجب عليّ... ولكن، لا! فإنه لمن المستحيل».

- ماذا يكون ذلك المستحيل؟ خبريني بربك.. خبريني!

أضافت ليزا قائلة وهي تلتفت تجاه لافريتسكي مبتسمة: «إني أظن حقًا أنه لا يليق بي... على أي حال من الأحوال، ماذا عسى أن تكون فائدة الثقة الناقصة؟ هل تعلم أنني قد تسلمت رسالة اليوم؟

- من بانشين؟

- نعم منه. كيف تأتني لك تخمين ذلك؟

- وهو يطلب يدك؟

أجابت ليزا وهي تنظر إلى لافريتسكي نظرة مستقيمة بعينين جادتين: «نعم».

ونظر لافريتسكي بدوره إلى ليزا نظرة جادة.

وقال لها في النهاية: «حسنًا! وأي إجابة قد أعطيته؟».

قالت ليزا وهي تبسط ذراعيها وتدعهما يسقطان إلى جانبيها: «لا أدري بماذا أجيب».

- لماذا؟ هل تميلين إليه؟

- نعم أميل إليه، فإني أظن أنه رجل طيب.

- إن ذلك هو بالضبط ما قلت لي منذ ثلاثة أيام مضت، وبالكلمات نفسها، ولكن ما أريد أن أعرفه هو هل تحبينه... تحبينه بذلك الإحساس القوي العاطفي الذي نسميه عادة (الحب)؟».

- إذا كان بالمعنى الذي تفهمه، فلا.

- أأنت عاشقة له؟

- لا. ولكن هل ذلك ضروري؟

- ماذا تعنين؟

والت ليزا حديثها: «إن ماما تميل إليه، إنه طيب، وأنا لا أجد فيه عيبًا».

- هل ما زلت تترددين؟

- نعم. وربما تكون أنت، أو تكون كلماتك سبب ذلك التردد. هل تذكر ما قلته قبل البارحة؟ ولكن ذلك كله ضعف وخور.

صاح لافريتسكي فجأة، واهتز صوته وهو يتكلم: «أوه، يا طفلي..

لا تكوني متشائمة في حكمتك ولا تصمي بوصمة الضعف صرخة قلبك، تلك الصرخة التي تأبى أن تفصح عن نفسها من دون حب.. لا تأخذي على كاهلك مثل هذه المسؤولية الخطيرة تجاه ذلك الرجل الذي لا تحبينه، والذي على وشك أن تنتسبي إليه».

بدأت تقول: «سوف أطيع فقط، وسوف لا آخذ شيئاً على عاتقي».

قال لافريتسكي مقاطعاً لها: «إذن أطيعي قلبك، فهو فقط الوحيد الذي سوف يصدقك النصيح. الحكمة والتجربة... كل ذلك باطل محض وعناء، لا تحرمي نفسك الأفضل، والسعادة الوحيدة الحقيقية في الحياة».

- وهل تتحدث بذلك الأسلوب يا فيدور إيفانوفتش؟ أنت نفسك قد تزوجت عن حب، فهل كنت سعيداً؟

شبك لافريتسكي يديه فوق رأسه وقال: «آه.. لا تتحدثي عني، فليس في مقدورك أن تكوني فكرة عما يتخيله ولد حدث عديم التجربة نشأ نشأة سخيقة، عما يكون الحب. ولكن على أي حال، بأي حق يدين الإنسان نفسه زوراً، فقد أخبرتك في هذه اللحظة أنني ما ذقت طعم السعادة قط. لا... لقد كنت سعيداً».

قالت ليزا وهي تخفض صوتها، وكانت دائماً تخفض صوتها إذا اختلفت مع الشخص الذي تتحدث إليه، وبالإضافة إلى ذلك كانت تشعر آتئذٍ بارتباك شديد: «أظن يا فيدور إيفانوفتش أن سعادتنا على الأرض لا تعتمد على أنفسنا!».

- إنها تعتمد على أنفسنا، على أنفسنا.

وهنا قبض على كلتا يديها، فشحب لون ليزا، ونظرت إليه باهتمام، ولكنه كان الاهتمام الذي يكاد أن يكون رعباً: «على أقل تقدير إذا لم نحطم حياتنا بأنفسنا، فإن عند بعض الناس ينتهي زواج الحب نهاية غير سعيدة، ولكن ليس معك، لما أنت عليه من هدوء الطبع وصفاء الروح، وإني لأتضرع إليك ألا تتزوجي من دون حب، لمجرد الشعور بالواجب، وإنكار الذات أو ما شابه ذلك. إن ذلك كله محض خيانة، وفضلاً عن ذلك، فإنه مسألة تقدير، بل هناك ما هو أسوأ. ثقي فيما أقول، ومن حقي أن أقول هذا، وإنه لحق قد كلفني غالباً، وإذا كان آلهك...».

وفي تلك اللحظة أحس لافريتسكي أن لينوتشكا وشورتشكا كانتا تقفان بجانب ليزا، وهما تحملقان فيه بتعجب شديد، فترك يد ليزا تسقط من يده وهو يقول متسرعاً: «سامحيني» وسار ميمماً شطر المنزل.

قال، وهو يعود إلى ليزا: «يوجد شيء واحد أريد أن أسألك إياه، لا تتخذي قراراً الآن، ولكن تمهلي قليلاً وتدبري ما قلت لك، ولو كنت لا تصدقين كلامي، وكنت قررت الزواج حسب مقتضيات الحكمة والعقل، حتى في تلك الحال فإن م. بانشين ليس بالرجل الذي يجدر بك الزواج منه. يجب ألا يكون زوجك، عديني ألا تكوني متسبعة في قرارك، ألا تعديني؟».

رغبت ليزا في الإجابة، ولكن لم يكن باستطاعتها أن تتفوه بكلمة واحدة، لا لأنها عزمت على ألا تكون «متسبعة»، ولكن لأن قلبها كان ينبض بقوة، واستولى عليها شعور يشبه الشعور بالخوف أوقف تنفسها.

الفصل الثامن والعشرون

وبينما كان لافريتسكي يغادر منزل آل كالييتين قابل بانشين وتبادل معه تحية فاترة، ثم ذهب إلى البيت وأوى إلى حجرته، وأوصد بابها وخبر الأحاسيس التي لم يكن قد خبرها من قبل إلا نادرًا. هل مضى زمن طويل عليه وهو في حالة خدار هادئ؟ هل مضى زمن طويل عليه عندما أحس، كما عبر عنه، أنه استقر في صميم قاع النهر؟ فما الذي غير أحواله؟ وما الذي طفا به إلى السطح، وإلى ضوء النهار؟ هل كان حدثًا مألوفًا محتومًا أكثر من جميع الأحداث الأخرى المحتمومة، ولو أنه غير متوقع دائمًا... الموت؟ نعم. ولكن مع ذلك فلم يكن موت زوجته، أو حرته الشخصية تشغل فكره، ولكن هذا السؤال: ماذا عسى ستكون إجابة ليزا إلى بانشين؟ هو الذي يشغله.

شعر أنه في غضون الأيام الثلاثة الماضية قد بدأ يرقب ليزا بعينين مختلفتين. تذكر أنه عندما كان عائدًا إلى البيت وهو يفكر فيها في صمت الليل قال لنفسه: «إذا!» هذه الكلمة التي كان يشير بها إلى الماضي وإلى المستحيل، هذه الكلمة تنطبق على واقع الأمور، ولكنها لم تكن تمامًا كما ظن آنذ. فالحرية وحدها الآن قليلة الفائدة له. وفكر قائلاً: «سوف

تطيع أمها، وسوف تتزوج من بانشين. ولكن حتى إذا رفضته، ألا يكون الحال فيما يخصني سيان؟» وإذ كان يمر أمام امرأة في تلك اللحظة نظر إلى وجهه على صفحتها نظرة سريعة، ثم هز كتفيه.

وفي أمثال هذه الأفكار مضى اليوم سريعاً. وجاء المساء وذهب لافريتسكي إلى دار أسرة كاليتين، وقد سار بسرعة حتى إذا ما اقترب من المنزل هدأ المسير. كانت عربة بانشين تقف أمام الباب. فكر لافريتسكي قائلاً:

«حسناً، إذن هم بداخل البيت، سوف لا أكون أثراً».

لم يقابله أحد بالداخل، وبدأ كل شيء هادئاً في حجرة الاستقبال. فتح الباب فوجد مدام كاليتين تلعب الورق (لعبة الاثنين وثلاثين) مع بانشين، وانحنى ذلك السيد له صامتاً، وصاحت سيدة الدار قائلة: «حسناً! وهذا سرور لم نكن نتوقعه» ثم قطبت وجهها قليلاً.

جلس لافريتسكي بجوارها وبدأ ينظر إلى أوراقها.

صاحت قائلة: «إذن أنت تعرف لعبة الاثنين وثلاثين؟».

وشاب صوتها ظل من الضيق الخفي، ثم أشارت بأنها قد ألقت بورقة خطأ.

عدّ بانشين تسعيناً وشرع يلعب دوره في هدوء وبأدب، وقد حمل وجهه تعبيراً صارماً وقوراً. هكذا كان، كما ظن، يجب أن يلعب الدبلوماسيون. هكذا اعتاد، في جميع الاحتمالات، اللعب مع رجل ذي مقام ونفوذ من سانت بطرسبرج أراد أن يشعره بما هو عليه من صلابة وقريحة متوقدة بفكرة موائمة «مائة وواحد، مائة واثنان، الكوبة (ورقة لعب

على شكل القلب) مائة وثلاثة» قال بنغمات صوته ذي الإيقاع، ولم يستطع لافريتسكي أن يقول عن أيهما كانت تعبر، عن الكراهية أم عن الثقة.

سأل لافريتسكي، حين كان بانشين وما زالت عليه سمة الوقار أكثر من ذي قبل، ويهم بخلط الورق دون أن يلوح على وجهه أي أثر من ملامح الفنان آنئذ: «ألا يمكنني مقابلة مارفا تيموفيفنا؟».

أجابت ماريا ديمترييفنا: «أظن ذلك، فهي في الطابق العلوي في حجرتها الخاصة، ويمكنك السؤال عنها».

صعد لافريتسكي إلى الطابق العلوي ووجد مارفا تيموفيفنا تلعب الورق أيضًا. كانت تلعب دوروتشكا مع ناستاسيا كاربوفنا. نبحت عليه روسكا، ولكن كلتا السيدتين المستتين استقبلته مرحبتين، وكانت مارفا تيموفيفنا تبدو طليقة المحيا معتدلة المزاج.

قالت: «آه، يا فيديا! تفضل بالجلوس، هذا هو رجل طيب. سوف نفرغ من لعبنا على الفور. هل تفضلت بتناول بعض الحلوى المحفوظة؟ اعطه يا شورتشكا علبة مربى الفراولة. ألا تريد أن تتناول بعضها؟ حسنًا إذن، اجلس حيث أنت. أما عن التدخين، فيجب ألا تقربه؛ إذ لا يمكنني احتمال رائحة تبغك القوية، وزيادة على ذلك سوف يجعل ماتروس تعطس».

وسارع لافريتسكي يؤكد لها أنه ليس عنده أدنى رغبة في التدخين.

سألت السيدة العجوز: «هل كنت في الطابق السفلي؟ ومن وجدت هناك؟ هل بانشين ما زال موجودًا هناك لا يبرح مكانه. ولكن هل رأيت

ليزا؟ لا. كان يجب أن تحضر إلى هنا. ماذا، ها هي ذي تحضر بمجرد ذكر اسمها (افتكرنا القط جاءنا ينط)).

دخلت ليزا الغرفة ووقع بصرها على لافريتسكي فتورد وجهها. وبدأت الحديث قائلة: «لقد جئت للحظة وجيزة يا مارفا تيموفينا». سألت السيدة العجوز: «ولماذا للحظة وجيزة؟ لماذا أنتم جميعاً يا معشر الشباب قلقون هكذا؟ فأنت ترين أن عندنا زائر هناك. تسامري معه وكوني مسلية له».

جلست ليزا على حافة مقعد ورفعت عينيها إلى لافريتسكي، وشعرت لتوها أنه ليس بمقدورها سوى أن تطلعه على نتيجة مقابلتها لبانشين، ولكن كيف يمكن تدبير هذا؟ وشعرت في الوقت نفسه بالحيرة والخجل. هل مضى مثل هذا الوقت القصي منذ تعرفت إلى ذلك الرجل الذي لا يذهب إلى الكنيسة إلا لماماً، وهو أيضاً الذي تلقى موت زوجته بمثل هذا السلوك. ومع ذلك فقد كانت تكشف له عن أسرارها. لقد كان حقاً يهتم لها، وبذلك فقد أمنت إليه ووثقت به من جانبها وشعرت بالميل إليه، ولكن على الرغم من هذا، فقد استشعرت لوناً من الخجل المتواضع، كأن غريباً قد اقتحم عليها مخدعها الطاهر البتول.

وجاءت مارفا تيموفينا إلى نجدتها.

قالت: «حسناً، إذا كنت لا تسليته، فمن ذا الذي سيسليه، هذا الفتى المسكين؟ فأنا عجوز لا أصلح له، وهو بارع جداً فلا يصلح لي، أما عن ناستاسيا كاربوفنا، فهو من الكبر بحيث لا يصلح لها. فهي لا تعنى إلا بالأولاد فقط».

«كيف يمكنني أن أسلي فيدور إيفانوفتش؟» قالت ليزا: «إنني أفضل أن أعزف له بعض الألحان على البيانو (المعزف) إذا رغب في ذلك». هكذا استمرت في حديثها مترددة.

أجابت مارفا تيموفينا: «هذا عظيم، وأنت مخلوق بارع، اذهبا أيها العزيزان إلى الطابق السفلي، وعودا عندما تفرغان، ولكن أنا الآن قد صرت الدوروتشكا؛ ولذا فأنا قاسية ولا مناص من أن أثأر لنفسي^(١)». نهضت ليزا من مقعدها وحذا لافريتسكي حذوها. وبينما ليزا ذاهبة إلى الطابق السفلي توقفت.

بدأت قائلة: «إن ما يقولونه لهو الحق، إن القلب الإنساني مملوء بالمتناقضات. كان من الواجب أن تفرغني عبرتك، وأن تجعلني أكفر بزواج الحب، ومع ذلك فأنا...».

فقال لافريتسكي مقاطعاً إياها: «لقد رفضته؟».

- لا، ولكن لم أقبله أيضاً. لقد أخبرته بكل شيء - بكل شعوري في ذلك الموضوع - وسألته أن يترث قليلاً، فهل يرضيك هذا؟ ثم سألته بابتسامة مفاجئة، وتركت يدها تمر سريعاً على الدرايزين، ثم جرت إلى الطابق السفلي.

سألته إذ فتحت المعزف: «ماذا أعزف لك؟».

فأجاب لافريتسكي وهو يأخذ مقعده بحيث يمكنه أن ينظر إليها: «أي شيء تحبين؟».

(١) في لعبة الدوروتشكي فإن اللاعب الذي يبقى الأخير يسمى الدورتشوك واللعبة الدوروتشكا، ومعناها الأبله والبلهاء. وهي تشبه إلى حد ما «العزب العجوز»، «العزبة العجوز».

بدأت ليزا العزف واستمرت هكذا بعض الوقت دون أن ترفع عينيها عن أصابعها، وفي النهاية نظرت إلى لافريتسكي، ثم توقفت عن العزف وبدأت ملامح وجهه غريبة عليها غير مألوفة لها.

فسألته: «ما خطبك؟».

أجاب قائلاً: «لا شيء. كل شيء على ما يرام معي الآن، فإني أشعر بالسعادة بفضلك، فإن النظر إليك يسعدني ويدخل السرور إلى قلبي، فتفضلني بالاستمرار في العزف».

قالت ليزا بعد مرور لحظات قليلة: «أظن أنه إذا كان حقاً قد أحبني، لكان من الواجب عليه ألا يكتب ذلك الخطاب، ولوجب أن يحس أنه ليس بمقدوري الرد عليه الآن».

قال لافريتسكي: «ذلك لا يهم، إن ما يعينني هو إنك لا تحبينه».

- قف.. ما هذا الذي تقول! إن صورة زوجتك المتوفاة تلازمي دائماً، وإني أشعر بالخوف منك.

وكانت مدام كاليتين تسأل بانشين في تلك اللحظة: «ألا تجيد ابنتي العزيزة ليزا العزف؟».

أجاب بانشين: «نعم، إنها تجيد العزف إلى أقصى حد».

فنظرت مدام كاليتين في رقة وحنان إلى شريكها الشاب، ولكن ظل يتتحل مظهر الرجل الخطير مشغول الفكر، ونادى أربعة عشر (باش) (الملك في ورق اللعب).

الفصل التاسع والعشرون

لم يعد لافريتسكي في ميعة الصبا وشرخ الشباب، ولم يستطع أن يخدع نفسه طويلاً بطبيعة الإحساس الذي أوحى به إليه ليزا؛ ففي ذلك اليوم اقتنع نهائياً أنه يهيم بها حباً، ولم يبعث هذا الاقتناع السرور في قلبه.

فكر قائلاً: «هل من المحتمل، وأنا في الخامسة والثلاثين ليس لديّ ما أفعله سوى أن أستودع قلبي للمرة الثانية عناية امرأة؟ ولكن ليزا لا تشبهها (زوجته) فما كانت لتطلب مني تضحيات مهينة، وما كانت لتضلني بعيداً عن أعمالي، بل على النقيض، كانت تلهمني بنفسها حب العمل الشريف الشاق، ولسرنا قدماً جنباً إلى جنب نحو هدف نبيل». وقال وهو يضع حداً لتأملاته: «نعم، إن كل ذلك حسن جداً، ولكن أسوأ ما في الأمر أنها لن تذهب معي إلى أي مكان أذهب. ولم يكن دون داع أنها أخبرتني بأنها تخشاني. أما من حيث إنها لا تعشق بانشين، فما هذه إلا تعزية عقيمة».

ذهب لافريتسكي إلى فاسيليفسكوي، ولكنه لم ينجح في المكث هناك سوى أربعة أيام، وقد بدت له مضجرة مملة، وبجانب هذا، فقد عذبه الانتظار والترقب. فإن الخبر الذي قد نقله م. جولس يفتقر إلى تأكيد، فهو لما يتسلم بعد أي خطابات. عاد إلى المدينة وأمضى المساء في دار آل كاليتين، وقد استطاع أن يرى بسهولة أنهم قد أحفظوا مدام كاليتين عليه، ولكنه استطاع أن يلطف من حفيظتها قليلاً بخسارة خمسة عشر روبلاً معها في لعبة الاثنين وثلاثين. وحاول جاهداً أيضاً أن يحصل على نصف ساعة مع ليزا على انفراد، على الرغم من توصية أمها لها، بالأمس فقط، ألا تكون صفية لرجل هو أضحوكة كبيرة.

وجد لافريتسكي أن تغيراً طرأ عليها، بدت شاردة الفكر أكثر من ذي قبل، وأنحت عليه باللائمة لأنه توقف بعيداً، وسألته ألا يرغب في الذهاب إلى الكنيسة في اليوم التالي، فقد كان اليوم التالي يوم الأحد.

واستطردت قائلة قبل أن يتاح له الوقت للإجابة: «أرجوك أن تجيء، سوف نصلي معاً من أجل أن يهب روحها الراحة» ثم أضافت قائلة: إنها لا تدري ماذا تصنع؟ لا تدري إذا ما كانت على حق في أن تجعل بانشين ينتظر قرارها أكثر مما فعل.

فسألها لافريتسكي: «لماذا؟».

فأجابت قائلة: «لأنني بدأت أستريب في هذا الوقت، ماذا عسى أن يكون ذلك القرار؟».

ثم قالت إن الصداق قد ألم بها، وذهبت إلى حجرتها بعد أن لوحث بيدها - وقد جمعت أطراف أناملها- إلى لافريتسكي.

وفي اليوم التالي ذهب لافريتسكي إلى قداس الصباح، وكانت ليزا قد بادرت بالذهاب إلى الكنيسة، فوجدها هناك عند دخوله، ولاحظها على الرغم من أنها لم تنظر تجاهه. صلت بحماسة وقد أشرفت عيناها بنور هادئ، وانحنت في هدوء ورفعت رأسها.

أحس أنها تصلي من أجله أيضًا، فملأت روحه عاطفة غريبة، فالناس الواقفون في خشوع ووقار حوله، والوجوه المألوفة لديه، والترنيم حسن الإيقاع، وشذا البخور، والأشعة الطويلة المائلة التي تتخلل النوافذ، وكأبة الجدران نفسها والأقواس، جميعها كانت محبة إلى قلبه. لقد مضى زمن طويل منذ كان في الكنيسة لآخر مرة، ومنذ أن وجه أفكاره نحو الله، وحتى هذه اللحظة لم ينطق بأي كلمات لصلاة، كما أنه لم يصل دون كلمات، وعلى الرغم من ذلك، فإذا لم يكن بجسمه، فعلى الأقل بعقله، فقد طأطأ رأسه وانحنى بتدلل إلى الأرض. وتذكر كيف أنه في أيام طفولته، اعتاد أن يصلي دائمًا في الكنيسة حتى يحس على جبينه شيئًا ما يشبه لونا من لمسات النور، واعتاد أن يفكر قائلاً: «إن ذلك ملاكي الحارس، يزورني ويطبّع عليّ خاتم الاختيار» ونظر إلى ليزا وفكر قائلاً: «إنك أنتِ التي جئت بي إلى هنا، المسيني، المسي روعي...» بينما كانت منصرفة إلى صلاتها في هدوء. وبدا له وجهها مفرحًا. ومرة أخرى أحس بالهدوء، وسأل الله راحة من أجل روح أخرى ولروح الغفران. تقابلًا في السقيفة واستقبلته بنظرة ودية من السعادة الصادقة، وأضاءت الشمس الوضوء العشب النضر في حوش الكنيسة، كما أضاءت ثياب وعصابات رؤوس النساء كثيرة الألوان.

جلجلت أجراس الكنائس المجاورة عاليًا، وزقزقت العصافير
الدورية على الجدران، ووقف لافريتسكي يتسّم وهو حاسر الرأس،
وقد داعب نسيم الهواء شعره وشعر ليزا أيضًا، كما تلاعب بأطراف
خيوط قبعاتها. أجلس ليزا ورفيقتها لينوتشكا في العربة، وأعطى كل ما
يملك من نقود صغيرة إلى الشحاذين، ثم مشى على مهل إلى البيت.



الفصل الثلاثون

كانت الأيام التالية أيام غم وكآبة للافريتسكي، فقد كان يحس أنه يعاني حمى متصلة، وكان يذهب إلى مكتب البريد كل صباح ويفض الخطابات والصحف بصبر نافذ، ولكنه لم يجد في أيها ما يؤيد أو يعارض الشائعة التي أحس أن على صدقها يتوقف الكثير. وكان يشعر بالاستياء من نفسه في بعض الأحيان، وهو يفكر حينئذ: «ماذا أكون أنا الذي أنتظر هنا، كما ينتظر الغداف (غراب أسود كبير الحجم يعتبر نذير شر) الدماء، لنبأ موت زوجتي؟».

كان يتردد على بيت آل كاليتين كل يوم، ولكن هناك أيضًا لم يجد الراحة. وكان من الواضح أن سيدة البيت تبدو معتلة المزاج معه، وكانت تعامله بود فاتر. وكان بانشين يبالغ في إظهار الأدب له، وصار ليم مبغضًا للبشر، وقلما رد تحيته. وأسوأ ما في الأمر ما بدا له من أن ليزا تتحاشاه، فإذا ما حدث أن تُركت وحيدة معه، ظهرت عليها أمارات الحيرة والارتباك بدلًا من صراحة وصفاء الأيام الخوالي. وفي أمثال هذه المناسبات لم تكن تعرف ماذا تقول له، وكان يشعر من جانبه بالحرَج

والاضطراب. وفي مدى أيام قليلة كانت ليزا قد تغيرت عما يذكر أنها كانت عليه من صفات، ففي حركاتها وفي ضحكتها نفسها أيضًا كان قلق خفي يفصح عن نفسه، شيء مختلف عن اعتدال مزاجها السابق، إن أمها كأني أناني قح لم تشك في شيء، ولكن مارفا تيموفينا بدأت ترقب عزيزتها عن كثب.

أنحى لافريتسكي على نفسه باللائمة لأنه أطلع ليزا على الصحيفة التي كان قد تلقاها، ولم يستطع أن يتحامي الشعور بأن في حالته ما ينفر منه النفس الرقيقة، وظن أيضًا أن التغيير الذي طرأ على ليزا نتج عن صراعها مع نفسها، ومن شكها في الإجابة التي يجب عليها أن تعطيها لبانشين.

وذات يوم أعادت إليه كتابًا -إحدى روايات ولترسكوت- كانت قد طلبته بنفسها منه.

سألها: «هل قرأته؟».

أجابته وهي تهتم بالانصراف: «لا، فلست في حالة تسمح بقراءة الكتب في الوقت الحاضر».

قال لها: «انتظري لحظة، فقد مضى وقت طويل منذ أن تحدثت إليك بمعزل عن الناس. أنت تبدين خائفة مني، فهل الأمر كذلك؟».

- نعم.

- ولكن لماذا؟

- لا أعلم.

ظل لافريتسكي بعض الوقت لا ينس بينت شفة.

ثم عاود الحديث سريعاً: «أخبريني، ألم تستقري على رأي بعد؟».

أجابت دون أن ترفع عينيها من الأرض: «ماذا تعني؟».

- إنك تفهميني بكل تأكيد.

فاحمرت ليزا خجلاً فجأة.

وصاحت قائلة في انتعاش ونشاط: «لا تسألني عن شيء، فلا أدري

شيئاً، لا أعرف نفسي».

ثم انصرفت مسرعة.

وفي اليوم التالي وصل لافريتسكي إلى دار آل كالييتين بعد الغداء،

ووجد الاستعدادات على قدم وساق لإقامة قداس مسائي. ففي ركن من

حجرة الطعام عدد من الأيقونات^(١) الصغيرة في إطارات ذهبية رصعت

بماسات شعاعها الهالي الذي يحيط بالصورة معتم. كانت هذه الأشياء

قد وضعت على الحائط فوق نضد مربع عليه غطاء أبيض ناصع. عبر

الحجرة من أقصاها إلى أقصاها متتداً متروياً هادئاً، خادم مسن يرتدي

معطفاً رمادياً وينتعل حذاء، ووضع شمعدانين رفيعين بهما شموع أمام

الأيقونات، ثم رسم إشارة الصليب وانحنى، ثم غادر الحجرة في صمت.

كانت حجرة الاستقبال خالية ومظلمة، فدخل لافريتسكي حجرة

الطعام، وسأل عما إذا كانت المناسبة يوم تسمية^(٢) لأحد أفراد الأسرة.

فأجيب عن سؤاله في همس بأنه ليس يوم تسمية أحد، ولكنه قداس

(١) الأيقونة: صورة مقدسة.

(٢) يحتفل الروس لا بيوم ميلاده ولكن بيوم اسمه، وهو اليوم الذي تخصصه الكنيسة تكريمًا للقديس الذي يحمل الشخص اسمه.

يقام نزولاً على رجاء ليزافيتا ميخائيلوفتش ومارفا تيموفيفنا، وكان من الواجب إحضار صورة صانع المعجزات، ولكنها كانت قد ذهبت إلى شخص مريض يقيم على بعد ثلاثين فرسًا.

وسرعان ما وصل الكاهن مع سدنته، وهو رجل في منتصف العمر قد خلت بقعة كبيرة برأسه من الشعر، وكان يسعل بصوت مرتفع في الدهليز، وخرجت السيدات فوراً من خدورهن في صف واحد وطلبن منه البركة.

انحنى لافريتسكي لهن في صمت فقابلن تحيته بمثلها في صمت أيضاً، وظل القس في مكانه وقتاً قصيراً، ثم سعل مرة ثانية وسأل في صوت خفيض عميق:

– هل تردن مني أن أبدأ؟

أجابت ماريا ديمتريفنا قائلة: «تفضل بالبدء أيها الأب الموقر».

بدأ القس يرتدي ثيابه الكهنوتية وسأل قندلفتاً^(١)، يرتدي حلة كهنوتية بيضاء، بعض الفحم من الموقد، وبدأ عطر البخور يضوع المكان، وجاء الخدم والخادومات من الحجرة المجاورة وظلوا وقوفاً متراسين عند الباب، وظهرت الكلبة روسكا التي ما نزلت قط قبل ذلك من الطابق العلوي، ظهرت فجأة الآن في حجرة الطعام، وحاول الخدم طردها خارجاً، ولكنها فزعت وجرت هنا وهناك أولاً، ثم ربضت في مكانها، وأخيراً جاء خادم وحملها بعيداً.

(١) سادن أو خادم الكنيسة

بدأت الخدمة الدينية، وانسحب لافريتسكي إلى ركن. كانت مشاعره تكاد تكون مؤلمة، ولم يتمكن هو نفسه من تحديد كنه ما شعر به. وقفت ماريا ديمتريفنا أمام الآخرين وخلفها مقعد ذو متكأ، رسمت إشارة الصليب في غير اهتمام وفي فتور كما تفعل السيدات العظيمات، وكانت في بعض الأوقات تنظر حولها، وفي أوقات أخرى ترفع عينيها بغتة إلى السقف. وكان من الواضح أن كل ما يجري حولها يضجرها، وكانت مارفا تيموفيفنا تبدو شاردة الفكر، وانحنت ناستاسيا إلى الأرض ثم انتصبت ثانية بصوت هادئ متواضع. أما ليزا فلم تتحرك من المكان الذي كانت تقف فيه، ولم تغير من وضعها عليه. وكان يتضح من تعبيرات وجهها الحاشدة أنها تصلي بلا انقطاع وبحرارة.

وفي نهاية الخدمة اقتربت من الصليب وقبلته، كما قبلت يد القس الكبيرة الحمراء، ودعته مارفا ديمتريفنا لتناول الشاي، فخلع عنه البطرشيل^(١)، وبدأ في مظهر رجل الدنيا، وذهب إلى حجرة الاستقبال مع السيدات، وبدأ حديث يدور بينهم، ولكنه لم يكن حديثاً طليئاً ولا ممتعاً، وشرب القس أربع أكواب من الشاي، وهو يجفف الجزء الأصلع من رأسه بمنديله، وذكر في خلال حديثه أن التاجر أفوشنيكوف قد وهب سبعمئة روبل لطلاء حجاب الهيكل في الكنيسة بماء الذهب، كما منح الجمعية دواء لا يخيب لنمش البشرة.

حاول لافريتسكي أن يحصل على مقعد بجوار ليزا، ولكنها احتفظت بمظهرها الرزين الجهم تقريباً، ولم تنظر إليه مرة واحدة

(١) عباءة الكاهن الموشاة بخيوط الذهب والفضة.

قط، وبدأ أنها تتجاهله عن عمد. وظهر أن ثمَّ حماسًا خطيرًا، باردًا قد تملكها، ولسبب أو لآخر أحس لافريتسكي بميل إلى الابتسام وإلى أن يتحدث حديث الفكاهة، ولكن قلبه كان مضطربًا، وانصرف في النهاية وهو يعاني حيرة خفية، فقد أحس أن في عقل ليزا شيئًا لا يستطيع أن يدرك كنهه.

وفي مناسبة أخرى، كان لافريتسكي يجلس في قاعة الاستقبال يصغي إلى النغمات الساحرة في شقشقة لسان جيديونوفسكي المملة. التفت حوله فجأة، ولم يدر لماذا التفت، فلمح النظرة العميقة اليقظة المستفسرة في عيني ليزا.

كانت تلك النظرة المبهمة موجهة إليه، فظل الليل بطوله يفكر فيها. لم يكن حبه يشبه حب الصبي اليافع، كما أنه لم يكن حبًّا يتناسب مع سنه حتى يصعد التنهدات ويعذب نفسه. وفي الحقيقة أنه لم يكن شعورًا ذا طبيعة عاطفية فحسب، هذا الشعور الذي أوجست به ليزا إليه، ولكن الحب له آلامه في جميع الأعمار، ولقد صار يعرف الآن هذه الآلام كل المعرفة.



الفصل الحادي والثلاثون

و ذات يوم كان لافريتسكي على مألوف عادته في دار آل كاليتين، وكان الحر بعد الظهر شديد الوطأة أعقبه مساء بلغ من جماله أن مدام كاليتين، رغمًا عن نفورها المعتاد من تيار الهواء، أمرت بفتح جميع النوافذ والأبواب المؤدية إلى الحديقة، وأعلنت -زيادة على ذلك- أنها لن تلعب الورق، فإنها لجريمة أن تفعل ذلك في مثل هذا الطقس الجميل المحبب، وإن الواجب أن تستمتع بمفاتيح الطبيعة.

كان بانشين القريب الوحيد بين الحاضرين، ولما كان قد تأثر بتلك الأمسية وأحس بفيض من العواطف الفنية ينساب في نفسه، وكان لا يريد الغناء بمحضر من لافريتسكي، فقد طفق ينشد الشعر، أنشد، وأجاد الإنشاد، ولم يؤخذ عليه سوى أنه عرض للمشاعر عرضًا جاوز الاعتدال، وميز تمييزًا دقيقًا دون ضرورة بين بعض أشعار ليومنتوف (لم يكن بوشكين قد نجح في احتلال صدارة الشعر ثانية) وبدأ على

حين غرة، وكأنه يخجل من عاطفته وهو يذكر قصيدة دوما المشهورة^(١) ينحي باللائمة على الجيل الجديد ويهاجمه، وأضاع الفرصة التي أتاحها له الموضوع لكي يبين كيف أنه إذا ما آلت السلطة إلى يديه، سيغير جميع الأوضاع في بلاده.

قال: «إن روسيا قد تخلفت عن أوروبا، ويجب أن ندفعها قدمًا حتى تسير معها جنبًا إلى جنب، لقد قالوا لنا إن بلادنا شابة حديثة وذلك كله هراء. زد على ذلك أنه لا قدرة لنا على الابتداء. ويعترف خوماكوف^(٢) نفسه بأننا ما اخترعنا قط أكثر من مصيدة الفئران، وتبعًا لهذا فنحن مرغمون على تقليد الآخرين سواء أردنا أو لم نرد.

يقول ليرمونتوف: «نحن مرضى» وأنا أوافق. ولكننا مرضى لأننا أصبحنا نصف أوروبيين، ويجب أن نتداوى بالذي كان داءنا (جال بفكر لافريتسكي تقويم الأراضي) استمر يقول: «إن بيننا الرؤوس الجبارة التي اقتنعت بهذا منذ زمن طويل. وفي الحقيقة أن جميع الشعوب متشابهة، فما عليك إلا أن تدخل الأنظمة الصالحة ثم يستقر الوضع. وكن متأكدًا أن من الممكن التجاوز عن الحياة القائمة في الأمة، وهذا عملنا، وهو عمل الذين (كان على وشك أن يقول يحترفون السياسة) يعملون في ميدان الخدمة العامة، ولكن إذا دعت الحاجة، فلا تكن قلقًا، فإن تلك النظم سوف تغير الحياة نفسها».

(١) بخصوص هذه القصيدة، انظر ترجمتها في آخر هذا الفصل «الدوما» هو البرلمان الروسي المنعقد في الفترة من ١٩٠٥ - ١٩١٧.

(٢) شاعر، وأحد قادة الحزب السلافي.

وافقته ماريا ديمترييفنا في إعجاب وفكرت قائلة: «يا له من رجل بارع الحديث، هذا الذي معنا في بيتي الآن!». .

وصمت ليزا وهي تميل إلى خلف في تجويف النافذة، وصمت لافريتسكي أيضًا. وتمتت مارفا تيموفيفنا التي كانت تلعب الورق في ركن مع صديقتها، شيئًا ما لنفسها، وكان بانشين يذرع الأرض إقبالًا وإدبارًا وهو يتحدث ويجيد الحديث، ولكنه الحديث المشوب بلون من الحقد المكبوت. وبدا وكأنه لا يلوم الجيل بأكمله بقدر ما يلوم بعض الأفراد من معارفه. وكان عندليب قد بنى عشه في أكمة كبيرة من أشجار الليلاك^(١) كانت تشمخ بقمتها نحو السماء في حديقة آل كاليتين، فبلغت الأسماك بشائر شذوه في أنشودته المسائية في أثناء الوقفات التي تخللت خطاب بانشين البليغ، وبدأت طلائع النجوم تشتعل في السماء الوردية التي تعلو هامات أشجار الزيزفون الساكنة. ونهض لافريتسكي لفوره وبدأ يرد على بانشين، وسرعان ما بدأت معركة حامية.

تحدث لافريتسكي مدافعًا عن شباب روسيا، وعن قدرة البلاد على سد حاجتها بنفسها. وقد استسلم هو ومعاصروه، ولكنه قام لنصرة الجيل الجديد وأمانهم ومعتقداتهم.

أجاب بانشين بصراحة وحدة معلنًا أن من واجب البارعين أن يصلحوا كل شيء. وفي النهاية جرفه حماسه إلى حد نسي فيه مركزه كأمين في القصر الإمبراطوري، وجاوز حدوده اللاتقة بوصفه عضوًا في الخدمة المدنية، فوصف لافريتسكي بأنه محافظ رجعي، وأشار -وهو

(١) شجرة ذات زهر أبيض يظهر في عناقيد.

على حق إلى حد بعيد - إلى وضعه الزائف في المجتمع.

لم يحتد لافريتسكي، ولم يفقد صوابه، ولم يرفع صوته، وتذكر أن ميخائيليفتش قد دعاه رجعيًا، وفي الوقت نفسه، أحد حواربي فولتير أيضًا. ولكنه هزم بانشين في كل نقطة من نقاط النقاش. وبرهن على أن الإصلاح بطفرة مفاجئة أمر يتعذر العمل به. وأن إدخال تغييرات خططتها الكبرياء لإرضاء الغرور الشخصي الرسمي تغييرات لا تبررها معرفة صادقة بالبلاد، كما لا يبررها إيمان بالمثل العليا حتى ولا إيمان بنقيضها. ولإيضاح هذا قدم تربيته حجة ودليلاً. وطالب قبل كل شيء آخر بضرورة الاعتراف بروح الأمة واحترامها، وبذلك التواضع الذي من دونه لا تتوافر شجاعة حتى ولا تلك الشجاعة التي تعارض الزيف. ولم يذل في النهاية أي محاولة للدفاع عما اعتبره مستحقاً اللوم، وذلك بالاستسلام للإسراف والاستهتار في إنفاق الوقت والقوة.

صاح بانشين أخيراً وهو مغتاظ: «كل ذلك جميل جداً، ولكن هأنت ذا وقد عدت لتوك إلى روسيا، فماذا تنوي عمله؟».

أجاب لافريتسكي: «أفلح الأرض، وأفلحها على أحسن حال، بقدر الإمكان».

أجاب بانشين: «لا شك أن هذا جدير بالشكر والإعجاب، ولقد سمعت أنك قد أحرزت نجاحاً عظيماً في هذا المضمار، ولكن يجب عليك الاعتراف بأنه ليس كل شخص مستعداً لمثل ذلك العمل أو يصلح له».

قالت ماريا ديمترييفنا بالفرنسية: «إن الطبيعة الشاعرية، بكل تأكيد،

لا تستطيع الاستمرار في فلح الأرض. ثم إنها دعوتك يا فلاديمير نيكولايفتش، أن تعمل كل شيء بأسلوب عظيم».

كان هذا كثير جدًا حتى على بانشين الذي تولاه الخجل وغير موضع الحديث، وحاول أن يديره حول جمال السماء المرصعة بالنجوم، وموسيقى شوبيرت، ولكن جهوده -على كل حال- ذهبت أدراج الرياح، وأخيرًا عرض أن يلعب لعبة الاثنين والثلاثين (بورق اللعب) مع ماريا ديمترييفنا، فاعتضت هونًا ما قائلة: «ماذا! أفي مثل هذه الأمسية الجميلة؟» ثم أمرت بإحضار ورق اللعب.

فتح بانشين (حزمة ورق اللعب) في ضوضاء، ونهضت ليزا ولافريتسكي من مقعديهما، كما لو كان هذا باتفاق متبادل، وأخذتا مكانهما بجوار مارفا تيموفيفنا. وأحسا فجأة بشعور غامر من السعادة يخالطه إحساس بالخوف المتبادل جعلهما يسران لوجود شخص ثالث، وفي الوقت نفسه، شعرا معًا بأن القلق الذي قاسيا منه في الأيام الماضية القليلة قد اختفى ولن يعود ثانية.

ربت السيدة العجوز خد لافريتسكي خلسة، وأدارت عينها إلى أعلى وعليها سمة حقد مرضٍ وهزت رأسها مرارًا وتكرارًا، وهي تقول هامسة: «لقد أسديت إلى العبقريّة صنيعةً فشكرًا...» ثم هدأ كل ما في الحجرة، ولم يعد يُسمع سوى قرقرة الشموع الخافتة، أو سقوط يد على النضد في بعض الأحيان، أو صيحة حول ما أحرز اللاعبون من نقاط، أو تغريد العندليب قويًا مرتفعًا عاليًا إلى حد الصلف، وهو ينساب في موجة عظيمة من خلال النافذة تصاحبها برودة الليل بللها الندى.

ملاحظة: السطور التالية ترجمة حرفية معتدلة لقصيدة الشاعر ليرمونتوف -التي سبقت الإشارة إليها بأننا سنوردها في نهاية الفصل - والتي أثارت حماسًا شديدًا عند ظهورها لأول مرة في عام ١٨٣٨.

فكر

في أسى أنظر إلى الجيل الحاضر! إن مستقبله يبدو إما مظلماً، وإما لا معنى له، وفي الوقت نفسه يشيخ في الكسل سواء تحت وقر المعرفة أو عبء الشك.

فما نكاد نغادر المهد، حتى نجني ثمار التراث الغني بالأخطاء التي ارتكبتها آبائنا، ونتائج آرائهم المتأخرة. وسرعان ما تصبح الحياة مملة لنا كوليمة في عيد غريب، أو كطريق ممهد لا يؤدي إلى نهاية.

في بداية حياتنا نسقط صرعى دون نضال، ونستهتر دون حياة بما هو صواب وما هو خطأ، ودون حياة نجبن أمام المخاطر.

هكذا تفعل الثمرة الذابلة التي نضجت قبل الأوان، فهي لا تستهوي النظر ولا يستعذبها الذوق، تتدلى كيتيم غريب بين نور الثمار. وساعة جمالها هي ساعة سقوطها.

لقد نضبت عقولنا في طلب العلم العقيم، في حين كنا نخفي أنقى الآمال عن هؤلاء الذين بجوارنا وعن الأعزاء علينا، ونسكت النطق النبيل بمثل هذه العواطف التي يهزأ بها الروح الساخر.

ندر ما تذوقنا كأس الهناء، ولولا كل ذلك لما أتيح لنا أن نحسن
تدبير أوقات شبابنا وقوتنا. فبينما كنا على الدوام في خوف من الشيع،
إذ نجحنا في استنزاف كل سرور من أحسن فضائله.

فأحلام الشَّعر وابتداع الفن لا يمس قلوبنا بطرب عذب وندخر
بشح في صدورنا بقايا الشعور الأخيرة، كنزاً أخفاه البخل، سيبقى من
غير ربح فيه إطلاقاً.

نحن نحب ونكره بنزواتنا، ولا نضحى بشيء في سبيل بغضنا أو
حبنا. إن بروداً خفياً يملك نفوسنا حتى والنار تضطرم في عروقنا.

إن مسرات أسلافنا الثمينة تضنينا، وهكذا تفعل بنا ملاهيهم البريئة
الساذجة، ومن غير أن نستمتع بالسعادة ودون أن نحصد الفخار، نسرع
الخطى إلى قيودنا ولا نلقي سوى نظرات الهزؤ خلفنا.

إن حشداً كثيراً سوف ينسج حوله النسيان خيوطه، ونمضي صامتين
عن هذا العالم ولا نترك أثراً خلفنا، دون أن نسلم الأجيال القادمة عملاً
واحداً من أعمال العبقرية، أو فكراً فريداً حافلاً بالمعاني.

وخلفاؤنا وهم ينظرون إلى ذكرانا بقسوة المواطنين الذين دعوا
للجلوس للحكم في أمور تختص بالدولة، سوف يلمحون لنا في تهكم
مؤذ بقصة الابن الضال، التي يتحدث فيها عن الأب الذي بدد الميراث.



الفصل الثاني والثلاثون

لم تتفوه ليزا بكلمة واحدة في أثناء النزاع الذي قام بين لافريتسكي وبانشين، ولكنها تتبعته باهتمام، وكانت تأخذ بناصر لافريتسكي طوال احتدام الجدل. لم تكن تهتم بالسياسة إلا قليلاً، ولكنها نفرت من نغمة الاكتفاء الذاتي عندما سمعتها من موظف مسؤول يهتم بالشؤون العالمية، ولم يظهر قط على حقيقته من قبل في مثل ذلك الضوء. وأغضبها احتقاره لروسيا. فلم يدر بخلد ليزا أن تتصور أنها كانت متعصبة لوطنها غيرة عليه، ولكنها كانت ترتاح ارتياحاً حقيقياً للشعب الروسي، وسرها وأثلج صدرها ذلك التحول العقلي في روسيا، وودت لو أنها تحدثت لساعات طويلة دون تفكير في أي شيء عنه، مع شيخ القرية في ضيعة أمها عندما جاء إلى المدينة، وكانت تتكلم معه كما لو كان نداءً لها ومن دون إظهار تفضل السادة وتنازلهم، وكل هذا عرفه لافريتسكي جيد المعرفة، وما كان من جهته ليعبأ أبداً بالرد على بانشين، وكان من أجل ليزا وحدها أن تكلم.

لم يقل أحدهما شيئاً للآخر، وحتى عيونهما لم تلتق إلا نادراً. ولكن شعر كلاهما أنه قد ازداد اقتراباً من الآخر في ذلك المساء، فكانا يعرفان أنهما يتفقان في المشارب وفيما يحبان ويكرهان. ولم يختلفا إلا في شيء واحد، ولكن ليزا كانت تأمل أن ترده إلى الله. جلسا قريباً من مارفا تيموفينا وبدا أنهما يتبعان لعبتها. لا، بل أكثر من أن يتبعها، فعلاً. ولكن قلبيهما في الوقت نفسه كانا يطفحان سعادة بين ضلوعهما، ولم يفت إدراكهما شيء، فلهما شدا العندليب شدواً حنوناً، واشتعلت النجوم وهمست الأشجار، وقد غرقت في النعاس الهادئ تهددها حرارة ليالي الصيف ولطفها لتجع.

استسلم لافريتسكي لموجة فتنتها ورقص قلبه طرباً في داخل جسمه. ولكن الكلمات لتعجز عن التعبير عن التفسير الذي كان يعتمل في روح العذراء الطاهرة بجانبه، وكان هذا على ليزا نفسها سرّاً مغلقاً. فليظل، إذن، سرّاً مغلقاً على الآخرين أيضاً، فلا أحد يعرف أبداً، ولم تر عين ولن ترى، كيف تصبح الحبة التي أودعت أطباق الثرى ممتلئة بالحيوية، ثم تنضج نابضة بالحياة الزاهرة.

دقت الساعة العاشرة، وصعدت مارفا تيموفينا إلى حجرتها مع ناستاسيا كاربوفنا، وجال لافريتسكي مع ليزا خلال الغرفة، ووقف أمام الباب المفتوح المؤدي إلى الحديقة، ونظرا إلى الغسق البعيد أولاً، ثم إلى بعضهما بعضاً، وابتسما وبدا لهما أن يأخذ كلاهما بيد الآخر في حبور ويتحدثا مرضاة لقلبيهما.

عادا إلى ماريا ديمتريفنا وبانشين، وكان اللعب قد طال بهما إلى

مدى غير مألوف، وأخيرًا جاءت آخر ورقة (باش) في النهاية، ونهضت السيدة كالييتين من مقعدها المغطى بالحشايا، وهي تنهده وتفوه بكلمات الملال والسامة.

تناول بانشين قبضة يدها وقبّلها وقال ملاحظًا إنه لم يكن هناك ما يحول بين من هم أكثر حظًا، والاستمتاع بهذه الليلة أو التأهب للنوم، أما هو فعليه أن يظل ساهرًا حتى الصباح عاكفًا على أوراق حمق، وانحنى في برود ليلزا التي أغضبتة؛ لأنه لم يكن يتوقع منها أن تستمهله مثل هذا الوقت الطويل لكي تجيب على طلبه يدها، ثم غادر المكان. وتلاه لافريتسكي تواء، وتبعه إلى البوابة حيث استأذنه في الانصراف، أيقظ بانشين حوزيه من نومه وهو يلكره بطرف عصاه في رقبته، وجلس في عربته الخفيفة المفتوحة ذات العجلات الأربع^(١)، وانطلقت العربة في سبيلها، ولكن لافريتسكي لم تكن به رغبة للذهاب إلى البيت، ولذا فقد سار خارج المدينة وجاس خلال الحقول.

كان الليل ساكنًا وصافيًا رغم اختفاء القمر، وجال لافريتسكي فوق العشب المبلل وقتًا طويلًا، وكانت تمتد أمامه طريق صغيرة ضيقة فسار إزاءها. وانتهت به إلى وشيعة (سياج من نبات) كان بها بوابة ذات خادعة (باب صغير في البوابة الكبيرة) فحاول أن يفتح الباب عنوة دون أن يدري سببًا لذلك، وانفتح الباب وهو يصصر صريرًا خافتًا، وكأنه كان على انتظار لمسة يده، وألقى لافريتسكي نفسه في الحديقة، فسار بضع

(١) Drosky أو Drosky عربة خفيفة مفتوحة ذات أربع عجلات، وتستخدم في بلاد روسيا السوفيتية.

خطوات قليلة في الطريقة التي غرست فيها أشجار الزيزفون، ثم توقف فجأة عن المسير وقد شملته الدهشة إذ رأى أنه في حديقة آل كالتين.

ألقت أيكة بندق غليظة قريبة منه بقعة سوداء من الظل على الأرض، فدلف إليها سريعاً ووقف فيها وقتاً دون أن يتحرك منها، وهو يعجب في نفسه ويهز كتفيه من آن إلى آخر، وفكر قائلاً: «إن هذا لم يحدث اعتباطاً».

كان كل شيء حوله ساكناً، ولم ينبعث إليه من المنزل أدنى صوت. فبدأ يتقدم في حذر، وفي ركن من الطريقة أطبق عليه المنزل بواجهته القاتمة فجأة، ولم تكن الأنوار تتلألأ إلا في نافذتين في الطابق العلوي، وفي حجرة ليزا كانت تحترق شمعة خلف الستارة البيضاء، وفي حجرة نوم مارفا تيموفينا كان يتوهج اللهب الأحمر المنبعث من المصباح الصغير المعلق أمام الصورة المقدسة، التي انعكست على غطاءها المموه بالذهب صورة هذا المصباح في ضوء ثابت. وفي أسفل المنزل انفتح الباب المؤدي إلى الشرفة على مصراعيه.

جلس لافريتسكي على مقعد خشبي وأسند رأسه إلى يده، وبدأ ينظر إلى ذلك الباب وإلى نافذة ليزا. جلبل صوت الساعة معلناً منتصف الليل في المدينة، كما دقت في المنزل ساعة صغيرة اثنتي عشرة دقة بصوت واهن، ودق الحارس بدوره الساعة بضربات سريعة على لوحه. لم يفكر لافريتسكي في شيء، كان إحساسه بوجوده على القرب من ليزا وجلوسه في حديقته، وعلى مقعد غالباً ما جلست عليه مصدر سرور له.

اختفى النور من حجرة ليزا.

همس لافريتسكي وهو لا يزال جالسًا حيث كان دون حراك، لا يحول ناظريه عن النافذة التي أظلمت: «أتمنى لك ليلة هادئة أيتها الفتاة العزيزة».

وظهر فجأة نور في إحدى النوافذ في الطابق الأسفل، ثم عبر إلى نافذة أخرى، ثم إلى الثالثة، ففكر لافريتسكي: «هل يمكن أن تكون ليزا؟ كلا، إنها لا يمكن أن تكون هي»، ثم نهض وتلألًا في الظلام وجه يعرفه جيدًا وظهرت ليزا في حجرة الاستقبال ترتدي ثوبًا أبيض ويتدلى شعرها محلولًا فوق كتفيها. وفي هدوء اقتربت من النضد، ثم انحنت فوقه وضوعت عليه الشمعة وبدأت تنظر وقتًا، ثم اتجهت ببصرها نحو الحديقة وعبرت الحجرة إلى الباب المفتوح، وسرعان ما وقف جسمها الرقيق النحيل المتسربل بالثوب الأبيض ساكنًا على العتبة.

سرت رعشة في أعضاء لافريتسكي وأفلتت كلمة «ليزا» من شفثيه ولكنها كانت خافتة.

فزعت ليزا، ثم بدأت تظهر قلقه في الظلام.

نادى لافريتسكي بصوت أكثر ارتفاعًا عن ذي قبل قائلاً: «ليزا» وخرج من ظل الممشى.

ذعرت ليزا وانحنت لحظة إلى الأمام، ثم نكصت على عقبيها، لقد عرفت. فنادها للمرة الثالثة ولوح بيده نحوها، فعبرت مدخل الباب، وجاء هو إلى الحديقة.

قالت: «أنت! أنت هنا!».

همس لافريتسكي: «أنا. أنا. تعالي واستمعي إلى ما يجب أن أفضي به إليك» وحينئذ أخذ يدها وقادها إلى المقعد.

تبعته دون أن تنبس بينت شفة، ولكن وجهها الشاحب، ونظرها الثابتة وكل حركاتها، كانت تشهد بدهشتها التي لا يمكن التعبير عنها أو وصفها. أجلسها لافريتسكي على المقعد وظل واقفاً أمامها.

بدأ قائلاً: «إنني لم أفكر في المجيء إلى هنا، لقد حملتني ساقاي إلى هنا.. أنا... أنا أحبك».

وعلى هذا النحو أنهى حديثه، وهو يشعر بانفعال شديد على الرغم منه.

نظرت إليه ليزا ببطء، وبدا كما لو كانت حتى تلك اللحظة لا تدرك أين كانت وماذا كان يجري معها. كانت تود لو أنها نهضت من مقعدها، ولكنها لم تستطع، وحينئذ خبأت وجهها بين يديها.

صاح لافريتسكي: «ليزا.. ليزا» ثم ركع عند قدميها.

سرت في كتفيها رعدة خفيفة، وضغطت أصابع يديها البيضاوين على وجهها بشدة.

قال لافريتسكي: «ماذا عسى أن يكون الأمر؟» وإذ ذاك سمع نشيجاً خافتاً، فغاض قلبه في جوفه؛ لأنه أدرك ماذا تعني هذه الدموع.

همس قائلاً، وهو يشير بيده إشارات تنطق بالملاطفة والتدليل: «أيمكن أن تكوني تحبينني؟».

تمكنت من أن تقول في النهاية بعد جهد: «انهض، انهض يا فيدور إيفانوفتش، ما هذا الذي تفعل؟».

نهض من ركعته، وجلس بجانبها على المقعد، وكانت قد كفت عن البكاء، ولكن عيناها - وهي تنظر إليه في حماس - كانتا مخضبتين بالدموع.

قالت مرة أخرى: «إنني فزعة... ماذا نحن فاعلون؟». ردد قائلاً: «إنني أحبك، وإنني لعلی استعداد لأن أقدم كل حياتي لك».

ارتعشت ثانية كأن شيئاً قد لدغها، ثم رفعت عينيها إلى السماء. وأجابت قائلة: «إن ذلك كله في يدي الله». - ولكنك تحبيني يا ليزا! سوف نسعد معاً.

أسبلت عينيها فجذبها إليه في رفق، وسقطت رأسها على كتفه، فحنى رأسه قليلاً جانباً وقبّل شفيتها الشاحبتين.

وبعد أن مضى نصف ساعة كان لافريتسكي يقف ثانية أمام بوابة الحديقة. وحين وجده مغلقاً كان مضطراً لأن يتسور سياج الحديقة. عاد إلى المدينة وسار في شوارعها الهاجعة. كان قلبه مفعماً بالسعادة، السعادة الغامرة غير المتوقعة، لقد ماتت كل الهواجس والشكوك في نفسه.

وقال لنفسه: «اغرب عن وجهي يا شبح الماضي الأسود.. إنها تحبني وستكون لي».

وبدا له فجأة أنه يسمع أصواتًا ظافرة غريبة تسبح في الهواء فوق رأسه. توقف عن المسير وانطلقت الأصوات مصلصلة في جلال أعظم من ذي قبل، وفاضت في تيار قوي جهير - وكانت فيها - كما بدا له سعادته تتحدث وتغني. وتلفت حواليه، جاءت الأصوات من النافذتين العلويتين في منزل صغير.

صاح مناديًا: «ليم» وجرى صاعدًا إلى باب المنزل، ثم ردد قائلاً بصوت مرتفع: «يا ليم، يا ليم».

تلاشت الأصوات وظهر شبح الرجل العجوز في النافذة، وقد التفت في نشير وتعرى صدره وسبح شعره دون ضابط.

قال وعليه سمة الاهتمام: «ها! هذا أنت يا خرستوف فيدروفتش! ما أجمل الموسيقى.. بربك ألا سمحت لي بالدخول؟».

لم ينبس الرجل العجوز ببنت شفة، ولكنه ألقى في حركة وقورة من يده بمفتاح الباب من خلال النافذة إلى الشارع.

جرى لافريتسكي مسرعًا إلى الطابق العلوي، ودخل الحجرة، وأوشك أن يلقي بنفسه بين ذراعي ليم. ولكن ليم أشار أمرًا إلى مقعد، وقال محتدًا بلغته الروسية المليئة بالأخطاء: «اجلس وأصغ» ثم أخذ مقعده ووضع أمام المعزف (البيانو) ونظر حوله نظرة صارمة، وبدأ يعزف.

لم يكن لافريتسكي قد سمع مثل هذه الألحان في الحقيقة منذ زمن طويل، فقد كانت ألحانًا عذبة حارة تحدثت إلى القلب بنغماتها الأولى،

وبدت وكأنها تفيض بالضياء المشرق وتفعم بالإلهام والجمال والمرح.
وكانت وهي تحلق ثم تعود فتهبط، تبدو وكأنها تتحدث عن كل ما هو
عزیز وغامض ومقدس على الأرض. كما تحدثت أيضًا عن الأسى
اللانهائي، ثم بدأت تتلاشى رويدًا رويدًا في الأفق البعيد.

نهض لافريتسكي من مقعده، ثم ظل واقفًا راسخًا في مكانه وقد
شحب لونه لفرط السرور، فقد دخلت هذه الألحان سريعًا جدًا إلى
قلبه، إذ كانت لمسة الحب السعيد قد حولتها إلى إحساس جياش،
وكانت هذه الألحان نفسها تتلألأ بالحب.

همس لافريتسكي في أذن ليم على الفور، بعد أن تلاشت النغمة
الآخيرة قائلاً: «اعزفها ثانية».

نظر إليه الرجل العجوز بعين عقاب الجو، وقال في بطاء بلغته
القومية (الألمانية) وهو يضرب صدره بيده: «إني مؤلف تلك القطعة،
فأنا موسيقي عظيم».

ثم عزف مقطوعته البديعة مرة أخرى.

كانت الحجرة خالية من الأنوار، ولكن أشعة القمر عند طلوعه
ولجت الحجرة منحرفة من خلال النافذة، وبدا الهواء المصفى يهتز
نغمًا موسيقيًا، وبدأت الحجرة الصغيرة المتواضعة كأنها المعبد، وأضفى
القمر بنوره الخافت الفضي عند طلوعه على رأس الرجل الشيخ تعبيرًا
نبيلًا روحانيًا.

ذهب لافريتسكي إليه وعانقه، لم يستجب ليم أول الأمر لعناقه،

ولكنه نحاه جانباً بمرفقه، ثم ظل وقتاً جامداً لا يتحرك ولا يحرك عضواً من أعضائه، وتبدو عليه سمة الصرامة والنفور، كما كان من قبل تقريباً، ولم يزمجر إلا مرتين صائحاً: «آها..» ولكن تغيراً طراً عليه في النهاية، فهدأ وجهه ولم تعد رأسه ملقاة إلى الخلف، وابتسم في أول الأمر ابتسامة خفيفة إجابة على تهنئة لافريتسكي، ثم طفق بعد ذلك يبكي وينشج نشيجاً خافتاً كطفل.

قال: «إن مجيئك في تلك اللحظة نفسها تماماً لبديع رائع، ولكنني أعرف كل شيء عن هذا الأمر».

فصاح لافريتسكي في دهشة: «أنت تعرف كل شيء؟».

فأجاب ليم: «لقد سمعت ما قلت. ألم تفهم أنني عرفت كل شيء؟».

لم يستسلم لافريتسكي إلى النوم حتى الصباح، وظل جالساً طوال ليله على فراشه، كما باتت ليزا ساهرة، فقد كانت تصلي.



الفصل الثالث والثلاثون

يعلم القارئ كيف نشأ لافريتسكي، وكيف تربي. وسنقول الآن كلمات قليلة عن تربية ليزا.

كانت ليزا في العاشرة من عمرها عندما تُوفي والدها الذي لم يكن يعبأ بها إلا قليلاً؛ إذ كان غارقاً في أعماله، منهمكاً دائماً في طلب زيادة دخله، فضلاً عن أنه رجل ذو مزاج صفراوي، ملول فظ بطبعه لم يتذمر أبداً من البذل للمدرسين والمربين، أو الإنفاق في سبيل شراء الثياب والضروريات الأخرى التي يحتاجها أطفاله، ولكنه لم يكن يتحمل أن يدلل الصارخين في وجهه، على حد تعبيره. ولم يكن لديه في الحقيقة دائماً متسع من الوقت لتدليلهم، فقد اعتاد أن يعمل وينهمك في عمله وينام قليلاً، ويلعب الورق نادراً ثم يعمل ثانية. وكان غالباً ما يقارن نفسه بجواد قد شد إلى آلة الدرس: «لقد انقضت حياتي سريعاً» قالها وهو على فراش الموت، وقد تقلصت شفتاه، وابتسم ابتسامة صغيرة.

أما ماريا ديمتريفنا فإنها لم تحشم نفسها حقاً إلا القليل جداً من المتاعب في سبيل ابنتها أكثر مما فعل زوجها، في كل ما ادعته لنفسها

من شرف وهي تتحدث إلى لافرييسكي، بأنها قد حملت أمانة تربية أطفالها بنفسها. اعتادت أن تلبسها كما تلبس الدمية، وكانت تدللها في محضر الزائرين وتناديها بالطفلة الصالحة وحببية قلبها، وهذا كل ما فعلت. وكانت كل عناية متصلة تسبب الحيرة والارتباك لتلك السيدة المتصلة.

وتركت ليزا في أثناء حياة أبيها لعناية مربية، هي الآنسة مورو من باريس، ولكن بعد وفاته تولت مارفا تيموفينا العناية بها، وتلك السيدة قد سبق للقارئ أن عرفها.

أما الآنسة مورو، فقد كانت امرأة قميئة، علتها تجاعيد كثيرة، لها عادات الطائر وخلقه أيضًا، فقد عاشت في شبابها غارقة في الشهوات، وفي شيخوختها لم تحتفظ إلا بعاطفتين اثنتين فحسب: شهوة أطيب الطعام، وهوى لعب الورق. وسرعان ما كانت ملامحها تتخذ سمة الموت أو ما يكاد يشبهه، عندما كانت شهوتها للطعام تبلغ غايتها، أو عندما كانت لا تلعب الورق وتثرثر. فهي تجلس، وتحملق وتنفس، ولكن يبدو واضحًا أنه لا يوجد في عقلها فكرة واحدة تتحرك، كما أنه لا يمكن وصفها بالصلاح؛ لأن الصلاح صفة لا يمكن أن تنسب إلى الطيور.

وكان من نتيجة شبابها الطائش، أو جو باريس الذي تنفسته منذ أيام طفولتها، أن تأصل في نفسها لون من الشك العام كان يجد دائمًا تعبيرًا عنه في هذه الكلمات «كل هذه حماقات» كانت تتكلم بلهجة خاطئة، إلا أنها باريسية نقية، لم تخض في حديث الفضائح، ولم تكن ذات

نزوات، فماذا عسى أن ينتظره الإنسان أكثر من هذا من معلمة أطفال؟
كان تأثيرها على ليزا قليلاً، وكان أقوى تأثير حينئذ، هو التأثير الذي
كانت تفرضه على الطفلة مربيتها، أجافيا فلاسفينا.

كانت قصة تلك المرأة قصة شهيرة، فقد نشأت في أسرة من
الفلاحين، وتزوجت وهي في السادسة عشرة من عمرها من فلاح،
ولكنها كانت تقف تمامًا على طرفي نقيض مع جمهور أخواتها
الفلاحات، فكانت وهي طفلة يدللها أبوها الذي ظل عشرين عامًا سيد
قومه، وجمع ثروة طائلة. كانت تتفرد بالجمال بين لدااتها، ولا يميزها
في رشاقتها وذوقها أحد في كل المقاطعة، وكانت بليغة ذكية شجاعة.
و ذات يوم رآها سيدها ديمتري بستوف، والد مدام كاليتين -وهو رجل
هادئ كتوم- في البيدر، فتحدث معها، ووقع أسير هواها الجارف،
وقد ترملت سريعًا بعد ذلك. وعلى الرغم من أن بستوف كان متزوجًا،
فقد أخذها إلى منزله وأمر بأن ترتدي ثياب سيدات البيت، وسرعان ما
طرح الكلفة جانبًا في وضعها الجديد، وتصرفت وكأنها ما عرفت
قط لو أنها آخر من الحياة، فصارت بشرتها أكثر صفاء ونقاء، وقوامها أكثر
التفافًا واستدارة، وبدت ذراعها تحت أكام (الموسلين) بيضاء كدقيق
القمح مثل ذراعي زوجة تاجر ثري. ولم يغادر الصناوور (وعاء كبير
لغلي الشاي) نضدها قط، ولم تلبس سوى الحرير والقטיפ، وكانت
تنام على حشايا من الريش الناعم.

دامت هذه الحياة السعيدة خمس سنوات، ثم توفي ديمتري
بستوف، وكانت زوجته سيدة رقيقة الحاشية لينة الجانب، أجلت ذكرى

زوجها الراحل كثيرًا جدًّا، فلم ترد أن تعامل منافستها بالفضيحة والعار، خاصة وأن آجافيا ما نسيت نفسها قط في وجودها، فزوجتها من راع وأبعدتها عنها.

مرت ثلاثة أعوام، وذات يوم صيفي قانظ، تصادف أن كانت السيدة تزور حظيرة الماشية، فقدمت لها آجافيا طبقًا من القشدة الدسمة الباردة، وسلكت سلوكًا محتشمًا متضعًا وبدت نظيفة، سعيدة راضية بجميع الأوضاع، حمل سيدتها على العفو عنها والسماح لها بالعودة إلى المنزل، وما مضت ستة أشهر حتى كانت سيدتها قد أصبحت وثيقة الصلة بها، فرفعتها إلى مكانة «مدبرة البيت» ووضعت كل الشؤون المنزلية تحت عنايتها، وهكذا عادت آجافيا إلى السلطة، وعادت بضة بيضاء البشرة، ووثقت بها سيدتها كل الثقة.

أمضت خمسة أعوام آخر، ثم عاودها سوء الطالع مرة أخرى، فقد أدمن زوجها، الذي حصلت له على مركز الساقى، الشراب، وبدأ ينقطع عن المنزل، وانتهى به الأمر إلى سرقة ست ملاعق من الفضة من سيدته، وخبأها في صندوق زوجته حتى تسنح له فرصة مواتية لكي يهرب بها، ولكن أمره افتضح، واكتشفت السرقة، فأعيد راعيًا كما كان، وباتت آجافيا مجللة بالعار. لم تطرد من المنزل، ولكنها أنزلت من مركز المدبرة إلى حائكة ملابس، وصدر إليها الأمر أن تشتمل على رأسها بمنديل بدلًا من القبعة. وكانت موضع دهشة الجميع أن احتملت آجافيا القصاص الذي أوقع عليها، في خضوع هادئ، ولكنها في ذلك الوقت كانت قد بلغت الثلاثين من عمرها، ومات أطفالها جميعًا ولحق بهم

زوجها وشيكا. لقد جاء فصل التأمل بالنسبة لها فتأملت حقًا. لزمت الصمت المطبق وتمسكت بأهداب التقى والورع، ولم تنس مرة واحدة أن تقيم صلاة الصبح، أو تتخلف عن القداس، ونبتت كل ثيابها الفاخرة واستمرت خمس عشرة سنة تعيش عيشة هادئة متزمتة آمنة، لا تشتبك في عراق مع أحد، وتتسامح مع الجميع، فإذا ما أغلظ لها أحد القول، حنت رأسها فحسب، وردت بالشكر على الدرس الذي تلقته. لقد صفحت سيدتها عنها منذ عهد بعيد، إذ كانت قد فرضت عليها الحظر، ثم عادت فرفعته عنها، وخلعت عليها قبعتها الخاصة لتلبسها، ولكنها هي نفسها رفضت أن تنزع المنديل عن رأسها، ولم ترض إطلاقًا أن ترتدي إلا الثياب القائمة. وبعد موت سيدتها صارت أكثر هدوءًا وتواضعًا عن ذي قبل. إنه لأمر سهل أن تفيد من مخاوف الروسي لتأمن ولاءه، ولكن من الصعب أن تحظى بتقديره واحترامه، فإنه ليس مستعدًا أن يهبه لأحد، ولا أن يهبه لكل شخص. ولكن جميع من في البيت أولوا آجافيا احترامهم وتقديرهم، حتى هؤلاء الذين يدركون أخطاءها الماضية، فقد ولت وكأنها دفنت في القبر مع سيدتها العجوز.

وعندما اقترن كاليتين بماريا ديمترييفنا، أراد أن يعهد بإدارة المنزل إلى آجافيا، ولكنها رفضت «خشية الإغراء» فراح يعنفها ولم تفعل سوى أن أحنت رأسها ثم غادرت الحجرة. وكان كاليتين ذكيًا يفهم الناس غالبًا، وهكذا فهم خلق آجافيا، فلم تغب عن خاطره، فلما استقر به المقام في المدينة اختارها ورضي أن تكون مربية لليزا التي كانت حينئذ قد بدأت الخامسة من عمرها.

فرزت ليزا في بادئ الأمر من وجه مريبتها الجديدة ذلك الوجه الوقور، والصارم أيضًا، ولكن سرعان ما ألفتها، وتعلمت أن تحبها بإخلاص. فقد كانت الطفلة نفسها حادة الطبع والفترة، وكانت قسمت وجهها تعيد إلى الذاكرة وجه كاليتين بلامحه المتناسقة وتكوينه الجميل، ولكن عينيها لم تكونا كعيني أبيها، إذ كانتا تشعان ضوءًا هادئًا يعبر عن صلاح وغيره قلما وجدت في الأطفال. لم تكن تهتم للعب بالدمى، ولم تكن تضحك أبدًا بصوت مرتفع أو لوقت طويل. وكان شعور باحترام الذات ينم عن نفسه دائمًا في سلوكها، ولم يكن يغلب على طبعها أن تستغرق في أحلام اليقظة، ولكنها إذا ما فعلت فلا بد أن يكون لذلك في الغالب سبب قوي دائمًا، فتصمت حينئذ فترة من الوقت. وغالبًا ما كانت تضع حدًا لذلك الشرود الذهني بتوجيه سؤال إلى شخص يكبرها سنًا، فيكشف هذا السؤال عن أن عقلها كان يعمل تحت تأثير انطباعات جديدة. وسرعان ما تغلبت على لثغة لسانها الصبانية، وتمكنت من الحديث في وضوح تام ولما تبلغ الرابعة من عمرها. كانت تخشى أباها، أما أمها فقد كانت تنظر إليها بشعور يكاد لا يمكن تحديده، فلم تكن تخافها، ولكنها لم تسلك إزاءها سلوكًا لطيفًا. وعلى هذه الشاكلة لم يكن سلوكها أيضًا لطيفًا مع مريبتها، على الرغم من أنها أحببتها بكل قلبها، فكانت هي وآجافيا لا يفترقان، وكان منظرًا عجيبيًا أن تراهما معًا.

كانت آجافيا تتشح بالسواد من هامتها إلى أخمص قدميها، وتغطي رأسها بمنديل قاتم اللون. وكان وجهها مضني قد علته شفافية شبيهة

بشفافية الشمع، ولكنه ظل جميلاً معبراً، وهي تجلس منتصبه القائمة في مقعدها تحيك الجوارب، بينما ليزا تجلس على مقعد صغير لا ظهر له، وقد شغلت ببعض العمل، أو ترتفع عيناها الصافيتان وفيهما تعبير جاد، وهي تصغي إلى ما تقوله آجافيا لها. ولم تقص آجافيا عليها أي قصة من قصص الأطفال على الإطلاق، ولكنها اعتادت أن تلقي على مسامعها بصوت هادئ خفيض سيرة حياة العذراء المباركة، أو حياة الناسكين، أو المقبولين عند الله، أو تحدثها عن شهادات القديسات. وكانت تقص على ليزا كيف كان القديسون يعيشون في الصحراء، وكيف كانوا يحصلون على خلاص نفوسهم ويكابدون الجوع والعطش، وكيف أنهم لم يرهبوا الملوك، ولكنهم آمنوا بالمسيح، وكيف كانت طيور السماء تأتيهم بالزاد، وكيف خضعت لهم الوحوش الكاسرة، وكيف نمت الأزهار حيث سقطت دماؤهم. وذات مرة سألت ليزا وهي المولعة بالزهور ولعاً شديداً: «هل كانت هذه أزهار القرنفل؟» وكانت آجافيا تتحدث إلى ليزا عن هذه الأشياء حديثاً رصيناً فيه تواضع، وكأنها تحس أنها غير جديرة بنطق أمثال هذه الكلمات العظيمة القدسية، وإذ كانت ليزا تصغي إليها كانت صورة الله الموجود في كل مكان، العالم بكل شيء، تؤثر تأثيراً عذّباً في صميم روحها، وتملؤها رهبة طاهرة جليلة، ويبدو لها أن المسيح بجوارها، وأنه صديق يكاد يكون من ذوي قرباها. كانت آجافيا أيضاً هي التي علمتها الصلاة، وفي بعض الأحيان كانت توقظ ليزا في الفجر الباكر، وتلبسها ثيابها على عجل، وتحملها سراً إلى صلاة السحر، فتتبعها ليزا على أطراف أصابع قدميها، وهي تكاد

لا تجرؤ على التنفس. إن ضوء الصباح البارد المعتم، والهواء البارد الرطب الذي يكاد يسود الكنيسة الخاوية، وسرية هذه الرحلات نفسها، والعودة الحذرة إلى البيت، ثم إلى الفراش، كل هذا الخليط من المحذور والغريب والمقدس روع الفتاة الشابة وتخلل أعماق كيائها.

ما لامت آجافيا أحدًا قط، وما وبخت ليزا أبدًا من أجل أخطاء صبيانية ارتكبتها. وكانت إذا لم ترض عن شيء لاذت بالصمت لا أكثر ولا أقل. وفهمت ليزا دائمًا هذا الصمت، وكانت تدرك جيدًا ببديهة الطفل اللماحة متى تتبرم آجافيا بالآخرين، سواء أكانت ماريا ديمتريفنا أم كاليتين نفسه.

ظلت آجافيا أكثر من ثلاث سنوات تقوم على خدمة ليزا، ثم خلفتها الآنسة مورو، ولكن الفرنسية المستهترّة، بطباعها الجافة، وصراخها المتواصل بقولها: «كل هذه حماقات» لم تتمكن من أن تقتلع من قلب ليزا ذكرى مربيّتها التي أحبّتها حبًّا جمًّا؛ فإنّ البذور التي غرستها قد نأصلت جذورها تأصّلًا لا يمكن من اقتلاعها، وفضلاً عن ذلك فإنّ آجافيا على الرغم من أنها توقفت عن ملازمة ليزا، مكثت وقتًا في المنزل، وكثيرًا ما كانت تلقى تلميذتها فتعاملها كما اعتادت أن تعاملها من قبل.

ولكن عندما دخلت مارفا تيموفينا دار آل كاليتين لم تجر الأمور بين آجافيا وبينها على ما تهوى، فإنّ الجد الصارم الذي اتصفت به «لابسة

المنطق الخشن»^(١) السابقة لم يرض السيدة العجوز الملول العنيدة. ثم إن آجافيا حصلت على إذن بالذهاب إلى الحج، ولكنها لم تعد ثانية، وتواترت الشائعات الغامضة بأنها قد اختفت في دير للمنشقين. ولكن طابعها على قلب ليزا لم يختف، فقد استمرت على مألوف عاداتها تذهب إلى القديس وكأنها ذاهبة إلى مهرجان عيد، وفي الكنيسة كانت تصلي بحرارة وطرب حيي مكتوم. ولم تكن دهشة أمها الخفية لذلك دهشة قليلة، فإن مارفا تيموفينا -على الرغم من أنها لم تفرض أي قيد على ليزا- حاولت أن تحملها على التخفيف من تزماتها وحماسها، وألا تسمح لها بالإغراق في السجود والركوع، فلم تكن هذه العادات تليق بسيدة كما قالت.

كانت ليزا طالبة علم مجدة، وطالبة مثابرة، لم توهب حصافة العقل أو الذكاء الخارق، وما انقاد لها شيء دون أن يجشمها جهداً ليس باليسير. كانت عازفة ماهرة على البيان (البيانو) ولم يعرف إلا ليم ما كان يتقاضاها هذا العمل من الجهد والوقت. لم تُقبل كثيراً على القراءة والاطلاع، ولم يكن عندها «كلمات تختص بها» ولكن كان لها آراؤها الخاصة بها. وكانت تفعل ما يروق لها، وهكذا كان شأنها في مظهرها الشخصي، ومن المحتمل أنها كانت تحاكي في ذلك أباه الذي لم يعتد أن يطلب مشورة أحد قط فيما يريد أن يفعله.

وهكذا شبت ليزا، وعلى هذا النمط سارت حياتها في رقة وهدوء حتى بلغت التاسعة عشرة من عمرها. كانت بارعة السحر والفتنة،

(١) لابسة المنطق الخشن، وهو نقبة (جولة) مصنوعة من قماش خشن كثير الألوان.

ولكنها لم تكن تدرك هذه الحقيقة، ففي كل حركاتها كان يتكشف حسن طبيعي وجمال غير متكلف، وفي صوتها يجلجل نغم الصبا الباكر الفضي، وكان أبسط إحساس بالسعادة يفتح أروع الابتسامات وأشدها سحرًا على شفيتها، ويؤجج في عينيها المتألفتين ضياء أشد لمعانًا، ويُضفي عليهما لونًا من الحنو الغامض. وإذا كانت كريمة النفس لينة القلب تغلغل في روحها الإحساس بالواجب والخشية من إيذاء أي إنسان بأي وسيلة، وتوثقت أواصر الصلة بينها وبين جميع من عرفت، ولكنها لم تتوثق بينها وبين شخص معين. وركزت حبها في الله وحده، فأحبهته بحماس خفر ساذج، ولم يكدر أحد هدوء حياتها الداخلية حتى ظهر لافريتسكي.

هكذا كانت ليزا.



الفصل الرابع والثلاثون

وقريبًا من ظهر اليوم التالي ذهب لافريتسكي إلى دار آل كاليتين، وفي طريقه إليها التقى ببانشين الذي عدا محاذيًا له وهو على ظهر جواده، وأسدل قبعته فوق عينيه. ولأول مرة لم يسمح للافريتسكي بالدخول إلى دار آل كاليتين منذ أن عقد وشائج الصلات مع الأسرة. كانت ماريا ديمترييفنا نائمة، كما أعلن كبير الخدم، برأسها صداع. أما مارفا تيموفيفنا وليزافيتا ميخائيلوفنا، فكانتا متغيبتين بالخارج.

سار لافريتسكي حول المنزل خارج الحديقة، يداعبه أمل خفي في لقاء ليزا، ولكنه لم ير أحدًا، ثم عاد بعد ساعتين، ولكنه تلقى الإجابة نفسها التي تلقاها من قبل، وزيادة على ذلك، فإن كبير الخدم نظر إليه نظرة واضحة نوعًا ما، ورأى لافريتسكي أنه ليس من اللائق أن يحضر ثلاث مرات في يوم واحد، ولذلك عزم على أن يذهب في عربته إلى ضيعة فاسيليفسكوي، حيث كان يريد إنجاز بعض الأعمال.

وفي طريقه إليها رسم خططًا عديدة كل منها أكثر سحرًا من غيرها. ولكنه عندما وصل إلى ضيعة عمته استولى عليه الحزن. ودخل في

حديث مع أنطون، ولكن الرجل العجوز - وكان ذلك عن عمد وقصد - لم يتحدث إلا في الكئيب المحزن من الأمور، فقص على لافريتسكي كيف عضت جلافيرا بتروفا يدها قبل موتها. وبعد فترة من الصمت أضاف قائلاً وهو يصعد التلهادات: «كل رجل، أيها السيد مقضي عليه أن يلتهم نفسه».

وكان اليوم قد أوشك على النهاية عندما انطلق لافريتسكي في طريق عودته. عادت الموسيقى التي سمعها بالأمس إلى خياله، ولاحظ صورة ليزا على صفحة قلبه، بكل ما فيها من هدوء جميل، وتأثر إذ طاف بخياله حب ليزا له، فوصل إلى منزله الصغير في المدينة هادئاً سعيداً.

وكان أول ما لفت نظره في البهو رائحة الباتشولي، وهي عطر كان يملكه أشد المقت، كما لاحظ أن عددًا كبيرًا من حقائب الملابس الضخمة والصناديق يقوم هناك، ولمح تعبيرًا عجبًا على وجه الخادم الذي أقبل مسرعًا للقائه. لم يتوقف لتحليل انطباعاته، ولكنه ذهب مباشرة إلى حجرة الاستقبال.

كانت سيدة تجلس على الأريكة وترتدي ثوبًا حريريًا أسود ذا حواش. يغطي وجهها الشاحب إلى نصفه منديل من الكمبريت (قماش من التيل الرفيع). نهضت تلك السيدة وسارت خطوات نحوه لتلقاه، وحنّت رأسها وقد سوت غدائر شعرها بعناية وطيبتها بالعطر، ثم خرت ساجدة عند موطن قدميه، وحيث أول وهلة، عرفها، لقد كانت تلك السيدة زوجته.

توقف تنفسه، واعتمد على الحائط.

قالت بالفرنسية، وقد مزق صوتها نياط قلبه كما تمزق المدية: «لا تقصني عنك يا ثيودور»، فنظر إليها دون أن يدرك ما رأى، ومع ذلك، فقد لاحظ في الوقت نفسه، وعلى الرغم منه، أنها قد زادت شحوبًا وبدانة عما كانت عليه من قبل.

استمرت قائمة، وهي ترفع عينيها من آن لآخر نحو السماء، وأصابعها المتناهية في الجمال، ذات الأنامل التي صبغت أظافرها باللون الوردى تتلوى بالآلام شديدة متعمدة: «يا ثيودور! ثيودور، أنا مذنبه أمامك، مغرقة في الذنب. وأزيد على ذلك أنني مجرمة. ولكني أناشدك أن تستمع إلى ما يجب أن أقول. إن الندم يعذبني، لقد أصبحت حياتي عبئًا ثقیلاً ينقض ظهري، ولم أعد قادرة على احتمال ما أنا فيه. كم من مرة فكرت في الكتابة إليك، ولكنني كنت أخشى غضبك، وقد عقدت العزم على أن أقطع كل صلة لي بالماضي»، وأضافت قائمة بالفرنسية وهي تمر بيدها على جبينها وخدها: «وزيادة على ذلك، كنت مريضة جدًا. لقد اغتنمت فرصة انتشار خبر موتي في الخارج وتركت كل شيء. ودون أن أتوقف في أي مكان، سافرت آناء الليل وأطراف النهار لأجيء إلى هنا سريعًا. ولقد ظللت وقتًا طويلاً في شك مما إذا كنت سأظهر أمامك، وأنت قاضي. ولكن عزمي قر في النهاية على الذهاب إليك، وذهنى لا يغيب عنه صلاحك الدائم الدائب. عثرت على عنوانك في موسكو». استمرت في حديثها قائمة وهي تنهض في هدوء من الأرض وتجلس على حافة المقعد تمامًا: «صدقني، طالما فكرت في الموت، وكانت لدي الشجاعة الكافية لأحرم نفسي من الحياة... آه.. إن الحياة حمل

يبهظ كاهلي الآن، ولكن التفكير في طفلي، في طفلي الصغيرة آدا، منعني. وهي الآن هنا نائمة في الحجرة المجاورة، الطفلة المسكينة لقد أضناها التعب. وستراها هلا فعلت؟ هي، على أي حال من الأحوال بريئة أمامك، وتعسة، تعسة جداً»، وهكذا صاحت مدام لافريتسكي، ثم انفجرت باكية.

استعاد لافريتسكي وعيه في النهاية، ثم وقف بعيداً عن الحائط واتجه نحو الباب.

صاحت زوجه بلهجة اليأس: «أأنت ذاهب؟ آه، إن ذلك لقاس. إن من القسوة أن تذهب دون أن تقول كلمة واحدة لي.. ولو كلمة تأنيب، إن هذا الاحتقار يقتلني، إنه لرهيب».

توقف لافريتسكي.

قال لها في صوت أجوف: «ماذا تريدني مني أن أقول لك؟».

صاحت قائلة في نشاط: «لا شيء. لا شيء. إني أعلم أنه لا حق لي في طلب شيء. ولست بلهاء، صدقني. إني لا آمل، بل لا أجرؤ أن آمل في الغفران. إن كل ما أرجو إياه هو أن ترشدني إلى ما يجب أن أعمله، وإلى أين يجب عليّ أن أعيش. إني سأذعن لما تأمرني به، كما يذعن العبد مهما كان هذا الذي تأمر به».

أجابها لافريتسكي باللهجة نفسها التي كان يتحدث بها من قبل: «ليس عندي ما آمرك به، إنك تعلمين أن كل ما كان بيننا قد انتهى، والآن أكثر من كل وقت مضى. ويمكنك الحياة حيث يحلو لك، وإذا كانت

المنحة التي أجريتها عليك صغيرة بحيث...».

قالت مقاطعة:

- آه، لا تقل أمثال هذه الأشياء المرعبة، اصفح عني، وليكن صفحك عني من أجل هذا الملاك وحده».

وبعد أن نطقت فارفارا بفلوفنا هذه الكلمات، اندفعت فجأة إلى الحجرة الأخرى وعادت في الحال، عادت وفي ذراعيها بنية صغيرة في ثياب حسنة الذوق، وكانت خصلات شعرها الكتانية تتدلى حول وجهها الوسيم الصغير المتورد، وفوق عينيها الواسعتين السوداوين الناعستين، فطرفت في الضوء وتعلقت بجيد أمها بذراع ممثلة صغيرة.

قالت فارفارا بفلوفنا (بالفرنسية) وهي تزيع خصلات الشعر عن عيني الطفلة وتقبلها مشيرة:

- آه! انظري، هذا هو أبوك، توسلي إليه معي.

بدأت الفتاة الصغيرة تقول في لغة بالفرنسية: «أهذا هو أبي هناك؟».

أجابتها أمها بالفرنسية أيضًا: «أجل، يا طفلي، ألا تحبينه؟».

ولكن هذا اللقاء أصبح فوق ما يطيقه أو يحتمله لافريتسكي.

تمتم قائلاً:

- أي مأساة مشجية التي تحدث هنا؟

ثم غادر الحجرة.

ظلت فارفارا بفلوفنا بعض الوقت واقفة حيث كانت، ثم هزت

كتفيتها هزة خفيفة، وحملت الفتاة الصغيرة عائدة بها إلى الحجرة الأخرى، خلعت عنها ثيابها ثم أرقدها في فراشها، وتناولت كتابًا وجلست بجوار المصباح حيث انتظرت ساعة تقريبًا، ولكنها في النهاية ذهبت إلى فراشها.

سألته خادمتها -وهي امرأة فرنسية جاءت بها معها من باريس- وهي تفك عنها مشد خصرها: «ثم ماذا بعد ذلك يا سيدتي؟».

أجابته فارفارا بافلوفنا:

- ثم ماذا بعد ذلك يا جوستين. لقد تقدم به العمر كثيرًا، ولكنني أظن أنه لا يزال صالحًا كعهدي به من قبل. أعطيني قفازات الليل، وأعدي الثوب الرمادي الزاهي لصباح غد، ولا تنسي شرائح اللحم الضأن من أجل آدا. من المؤكد أن الحصول عليها هنا عسير، ولكن علينا أن نحاول، ولتكن النتائج ما تكون.

وأجابت جوستين قائلة بالفرنسية: «أجل، يجب علينا أن نحاول، ولتكن النتائج ما تكون».

ثم أطفأت النور.



الفصل الخامس والثلاثون

ظل لافريتسكي يجول أكثر من ساعتين في شوارع المدينة، وعادت إلى ذاكرته الليالي التي قضاها في ضواحي باريس، وبدأ قلبه يتمزق في جوفه، وأحس عقله خاوياً وكأن به خدرًا. وراحت الأفكار الشريرة الكثيرة المجنونة تحلق في سماء عقله.

«إنها على قيد الحياة! إنها هنا» همس بها إلى نفسه في دهشة متصلة لا تنقطع، وأحس أنه قد خسر ليزا، وبدأ أن الغضب يخنقه؛ فقد نزلت به الضربة على حين غرة. كيف استطاع أن يسرع بتصديق القيل والقال الأحمق الذي نشر في الصفحة الاجتماعية بالصحيفة الفرنسية، وليست إلا مجرد قصاصة من الورق؟».

وفكر لنفسه قائلاً: «ولكن إذا لم أكن قد صدقتها، فماذا عسى أن يكون الخلاف؟ ما كان يجدر بي أن أعرف أن ليزا تحبني، وما كان يجدر بليزا أيضًا أن تعرفه». ولم يتمكن من أن يطرد عن نفسه شبح زوجته، فقد كان يلاحقه قوامها وصوتها وعيناها. لعن نفسه ولعن كل ما في الحياة.

وعندما أخذ منه الجهد كل مأخذ، أدى به المسير إلى منزل ليم قبل الفجر. وظل وقتاً طويلاً لا يستطيع فتح الباب، وفي النهاية ظهر رأس الرجل العجوز، عليه قلنسوة النوم، في النافذة. كان وجهه نكدًا مجعدًا لا يحمل أي شبه، وهو يوحى بالصرامة، بذلك الوجه الذي أطل على لافريتسكي في جلال منذ أربع وعشرين ساعة مضى وهو في أسمى عظمته الفنية.

سأله ليم: «ماذا تريد؟ لا يمكنني العزف كل ليلة، لقد أخذت نقيع الأعشاب»، ولكن وجه لافريتسكي كان يحمل تعبيرًا لا يمكن أن يفوت الملاحظة. ظلل الشيخ عينيه بيده ونظر إلى ذلك الزائر بلبيل نظرة قاسية، ثم دعاه للدخول.

ولج لافريتسكي الحجرة ثم تهاوى على مقعد، وظل الشيخ واقفًا أمامه وهو يجمع أطراف نشيره (روب ديشمبر) المزركش القديم حول جسمه، وينحني انحناء شديدًا ويعض شفثيه.

قال لافريتسكي، وقد انحنى رأسه: «لقد عادت زوجتي»، ثم انفجر فجأة في نوبة من الضحك اللاإرادي.

أعرب وجه ليم عن الدهشة، ولكنه ظل يحتفظ بصمت رصين، ويشدد جمع أطراف رداء زيتته حول جسمه.

واصل لافريتسكي حديثه: «أظن أنك لا تعلم، ظننت... رأيت في صحيفة سيارة أنها قد ماتت».

سأله ليم: «أوه... هل رأيت ذلك حديثًا؟».

- نعم.

كرر الرجل العبوز القول وهو يرفع حاجبيه: «آه. وقد حضرت إلى هنا؟».

- نعم. هي الآن في منزلي، وأنا... أنا أسوأ الرجال حظاً.
ثم ضحك مرة ثانية.

ردد ليم القول في بطة: «إنك أسوأ الرجال حظاً».

قال لافريتسكي سريعاً: «يا خرستوف فيدروفتش، هل تتكرم بحمل رسالة؟».

- هم.. إلى من؟ هل لي أن أسأل؟

- إلى ليزا.

- آه! نعم! نعم! إني أفهم. حسن جداً، ولكن متى يجب أن تسلم الرسالة؟

- غداً، وفي وقت مبكر بقدر الإمكان.

- هم! من المحتمل أن أرسل الطاهي كاترن... لا، سأذهب بنفسي.

- وهل تجيء إليّ بالرد؟

- نعم سأفعل.

تنهد ليم.

قال له: «نعم يا صديقي الشاب المسكين، إنك بكل تأكيد، أسوأ الشباب حظاً».

كتب لافريتسكي كلمات قلائل إلى ليزا ينهي إليها خبر وصول زوجته، ويلتمس منها تحديد موعد للقاءها، ثم ألقى بنفسه على الأريكة الضيقة ووجهه إلى الحائط. كما رقد الرجل العجوز في فراشه، وراح يتقلب وهو يسعل ويتبلع جرعات من ماء الأعشاب.

جاء الصباح، ونهضا كلاهما، وتبادلا نظرات غريبة. وكان لافريتسكي حينئذ يود لو أنه قد قتل نفسه. أحضر لهما الطاهي كاترن قهوة رديئة، وحينئذ، أي عندما دقت الساعة الثامنة، وضع ليم قبعته على رأسه وخرج قائلاً إن عليه أن يعطي درساً في دار آل كاليتين في الساعة العاشرة، ولكن أصبح لزاماً عليه أن يجد عذراً مقبولاً لذهابه إلى هناك أسرع مما يجب.

ألقى لافريتسكي بنفسه مرة أخرى على الأريكة، ومرة أخرى انطلقت ضحكة مُرة من أعماق قلبه، وتذكر كيف طردته زوجته من المنزل، وصور لنفسه موقف ليزا، وحينئذ أغمض عينيه ولوى يديه فوق رأسه.

وأخيراً عاد ليم يحمل إليه قصاصة من الورق، سطرت عليها ليزا بالقلم الرصاص الكلمات الآتية:

- لا يمكننا اللقاء اليوم، ومن المحتمل أن يكون ذلك في مساء الغد، إلى اللقاء.

شكر لافريتسكي ليم بفتور وهو شارد الذهن، ثم مضى إلى منزله. وجد زوجته تتناول طعام الإفطار، وكانت آدا، وقد لفت شعرها كله

في حلقات ورقية وترتدي ثوبًا قصيرًا أبيض به شرائط زرق، تأكل ضلعًا من لحم الضأن. ونهضت فارفارا بافلوفنا من مقعدها في اللحظة التي وطئت فيها أقدام لافريتسكي أرض الحجرة، واتجهت نحوه، وعلى وجهها عبارات الخضوع والمذلة، فطلب منها أن تتبعه إلى مكتبه، وهناك أغلق الباب وراح يسير ذهابًا وحيث. أما هي فقد جلست وعقدت يديها، وراحت تتبع حركاته بعينين ما زالتا جميلتين بطبعهما، وزيادة على ذلك فقد صبغت جفونها قليلًا.

ظل لافريتسكي وقتًا طويلًا لا يستطيع أن يبدأ ما يجيب عليه قوله، فهو يشعر بأنه لا يسيطر سيطرة تامة على نفسه. أما زوجه، فقد تبين أنها لا تخشاه أبدًا، على الرغم من أنها بدت وكأنها يمكن أن تقع فريسة نوبة إغماء في أي لحظة.

وأخيرًا بدأ الحديث قائلًا، وهو يتنفس بصعوبة ويجز على نواجزه بشدة: «أعيريني سمعك يا سيدتي، ليس هناك من سبب يدعو لأن يناق أحدنا الآخر، فأنا لا أثق في توبتك وندمك، حتى إذا كانت هذه التوبة توبة نصوحًا، فإنه لمن المستحيل عليّ أن أنضم إليك وأعاود العيش معك مرة أخرى».

عضت فارفارا بافلوفنا شفتيها، وأغمضت عينيها نصف إغماضة وفكرت قائلة: «إن ذلك نفور، لقد انتهى كل شيء، ولم أعد المرأة التي تصلح له».

أعاد لافريتسكي القول: «إنه المستحيل»، ثم زرر سترته وقال: «لست أعرف لماذا شرك أن توليني شرف الحضور إلى هنا؟ يغلب على

ظني أنك في حاجة إلى المال».

همست فارفارا بافلوفنا: «لا تقل هذا، فأنت تجرح شعوري».

- ما زلت زوجتي على الرغم مما يجب أن يكون، وليس بمقدوري أن أطرده، ولذا فإنني أقترح عليك هذا: يمكنك الذهاب إلى لافريكي -واليوم إن شئت- والعيش هناك؛ فهناك منزل ممتاز، كما تعرفين، وسوف يكون لك كل ما تطلبين، علاوة على راتبك. فهل توافقين؟

رفعت فارفارا بافلوفنا منديلها الموشى إلى وجهها، وقالت وشفاتها تتحركان حركة عصبية: «لقد أخبرتك من قبل أنني سأوافق على أي ترتيبات تتفضل بها عليّ، ولا أرجو منك في الوقت الحاضر سوى... هلا سمحت لي -على الأقل- بأن أزوجي إليك الشكر لكرمك؟».

صاح لافريتسكي قائلاً على عجل: «لا تشكرات، أرجوك، ستكون الأوضاع أفضل بيننا من دونها»، ثم أضاف قائلاً، وهو يقترب من الباب: «وحينئذ قد أعتمد على....».

أجابت فارفارا بافلوفنا وهي تنهض باحترام من مقعدها: «في غد سأكون في لافريكي، ولكن يا فيدور إيفانوفتش...» (لم تعد تناديه في ألفة بشودور):

- ماذا تريدان أن تقولي؟

- إنني أشعر بأنني لا أستحق حتى الآن الصفح في أي حال من الأحوال. ولكن هل لي أن آمل، على الأقل عندما يحين الوقت؟

صاح لافريتسكي مقاطعاً حديثها: «آه، يا فارفارا بافلوفنا، إنك امرأة

ماهرة، ولكني أنا أيضًا لست غيبًا. إني أعرف جيدًا أنك في غير حاجة إلى الصفح، وزيادة على ذلك فإنني قد صفحت عنك منذ أمد بعيد، ولكن كانت بيني وبينك دائمًا هو سحيفة».

أجابت فارفارا بافلوفنا وهي تحني رأسها: «سوف أعرف كيف أخضع»، ثم أضافت قائلة بصوت ناعم رقيق وهي تلوح بيدها قليلًا نحو الصحيفة الملقاة على المنضدة حيث نسيها لافريتسكي: «لم أنس خطئي بعد، فلم أدهش إذا علمت بأنك قد سررت عندما سمعت بنياً موتي».

ارتعش لافريتسكي، وكانت علامة بالقلم الرصاص قد وضعت مقابل الخبر الخاص. وحملت فارفارا بافلوفنا إليه، وقد ارتسمت على وجهها أمارات المذلة والصغار أكثر مما كانت من قبل، فبدت رائعة الحسن في تلك اللحظة، إذ كان ثوبها الرمادي الذي صنعه حائك الثياب الباريسي قد انسجم انسجامًا دقيقًا حول قوامها الفارع الذي بدا وكأنه قوام فتاة تناهز السابعة عشرة من عمرها؛ فإن جيدها اللدن الرقيق الذي أحاطته بنيقة بيضاء، وحركات صدرها الهادئة بتأثير تنفسها المتناسق المنتظم، وذراعاها ويدها، وقد تجردا من السوار والخاتم، وجسدها كله من شعرها المتألق حتى حافة خفها التي ندر ما ترى... كانت جميعها عملاً فنيًا رائعاً.

نظر إليها لافريتسكي نظرة حقد وكراهية، وهو يشعر بأنه غير قادر على الامتناع عن الصياح قائلاً: «مرحى» وكاد لا يستطيع الامتناع عن أن يصرعها، ثم مضى إلى حال سبيله.

وبعد أن مضت ساعة، كان في طريقه إلى فاسيليفسكوي، وبعد ساعتين آخرين أمرت فارفارا بافلوفنا بإحضار أحسن عربة أجرة في المدينة، ولبست قبعة بسيطة من القش ونقاباً أسود وطرحة متواضعة، وتركت آدا في رعاية جوستين، وذهبت إلى دار آل كاليتين، فمن الاستفسارات التي قامت بها جوستين علمت مدام لافريتسكي أن من مألوف عادة زوجها الذهاب إلى هناك كل يوم.



الفصل السادس والثلاثون

إن اليوم الذي وصلت فيه زوجة لافريتسكي إلى مدينة آو، وهو يوم محزن له، كان يوم محنة لليزا، فقبل أن يكون لديها الوقت لتهبط إلى الطابق الأسفل لتحيي أمها تحية الصباح، سمع صوت وقع سنابك جواد تحت النافذة، وبإحساس خفي بالخطر رأت بانشين ممتطياً صهوة جواده في فناء الدار وفكرت: «من أجل إجابة نهائية قد جاء مبكراً هذا اليوم» ولم تكن مخدوعة فيما ظنت، فبعد أن جال في حجرة الاستقبال عرض عليها أن يذهبا إلى الحديقة معاً، وعندما أخذما مكانهما هناك، سألها عن أي وضع تقرر مصيره.

استجمعت ليزا شجاعتهما، وأنهت إليه أنه ليس في مقدورها أن تكون له زوجة. أضغى إلى كل ما كان لزاماً عليها أن تقول، وقد مال إلى جانب قليلاً، وضغط قبعته فوق عينيه، وسألها في أدب بالغ، ولكن بلهجة مغايرة، إذا ما كان ذلك هو قرارها النهائي، وإذا لم يكن بصورة أو بأخرى هو السبب لمثل هذا التغير الذي طرأ على آرائها، ثم غطى عينيه بيديه لحظة، وأصعد زفرة سريعة، وأبعد يديه عن وجهه.

قال حزينًا: «لم أرغب في سلوك الطريق المطروق، لقد أردت أن أختار رفيقًا لي، نزولًا على نداء قلبي، ولكنني أرى أن ذلك لن يكون، وإذن وداعًا لأحلامي».

ثم انحنى لها انحناءة كبيرة، وعاد إلى المنزل.

كانت تأمل أن ينصرف مباشرة، ولكنه ذهب إلى مخدع أمها، وبقي معها ساعة، وإذا كان يهم بمغادرة المنزل، قال لليزا: «إن أمك تستدعيك. وداعًا إلى الأبد»، ثم امتطى صهوة جواده وانطلق لتوه يركض بأقصى سرعة.

وعندما ذهبت ليزا إلى حجرة أمها وجدها باكية؛ فقد أخبرها بانشين بما مُنيَ به من فشل.

– لماذا تقتليني؟ لماذا تقتليني؟

هكذا بدأت الأرملة الكسيرة النفس شكواها: «أي رجل أفضل من هذا تريدن؟ لماذا لا يصلح لك زوجًا؟ وهو أمين في القصر الإمبراطوري، ومنزه عن كل غرض.. لماذا؟ وفي وسعه أن يتزوج من بطرسبرج من إحدى وصيفات الشرف في القصر.. أما أنا فطالما تآقت نفسي إليه، ومنذ متى قد غيرت رأيك فيه؟ ومن أين قد هبت علينا هذه السحابة؟ فلا يمكن أن تكون قد جاءت من تلقاء نفسها، وبالتأكيد ليس هو ذلك المتفلسف، يا له من ناصح ذلك الذي وجدت فيه، إذا ما كانت تلك هي الحال».

والت ماريا ديمتريفنا حديثها: «أما بخصوص صديقي المسكين

العزیز، فكم كان محترماً ولطيفاً حتى وهو في غمرة أحزانه، لقد وعد ألا يتخلى عني. آه، لن أستطيع احتمال هذا. آه، إن رأسي ليؤلمني آلاماً مروعة.. أرسلني بالاشكا إلي.. سوف تقتليني إذا لم تفكري أحسن مما فعلت. هل تسمعينني؟».

وحينئذ وبعد أن رمت ماريًا ديمتريفنا ليزا مرتين أو ثلاث مرات بنكرانها للجميل، تركتها تذهب.

ذهبت ليزا إلى حجرتها، ولكن قبل أن يتوافر لها وقت للتنفس، بعد ذلك المشهد مع بانشين ومع أمها، هبت عليها عاصفة أخرى، وكانت من آخر مكان توقعت أنها تهب منه.

دخلت ماريًا تيموفيفنا حجرتها فجأة، وأغلقت الباب فوراً خلفها. كان وجه السيدة العجوز شاحباً، وكانت قبعتها معوجة كل الاعوجاج، وعيناها تومضان بالشرر، وشفثاها ترتعشان، فتاهت ليزا في غيابة الدهشة؛ فما رأت عمتها الحكيمة المتزنة قط في مثل تلك الحال من قبل.

بدأت ماريًا تيموفيفنا تهمس بصوت كسير مرتجف: «حسنًا جدًّا، أيتها السيدة الشابة، حسنًا جدًّا... ولكن أريد أن أعرف فقط من علمك ذلك؟ يا ماما أعطني بعض الماء، فلا قدرة لي على الكلام».

قالت ليزا وهي تعطيها قدحًا من الماء: «هدئي من روعك يا عمته. ما الخطب؟ لماذا؟ لقد ظننت أنك لم تحبي م. بانشين».

رفعت ماريًا تيموفيفنا القدح بعيدًا عنها وقالت: «لا أستطيع أن

أشربه، فسوف أقتلع ما بقي لي من أسنان إذا ما حاولت ذلك، فما لبانشين وهذا الأمر؟ وماذا سنفعل مع بانشين؟ من الأفضل أن تخبريني من علمك أن تعطي مواعيد للقاء الناس في الليل، إيه يا أمي؟».

امتقع لون ليزا امتقاعاً شديداً.

واصلت مارفا تيموفينا الحديث: «لا تحاولي الإنكار، أرجوك، إن شورتشكا قد رأت كل شيء بنفسها، وهي لا تكذب إطلاقاً».

قالت ليزا بصوت يكاد لا يسمع: «سوف لا أنكر الأمر يا عمتاه».

- آه! آه! إذن الأمر حقيقي يا ماما. لقد ضربت موعداً معه، هذا المذنب العجوز، هذا المخلوق الفائق اللطف!

- لا.

- كيف وقع هذا اللقاء إذن؟

- لقد هبطت إلى حجرة الاستقبال للبحث عن كتاب، وكان خارجاً في الحديقة، ثم ناداني.

- وذهبت إليه؟ حسناً جداً، حقاً، ومن المحتمل أنك تهيمين به حباً، إذن؟

قالت ليزا بهدوء: «إنني أهيمن به حباً حقاً».

- أوه، يا أماه! إنها تهيم به حباً!

وهنا قالت مارفا تيموفينا وقد خلعت قبعتها: «إنها تحب رجلاً متزوجاً! إيه؟ تحبه!».

بدأت ليزا الحديث: «إنه أخبرني...».

- ماذا أخبرك؟ ماذا أخبرك هذا الصقر الصغير؟ إيه، ماذا؟

- لقد أخبرني أن زوجته قد ماتت.

رسمت مارفا تيموفينا إشارة الصليب، وهمست قائلة: «ليكن ملكوت السموات مثواها، لقد كانت امرأة طائشة، ولكن دعينا لا نفكر في ذلك الموضوع. لقد فهمت أنه عزب، أوه! نعم، إنه سادر في غيه، لقد قتل زوجة، وهو الآن بصدد قتل أخرى، إنه طراز ظريف من الرجال بكل تأكيد. ولكن يا ابنة أخي، دعيني أقل لك هذا القول، إن في أيام شبابي كانت أمثال هذه الأفعال تنتهي أسوأ نهاية مع الفتيات. لا تغضبي مني يا ماما، إن البلهاء فقط هم الذين يغضبون من الحق. لقد أمرتهم ألا يسمحوا له برؤيتي اليوم أيضًا. إني أحبه، ولكن لن أعفر له هذه الفعلة، إذن فهو عزب؟ أعطني بعض الماء. أما كونك قد جدعت أنف بانشين فلذلك أظن أنك فتاة طيبة. ولكن لا تستمري في الخروج ليلاً لتجالسي الرجال، ولا تدخلني التعاسة في حياتي في شيخوختي، وتذكري أنني لا أذعن دائماً للتدليل، إذ يمكنني أن أوجع أيضًا... عزب!».

انصرفت مارفا تيموفينا، وجلست ليزا في ركن، وبكت طويلاً. كان قلبها حزيناً في حناياها، فلم تكن تستحق كل هذا الإذلال؛ إذ قد عرفت الحب في صورة مرحة، وكانت هذه المرة الثانية منذ صباح الأمس التي تبكي فيها الآن. إن هذا الإحساس الجديد الذي تشده أو تبحث عنه، قد نبض لتوه بالحياة في قلبها، وكان حرياً أن يتقاضاها الشيء الكثير من قبل. وكيف عبث الأيدي الخشنة بكنزها المكنون.

أحست بالعار، والأذى والتعاسة، ولكن ما كان الشك أو الخوف ليشير الاضطراب في نفسها، وأصبح لافريتسكي أعز لديها وأعلى. لقد ترددت كثيرًا، إذ لم تكن متأكدة من حقيقة عواطفها، ولكن بعد ذلك اللقاء، وبعد تلك القبلة، فليس بمقدورها أن تردد ثانية. عرفت الآن أنها أحبت، وأنها أحبت بحرارة وإخلاص، وأن حبها كان حبًا ثابتًا، حبًا سوف يبقى ما بقيت حياتها. أما التهديدات فلم تكن ترهبها، وشعرت أن ذلك الرباط لا يمكن أن تفصمه قوة.



الفصل السابع والثلاثون

بلغ الضيق بماريا ديمتريفنا مبلغًا عظيمًا عندما علمت أن مدام لافريتسكي بالباب، فلم تعرف إذا ما كان لزامًا عليها أن تستقبلها، فقد كانت تخشى أن تسيء إلى لافريتسكي، ولكن حب الاستطلاع انتصر أخيرًا. وفكرت «على أي حال من الأحوال، فهي من ذوي قربانا أيضًا» فجلست على مقعد مريح، وقالت لكبير الخدم: «ادعها للدخول».

مرت دقائق معدودة، ثم في خطوة سريعة تكاد لا تسمع، تقدمت فارفارا بافلوفنا نحو ماريا ديمتريفنا، ودون أن تمهلها للنهوض من مقعدها، ركعت أو كادت على ركبتيها أمامها.

بدأت الحديث بالروسية، وهي تتكلم برقة، ولكن بلهجة العاطفة الجياشة: «شكرًا لك يا عمته، شكرًا لك، لم أجرؤ على مجرد الأمل في تنازلك إلى هذا الحد. أنت ملاك الصلاح والتقوى».

وبعد أن قالت هذا أمسكت فارفارا بافلوفنا دون توقع منها، أو انتظار بإحدى أيدي ماريا ديمتريفنا، ثم ضغطتها برفق بين قفازاتها البيضاء الناصعة، وهي من صناعة بيت جوفن للأزياء، ثم رفعتها باحترام إلى شفيتها الممطوطتين الورديتين.

إن منظر مثل هذه السيدة الأنيقة الرائعة الملبس قد اجتاح ماريا ديمترييفنا تمامًا، وهي تكاد تركع عند قدميها، ولم تدر أي موقف تتخذ حيالها. شعرت أنها تميل هونًا إلى سحب يدها، كما شعرت بميل لدعوة زائريها إلى الجلوس، وأن تقول لها شيئًا ودّيًا، وانتهى بها التفكير إلى النهوض من مقعدها، وقبّلت جبين فارفارا الأملس الناعم المعطر. وبدأت فارفارا مأخوذة تمامًا بتلك القبلة.

قالت ماريا ديمترييفنا: «أهلاً وسهلاً بك، عمي صباحًا، لم أكن أتصور أبدًا... وعلى أي وضع من الأوضاع، فأنا مسرورة حقًا لرؤيتك. يجب ألا يغرب عن بالك أنه ليس من شأني أن أكون حكمًا بين رجل وزوجه؟

قالت فارفارا بافلوفنا مقاطعة لها: «إن زوجي لعل صواب مطلق، أنا وحدي الملوّمة».

قالت ماريا ديمترييفنا: «هذه عواطف جديدة بالشكر والإعجاب جدًّا، هل مضى وقت طويل منذ وصلت؟ وهل رأيته؟ ولكن تفضلي بالجلوس».

أجابت فارفارا بافلوفنا وهي تجلس على مقعد جلسة تعبر عن الذل والاستكانة: «لقد وصلت بالأمس، ورأيت زوجي وتحدثت معه».

- آه.. حسنًا، وماذا قال؟

واصلت فارفارا بافلوفنا حديثها: «كنت أخشى أن يغضبه حضوري المفاجئ، ولكنه لم يرفض مقابلي».

قالت ماريا ديمترييفنا: «أعني أنه لم... نعم، نعم، لقد فهمت، إنه يبدو في مظهره خشن الطباع، ولكنه رقيق القلب حقاً».

- إن فيدور إيفانوفتش لم يصفح عني، ولم يرغب في الإصغاء إليّ، ولكن كان جميلاً منه أن يعطيني لافريكي لأقيم فيه.

- آه، يا له من مكان جميل!

- سأرحل غداً إلى هناك نزولاً على رغبته، ولكنني رأيت أن من واجبي أن أقوم بزيارتك أولاً.

- إنني مدينة لك بالشكر كثيراً جداً يا عزيزتي، فالواجب علينا ألا ننسى ذوي قربانا، ولكن ألا ترين أنني دهشة لحديثك بالروسية بهذه المقدرة؟ إنه لمذهل!

ابتسمت فارفارا بافلوفنا، وقالت:

- لقد مكثت طويلاً بالخارج يا ماريا ديمترييفنا، وإنني لعارفة بذلك جيداً، ولكن ظل قلبي روسياً دائماً، ولم أنس وطني.

- نعم، نعم. لا يوجد شيء مثل ذلك. إن زوجك بالتأكيد لم يكن ينتظرك إطلاقاً. نعم، بقي في خبرتي... إن الوطن قبل كل شيء آخر.. آه.. آه.. دعيني أرجوك.. ما أجمل ذلك الخمار الذي على رأسك!

- هل يروقك؟

خلعته فارفارا سريعاً من على منكبيها، وقالت: «إنه لبسيط جداً، إنه من بيت مدام بودران للأزياء».

- هذا يبدو جليلاً لأول نظرة، ما أجمله وما أحسن ذوقه! إنني لعلی

يقين أنك قد جئت بعدد وافر من الأشياء الفاتنة معك، وإنني لأود كثيرًا أن أراها.

- كل أدوات زيتي تحت تصرفك يا عمتي العزيزة، ولا بأس من أن تري وصيفتك شيئًا ما إذا رغبت في ذلك. ولقد أحضرت معي وصيفة من باريس، وهي حائكة ثياب مذهشة.

- إنك لطيفة للغاية يا عزيزتي، ولكنني في الواقع ليس لديّ النية.

- ليس لديك النية!

أعادت فارفارا بافلوفنا قائلة بلهجة اللوم: «إذا رغبت في إسعادي، فعامليني على أساس ما يربطنا من وشائج القربى».

أذعنت ماريا ديمتريفنا نوعًا ما.

وقالت: «إنك لفاتنة حقًا، ولكن لماذا لا تخلعين عنك قبعتك وقفازاتك؟».

سألت فارفارا بافلوفنا، وهي تقبض يديها في رفق متظاهرة بانفعال شديد: «ماذا؟ وهل تسمحين لي بذلك؟».

- طبعًا، وسوف تتناولين الغداء معنا كما آمل. وسوف... وسوف أقدم ابنتي لك.

شعرت ماريا ديمتريفنا بالضيق لحظة، ولكن حينئذ فكرت قائلة: «حسنًا ليكن. قد لا تكون على ما يرام اليوم».

صاحت فارفارا بافلوفنا قائلة وهي ترفع منديلها إلى عينيها:

- آه.. يا عمته، كم أنت رقيقة رفيقة!

وفي هذه اللحظة أعلن الوصيف وصول جيديونوفسكي، ودخل العجوز اللقلاق (من يثرثر بسيرة الناس) مبتسمًا وهو ينحني انحناء شديدًا، وقدمته ماريا ديمتريفنا إلى زائرتها. شعر بالخبجل في أول الأمر، ولكن فارفارا بافلوفنا سلكت معه في احترام حسن الدل، حتى إنه سرعان ما سرى الخدر في أذنيه، وبدأت تفيض من شفثيه أحاديث وقيل وقال وأحاديث ودية لا تتوقف.

أصغت إليه فارفارا بافلوفنا وهي تبسم في بعض الأحيان، وتدرجًا بدأت تتحدث أيضًا، فتحدثت في تواضع عن باريس، وعن أسفارها، وعن بادن، وأضحكت ماريا ديمتريفنا مرتين أو ثلاث مرات. وبعد كل مرة كانت تصعد تنهيدة رقيقة، وكأنها تلوم نفسها سرًا خفتها ورعوتها، واستأذنت في الانصراف لتحضر آدا من المنزل، نضت عنها قفازاتها، وأشارت ببيديها الناعمتين البيضاوين كيف تلبس الحواشي والسكرولر والشريط المخرم (الدانتيل) وهلم جرا، ووعدت بإحضار قارورة من العطر الإنجليزي -عطر فيكتوريا- وهللت من الفرحة كطفلة عندما رضيت ماريا ديمتريفنا بقبولها هدية منها، وغرقت في دموعها لذكرى العواطف التي تذوقتها عندما سمعت الأجراس الروسية الأولى.

فقالت: «لقد تغلغلت في أعماق قلبي».

وفي تلك اللحظة دخلت ليزا الحجرة.

وطوال ذلك اليوم، منذ اللحظة التي كانت فيها مقرورة باليأس، قرأت ليزا عجالة لافريتسكي وكانت تعد نفسها للقاء مع زوجته. لقد

تنبأت بأنها ستراها، وعقدت العزم على ألا تتجنب هذا اللقاء، بتوقيع قصاص على نفسها لقاء ما اقترفت ما أسمته الآمال الآثمة. إن الأزيمة غير المتوقعة التي حلت بمصيرها قد هزتها في أعماقها، وفي مدى ساعتين من الزمان بدأ وجهها نحيلًا رقيقًا، ولكنها لم تذرف دمعة واحدة. قالت لنفسها: «إن ذلك ما تستحقينه» وهي تكبت على الرغم مما كابדתه من مشقة لهذا الكبت، وباضطراب شديد تكبت أفكارًا مريرة ودوافع شريرة أفزعته إذ ثارت في عقلها. فكرت قائلة لحظة سمعت بوصول مدام لافريتسكي: «حسنًا يجب أن أذهب» وهكذا ذهبت.

وقفت خارج باب حجرة الاستقبال وقتًا طويلًا قبل أن تقرر فتحه، وفي النهاية، وهي تقول لنفسها: «أنا مذنبه أمامها» دخلت الحجرة وأرغمت نفسها على الابتسام أيضًا. تقدمت فارفارا بافلوفنا لتلقاها، بمجرد أن رأتها تدخل الحجرة، وحيثها تحية بسيطة، ولكنها تحية حافلة بالاحترام أيضًا.

بدأت الحديث بلهجة خلافة: «اسمحي لي بأن أقدم نفسي، لقد كانت أمك جمة العطف، غامرة اللطف معي إلى حد جعلني آمل أنك سوف تكونين لطيفة جدًا معي».

وكان التعبير على وجه فارفارا بافلوفنا وهي تتفوه بالكلمات الأخيرة، وابتسامتها الماكرة ونظرتها الباردة، وفي الوقت نفسه نظرة محبة وحركات يديها وكتفيها ورداؤها نفسه، وكيانها كله أثارت في نفس ليزا إحساسًا بالاشمئزاز حال تمامًا دون قدرتها على الإجابة عليها. واستطاعت بجهد جهيد فقط أن تمد يدها لتصافحها. فكرت

فارفارا بافلوفنا وهي تضغط على أصابع ليزا الباردة: «هذه السيدة الشابة تكرهني» وحينئذ اتجهت إلى ماريا ديمترييفنا وقالت بالفرنسية شبه هامسة: «ولكنها عذبة!».

ترددت ليزا قليلاً، ففي تلك العبارة تكشف نغمة التهكم والإهانة. وعلى أي حال، فقد عازمت على ألا تستسلم لذلك الإحساس، وأخذت مكانها إلى منسج التطريز بجوار النافذة.

وحتى وهي في ذلك المكان، فإن فارفارا بافلوفنا لم تتركها في سلام، فقد جاءت إليها وأطرت مهارتها وذوقها الجميل، وهنا بدأ قلب ليزا ينبض بقوة مؤلمة، تكاد لا تسيطر على شعورها، وتكاد لا تستطيع البقاء جالسة بهدوء في مكانها، وبدأ لها كأن فارفارا بافلوفنا عرفت كل شيء، وأنها تسخر منها بانتصار خفي. ولحسن حظها بدأ جيديونوفسكي يتحدث إلى فارفارا، فحول انتباهها بعيداً عنها، فانحنت ليزا على منسجها، وراحت ترقبها دون أن يلحظها أحد. وفكرت قائلة: «تلك المرأة، لقد أحبها يوماً ما» ولكن حينئذ طردت سريعاً من ذهنها الكثير من الأفكار مثل ما يدور حول لافريتسكي، وشعرت أن رأسها بدأ يدور تدريجاً، وخشيت أن تفقد سيطرتها على نفسها، وبدأت ماريا ديمترييفنا تتحدث عن الموسيقى.

بدأت قائلة: «لقد سمعت يا عزيزتي إنك عازفة ماهرة».

أجابت فارفارا بافلوفنا: «لم أعزف منذ عهد بعيد» ولكن سرعان ما أخذت مكانها أمام المعزف، وأجرت أصابعها في سرعة على نابضاته (مفاتيحه): «هل تريدني أن أعزف؟».

- إذا تفضلت علينا بذلك الصنيع.

عزفت فارفارا بافلوفنا بأسلوب بارع دراسة باهرة وشاقة للموسيقار هارز، وكان أداؤها يمتاز بالقوة والسرعة.
وصاح جيديونوفسكي قائلاً: «يا لها من حورية!».

أعلنت ماريا ديمتريفنا: «إنه لحن رائع! يجب أن أقرر عدلاً وإنصافاً إنك قد أذهلتني يا فارفارا بافلوفنا»، وهي تنادي هذه السيدة باسمها للمرة الأولى.

- ما بالك في إقامة حفلات موسيقية، فبيننا موسيقار هنا، وهو ألماني مسن، إنه متضلع وذو أصالة في فنه، ويعطي ليزا دروساً، ولسوف تفقدينه عقله.

سألت مدام لافريتسكي وهي تتجه برأسها قليلاً نحوها: «وهل ليزافيتا ميخائيلوفنا موسيقية أيضاً؟».

- نعم، إنها تعزف عزفاً لا بأس به، وهي مولعة بالموسيقى، ولكن ماذا يعني ذلك إذا ما قورنت بك؟ ولكن معنا هنا أيضاً شاب، وحقاً يجب أن نتعرفي به، فهو فنان حق في أحاسيسه ومشاعره، ويؤلف موسيقى ساحرة، كما أنه الشخص الوحيد هنا الذي يستطيع أن يقدرك حق قدرك.

سألت فارفارا بافلوفنا: «شاب؟ وما مهنته؟ أهو فتى فقير؟».

- معذرة يا سيدتي، فهو الفارس الذي يأخذ بالزمام، ويسيطر على الموقف، وليس هنا فقط، بل في بطرسبرج أيضاً، وهو أمين في القصر

الإمبراطوري، ويلقى الترحاب في أرقى مجتمع. لا بد أنك قد سمعت عنه، فلاديمير نيكولايفتش بانشين، وهو هنا الآن في مهمة رسمية، وهو وزير المستقبل.

- وهو فنان أيضًا؟

أضافت ماريا ديمتريفنا قائلة، وهي تزفر تنهيدة بسيطة وتبتسم ابتسامة مرة: «هو فنان بمشاعره وأحاسيسه، وهو محبوب وأنيس جدًا، وسوف ترينه، وكان كثير التردد علينا في وقت مضى، ولقد دعوته للحضور هذا المساء، وإنني آمل أن يلبي الدعوة».

فهمت ليزا المعنى الخفي لهذه الابتسامة، ولكن كان عندها حيتئذ من الأفكار ما يشغل بالها.

«وهو شاب»، أعادت فارفارا بافلوفنا القول متسائلة، واللحن ينساب ارتفاعًا وانخفاضًا في رقة من نابض إلى نابض.

- إنه في الثامنة والعشرين من عمره، ويتمتع بأحسن المظاهر وأشدّها بعثًا للسرور والرضى، فهو شاب كامل.

أشار جيديونوفسكي قائلاً: «إنه المثل الأعلى للشباب، هذا ما يجب أن نقوله عنه».

وفجأة بدأت فارفارا بافلوفنا توقع فالسًا صاحبًا من أعمال شتراوس مبتدئة بهزة عالية سريعة كان قد بدأها جيديونوفسكي متوسطة معتدلة، وفي وسط الفالس تمامًا انتقلت فجأة إلى نغمة حزينة وانتهت بلحن «عما قليل سنغادر لوسيا» إذ تذكرت فجأة أن الموسيقى المرحّة لا تتناسب والظروف المحيطة بها.

ولقد تأثرت ماريا ديمترييفنا باللحن «من لوسيا» الذي أكدت فيه تأكدًا عظيمًا الفقرات العاطفية.

همست قائلة في أذن جيديونوفسكي: «يا لها من مشاعر!». أعاد جيديونوفسكي القول، وهو يرفع عينيه إلى السماء: «يا لها من حورية!».

حانت ساعة الغداء، ولم تحضر مارفا تيموفيفنا من الطابق العلوي إلى الطابق السفلي حتى كان الحساء قد وضع على المائدة، سلكت سلوكًا فطرًا تجاه فارفارا بافلوفنا، وهي تجيب على أحاديثها الودية بعبارات متقطعة، وهي لا تكلف نفسها حتى مؤونة النظر إليها. وسرعان ما أدركت فارفارا بافلوفنا أن حديثًا ما لا يمكن الحصول عليه من تلك السيدة العجوز، فأمسكت عن الحديث معها. ومن جانب آخر صارت مدام كاليتين أكثر تلطفًا في سلوكها مع ضيفتها، وقد ضايقتها خشونة عمتها.

وفي النهاية لم تكن فارفارا هي السيدة الوحيدة التي لا تنظر إليها السيدة العجوز، فلم تنظر مرة واحدة إلى ليزا أيضًا، رغم أن عينيها كانتا تومضان ببريق ذي معنى، فهي شاحبة وضاربة إلى الصفرة، جلست هناك بشفتين مطبقتين، تنظر وكأنها تمثال منحوت من صخر لا تأكل شيئًا.

أما ليزا فقد بدت هادئة، وكانت واقعية إلى حد بعيد، وكان قلبها أكثر هدوءًا من ذي قبل، وقد علتها صرامة عجيبة، صرامة المذنب المدان.

وفي أثناء الغداء تحدثت فارفارا بافلوفنا قليلاً، وبدأ أنها عادت شديدة الحياء مرة أخرى، وحمل وجهها تعبيراً من الأسى الخفير. وكان جيديونوفسكي هو الشخص الذي أبقى على الحديث نابضاً بالحياة، وهو يقص عديداً من أفاسيصه، على الرغم من أنه من آن لآخر كان ينظر هيباباً خجولاً إلى مارفا تيموفينا، ويسعل، وكان هذا السعال يستولي عليه دائماً إذا همّ بتنميق الحق في محضرها. ولكن في هذه المرة لم تتدخل في شؤونه، فلم تقاطعه مرة واحدة.

وبعد الغداء وضح أن فارفارا بافلوفنا ولوعة بلعبة «البرفانس».

كانت مدام كاليتين جد مسرورة لهذا الوضع إلى حد أنها تأثرت تأثيراً شديداً، وفكرت قلبياً «لماذا؟ أي أحق فيدور إيفانوفتش يجب أن يكون. كيف أتصور أنه لم يكن قادراً على فهم مثل هذه المرأة».

جلست إلى مائدة لعب الورق مع فارفارا وجيديونوفسكي، ولكن مارفا تيموفينا حملت ليزا إلى غرفتها في الطابق العلوي، وهي تقول إن البنت لم يبق لها وجه، وأنها كانت على ثقة من أن رأسها لا بد يؤلمها. قالت مدام كاليتين مخاطبة فارفارا بافلوفنا، وهي تدير عينيها: «نعم، إن رأسها يؤلمها ألماً مبرحاً، كثيراً ما يتتابني مثل هذا الألم».

أجابت فارفارا بافلوفنا: «حقاً».

دخلت ليزا حجرة عمتها، وتهاوت على مقعد وهي منهوكة القوى تماماً، وظلت مارفا تيموفينا تنظر إليها وقتاً طويلاً في صمت، ثم ركعت في هدوء أمامها وبدأت، وما زالت صامتة، تقبل يديها الواحدة تلو الأخرى.

انحنت ليزا إلى الأمام وقد احمر وجهها، ثم انخرطت في البكاء، ولكنها لم تنهض عمتها، ولم تسحب يديها منها؛ إذ شعرت أن لا حق لها في سحبهما، لا حق لها في أن تمنع السيدة العجوز من التعبير عن أسأها وعطفها، ومن أن تسألها العفو لما قد وقع بالأمس. ولم تستطع مارفا تيموفيفنا من تقبيل هذين اليدين الذابلتين الشاحبتين العاطلتين من الأعصاب، بينما تتدفق الدموع الصامتة من عينيها، ومن عيني ليزا أيضاً، والقطعة ماتروس تهر في المقعد الكبير بجوار الجوارب وكرة الصوف المبروم. وكان لهب المصباح الصغير يختلج باهتاً أمام الصورة المقدسة، وفي الحجرة المجاورة، إلى الجانب الآخر من الباب، وقفت ناستاسيا كاربوفنا، وهي تحفف عينيها خفية بمنديل أنيق مطوي كالكرة.



الفصل الثامن والثلاثون

وفي الطابق السفلي وفي هذه الأثناء استمرت لعبة «برفرنس» بالورق، وكانت ماريا ديمتريفنا هي الراححة، وكانت طلبة المحيا رائقة المزاج. ودخل خادم وأعلن وصول بانشين، وتركت ماريا ديمتريفنا الورق يسقط من يديها وتململت في مقعدها، ونظرت إليها فارفارا بافلوفنا بنصف ابتسامة، ثم اتجهت ببصرها نحو الباب.

ظهر بانشين مرتدياً سترة سوداء، وقد زررت جميع عراها من أسفل إلى أعلى، وهو يلبس بنيقة قميص إنجليزية عالية: «لقد كان من المؤلم لي أن أطيع، ولكن كما ترين هأنذا قد جئت» هذا هو ما كانت تفصح عنه تعبيرات وجهه الصارم، وكان من الواضح أنه قد حلق لحيته لهذه المناسبة.

صاحت ماريا ديمتريفنا قائلة: «لماذا هذا يا فلاديمير؟ لقد اعتدت دائماً أن تجيء دون أن يعلن الخادم قدومك».

لم يجب بانشين بأكثر من نظرة، وانحنى في أدب لماريا ديمتريفنا، ولكنه لم يقبل يدها. وقدمته لفارفارا بافلوفنا، فتراجع خطوة وانحنى لها

بالأدب نفسه، بالإضافة إلى سمة الكياسة الحافلة بالاحترام، ثم جلس في مقعد إلى مائدة اللعب، وانتهى سريعاً واستفسر بانشين عن ليزافيتا ميخائيلوفنا، وعبر عن أسفه لسماحه أنها ليست بصحة جيدة تماماً، ثم راح يتجاذب أطراف الحديث مع فارفارا بافلوفنا وهو يزن كل كلمة بحرص وعناية، ويؤكد لها بوضوح بأسلوب دبلوماسي حق. وعندما تحدثت استمع إلى إجابتها في احترام حتى النهاية، ولكن رزانة لهجته الدبلوماسية لم تترك أثراً في نفس فارفارا بافلوفنا، بل على النقيض نظرت إليه مواجهة بلون من الاهتمام الباسم، وبدت وهي تتحدث إليه، أنها مستريحة تماماً، وارتعش منخراها الرقيقان بخفة، وكأنهما يرتعشان بالضحك المكتوم.

بدأت ماريا ديمتريفنا تطري مهارة فارفارا، وحنى بانشين رأسه في أدب بقدر ما سمحت له بنية قميصه، وأعلن أنه قد سبق أن اقتنع من قبل بطبيعة ذكائها الخارق للعادة، وقد ساقهم هذا الحديث في نهاية الأمر إلى موضوع الحديث عن مترنيخ نفسه.

أغمضت فارفارا بافلوفنا عينيها نصف إغماضة قائلة بصوت خفيض أكثر من قبل: «تعال!» وأومأت برأسها في اتجاه المعزف (البيانو)، وهذه الكلمة الوحيدة «تعال!» التي انطلقت على حين غرة من شفتيها، غيرت هيئة بانشين تغييراً تاماً وكأنها السحر، في لحظة واحدة فزائلت سمة المُضنى بالهموم، وبدأت الابتسامة ترف على شفتيه، وامتلاً نشاطاً وحيوية، وحل عرى سترته قائلاً: «أنا فنان! أبداً، ولكنك كما أسمع دائماً فنانة حقاً»، وتبع فارفارا بافلوفنا إلى المعزف.

صاحت ماريا ديمتريفنا قائلة: «اطلبي منه أن يغني كيف يسبح القمر في السماء».

صاحت فارفارا بافلوفنا وهي تنظر إليه نظرة مشرقة سريعة: «هل تغني؟ اجلس هناك».

بدأ بانشين يلتمس الأعذار.

وأعادت القول وهي تخط ظهر المقعد في حزم وإصرار: «تفضل بالجلوس».

جلس وسعل، ورفع بنيقة قميصه وغنى الرومانس.

قالت فارفارا بافلوفنا: «يا لك من ساحر! إنك تغني غناءً جديرًا بالإعجاب، إنك فنان عملاق كامل. غنها ثانية».

ذهبت إلى الجانب الآخر من البيانو، وجلست مقابل بانشين تمامًا، وأعاد غناء الرومانس وهو يضيف على صوته تنوعات شجية، نظرت فارفارا إليه نظرات ثابتة، وهي تستند بمرفقيها على المعزف ويدها البيضاء في مستوى شفيتها.

انتهت الأغنية فقالت: «فاتن!» بثقة الخبيرة الهادئة.

- أخبرني بربك، هل كتبت شيئًا يناسب صوت امرأة - ميزوسوبرانو^(١) - الندي المتوسط؟

فأجاب بانشين قائلاً: «نادرًا ما أكتب شيئًا؛ فأنا أفعل هذا بين الفينة والفينة خلال الراحة وبين ساعات العمل. ولكن هل تغنين؟».

(١) أعلى نغمة في الموسيقى.

هزت فارفارا بافلوفنا رأسها ودفعت شعرها إلى خلف عن وجنتيها
المتوردتين، وحينئذ وجهت الكلام إلى بانشين وقالت:

- يجب أن يسير صوتنا معًا سيرًا حسنًا، هلم بنا نغني ثنائية، هل
تعرف «أنا غيور» أو «سنمنحها لأنفسنا» أو «ألا ترى القمر الفضي؟».

أجاب بانشين: «لقد اعتدت أن أغني «انظر إلى القمر الفضي»،
ولكن كان ذلك منذ زمن طويل، ولا أذكرها الآن».

- لا تهتم، فسوف نرسمها معًا، أولاً على سبيل التجربة. دعني
أجلس هناك.

وجلست فارفارا بافلوفنا إلى المعزف، ووقف بانشين بجوارها،
ورنما الثنائية معًا، ولقد صوبت فارفارا بافلوفنا أخطاءه عدة مرات، ثم
انطلقا بالغناء بصوت مرتفع، ثم أعادا الكرة مرتين.

«انظر إلى القمر الفضي»، فقد صوت فارفارا عذوبته، ولكنها
ساست الأمر بمهارة فائقة. كان بانشين عصبيًا في أول الأمر وغنى غناء
زائفًا نوعًا ما، ولكنه خبر التوقد الفني فيما بعد، فإذا لم يرتكب خطأ في
الغناء، كان دائمًا يهز كتفيه وهو يتمايل بجسمه إقبالا وإدبارًا، وهو يرفع
يده عالية من آن لآخر كأي منشد أصيل.

وعزفت فارفارا بافلوفنا فيما بعد مقطوعتين أو ثلاث مقطوعات
من مؤلفات تالبرج، وغنت أغنية فرنسية في دل جميل.

لم تعرف ماريا ديمتريفنا كيف تعبر عن سرورها، وأحست غير مرة
برغبة قوية في استدعاء ليزا. ولم يجد جيديونوفسكي الكلمات الجديرة

بهذه المناسبة، ولم يكن يستطيع أن يفعل أكثر من أن يهز رأسه. وفجأة، على أي حال من الأحوال، ودون توقع تمامًا ثناء ولم يحاول سوى أن يخفي فمه بيده.

لم يفت هذا التأؤب ملاحظة فارفارا، فأدارت ظهرها فجأة للمعزف وهي تقول: «كفى هذا اللون من الموسيقى، دعونا نتحدث قليلاً» وصلبت يديها أمامها.

أعاد بانشين القول بسرور: «نعم، كفى هذه الموسيقى»، وبدأ يتجاذب وإياها الحديث، وكان حديثاً نشيطاً خفيفاً باللغة الفرنسية، وكأنهما حقاً في صالون من أرقى صالونات باريس. بذلك فكرت ماريا ديمتريفنا قائلة وهي تصغي لحديثها السريع السهل.

أحس بانشين بالسعادة كاملة، فابتسم ولمعت عيناه، وكان في بادئ الأمر إذا ما التقت عيناه بعيني ماريا ديمتريفنا مصادفة، يمر بيده على وجهه ويعبس وهو يتنهد بغتة، ولكن بعد وقت ما نسي وجودها تمامًا واستسلم بغير تحفظ إلى متعة حديث نصف دارج ونصف فني معاً.

برهنت فارفارا بافلوفنا أنها فيلسوف عظيم، فقد كان لديها إجابة معدة لكل شيء، لم تشكك في شيء ولم تتردد أمام أي شيء. وكان واضحاً أنها كثيراً ما تحدثت مع كل أنماط مهرة الناس، وكانت كل أفكارها ومشاعرها تدور حول باريس، وعندما جعل بانشين الأدب موضوع الحديث ظهر أنها مثله، لم تقرأ سوى الكتب الفرنسية، وكانت تشيرها جورج صاند، وتقدر بلزاك، على الرغم من أنه يضجرها، وكانت تنسب إلى يوجين سو وسكريب معرفة عميقة بالقلب الإنساني، وتمجد

دوماس وفيفال. وفي الحقيقة كانت تفضل بول دي كوك على جميع الآخرين، ولكن كما نظن، فلم تذكر حتى مجرد اسمه، حتى لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الأدب لم يكن ليهما كثيرًا.

تجنبت فارفارا بافلوفنا بمقدرة عظيمة كل ما كان من شأنه -ولو من بعيد- أن يشير إلى وضعها، ففي كل ما قالت، لم يرد أدنى ذكر للحب، بل على النقيض بدت لغتها أكثر ميلًا إلى التعبير عن الشعور الصارم فيما يتصل بإغراء العواطف وناطقة بالأمل الكاذب والاستسلام.

أجلبها بانشين، ولكنها لم تنزل عند رأيه، ومن العجيب أن نقول، على كل حال، إن في الوقت نفسه الذي كانت تنطق فيه بكلمات تحمل معنى الحكم القاسي عادة، فإن نغمة هذه الكلمات نفسها كانت رقيقة لطيفة، وعبرت عن- أن ما عبرت عنه هاتان العينان الساحرتان من العسير ذكره، ولكنه كان شيئًا لا يحمل في طياته خشونة ما، بل يحمل عذوبة غامضة. حاول بانشين أن يتبين معانيها الخفية فحاول أن يجعل عينيه بليغتين، ولكنه كان شاعرًا أنه قد مُني بالفشل، فاعترف أن فارفارا بافلوفنا في مقدورها، كأنثى الأسد الحقيقية القادمة من الخارج، أن تقف على مستوى أعلى من مستواه، وحينئذ فقد السيطرة على نفسه تمامًا.

كان من عادة فارفارا بافلوفنا أن تلمس من آن لآخر كُم الشخص الذي تتحدث معه، فكانت هذه اللمسات الخفيفة تضايق بانشين ضيقًا شديدًا، وكان لها قدرة على أن تعقد صلة وثيقة مع أي شخص، فقبل أن تمضي ساعتان بدا لبانشين أنه يعرفها من عهد بعيد، وكأن ليزا، ليزا نفسها التي أحبها كثيرًا والتي طلب يدها بالأمس، قد اختفت في نوع من الضباب.

أحضر الشاي وتحرر الحديث من القيود أكثر من ذي قبل، ودقت مدام كالتين الجرس في طلب الوصيف وأخبرته أن يدعو ليزا للنزول إلى الطابق السفلي، إذا كان الصداع الذي ألم بها قد زال عنها وتحسنت، وعند ذكر اسم ليزا بدا بانشين يتحدث عن تضحية النفس، ويناقش مسألة من أقدر على مثل هذه التضحية: الرجل أم المرأة. وسرعان ما ثارت ماريما ديمتريفنا، وراحت تؤيد أن المرأة أقدر، وتؤكد أن في مقدورها البرهان في كلمات قلائل، واضطربت لهذه الكلمات وانتهت بمقارنة منكودة بما فيه الكفاية.

تناولت فارفارا بافلوفنا إحدى صحائف الموسيقى، وهي تحجب وجهها نصف حجاب بها، وانحنت على بانشين وقالت في همس وهي تقضم (بسكوتة) وابتسامة هادئة تتلاعب حول شفيتها وعينيها: «لم تكن هي التي اخترعت البارود، السيدة الطيبة».

ذهل بانشين نوعاً ما، وانزعج قليلاً لجرأة فارفارا، ولكنه لم يلحظ قدر ما في هذه الملحة غير المتوقعة من ازدراء له، وناسياً كل ما أولته ماريما ديمتريفنا من عطف، وود، ناسياً حفلات العشاء التي أقامتها من أجله، والنقود التي أقرضتها له. أجاب: «لقد كان إنساناً تعساً» قالها باللهجة نفسها، وابتسامة مماثلة: «أعتقد ذلك...».

نظرت إليه فارفارا بافلوفنا نظرة ودية ونهضت من مقعدها، ودخلت ليزا الحجرة في تلك اللحظة، وجهدت ماريما تيموفينا في الحيلولة دون ذهابها، ولكن عبثاً.

ولقد أصرت ليزا على أن تتلقى المحنة، وتحملها حتى النهاية،

وتقدمت فارفارا بافلوفنا للقائها، وكان معها بانشين الذي اتخذ وجهه للمرة الثانية التعبير الدبلوماسي السابق.

وسألتها فارفارا: «كيف حالك الآن؟».

فأجابت ليزا: «شكرًا لك، أنا أحسن الآن».

قال بانشين: «كنا نمضي الوقت بالاستماع إلى قليل من الموسيقى، إن من دواعي الأسف أنك لم تستمعي إلى فارفارا بافلوفنا؛ فهي تغني غناء ساحرًا، إنها فنان كامل جمعت أطراف الفن».

«تعالى هنا يا عزيزتي» قالت مدام كاليتين. وبطاعة شبيهة بطاعة الأطفال ذهبت إليها فارفارا بافلوفنا فورًا، وجلست على مقعد لا ظهر له عند قدميها، واستدعتها ماريا ديمتريفنا لتعطي ابتها فرصة الانفراد ببانشين ولو للحظة واحدة، فما زالت تأمل سرًا أن تغير ليزا رأيها، وبالإضافة إلى ذلك، فقد خطرت ببالها فكرة أرادت التعبير عنها بجميع الوسائل.

همست قائلة في أذن فارفارا بافلوفنا: «هل تعرفين أنني أرغب في تسوية الخلاف بينك وبين زوجك. ليس بوسعي الوعد بالنجاح، ولكني سأحاول، فهو يقدرني كل التقدير كما تعلمين».

لم تفعل فارفارا سوى أن رفعت بصرها إلى ماريا ديمتريفنا، وقبضت على يديها معًا برشاقة.

ثم قالت لها بصوت حزين: «سوف تكونين منقذتي يا عمته، إنني لعاجزة عن تقديم آيات الشكر إليك كما ينبغي؛ لما ألقاه من عطفك

الجم، ولكنني مذنبة أمام فيدور إيفانوفتش، وليس بوسعه أن يغفر لي». بدأت ماريا ديمترييفنا، بفضول يمتلئ حماساً: «ولكن هل أنت حقاً... في الواقع؟».

قالت فارفارا مقاطعة لها: «لا تسأليني» ثم نظرت إلى أسفل واستطردت: «كنت حديثه السن وطائشة، وعلى كل حال، فلا أريد أن أتلمس لنفسي الأعذار».

أجابت ماريا ديمترييفنا: «وعلى الرغم من كل ذلك، فلماذا لا نحاول؟ لا تستسلمي لليأس» وهمت لترت على خدها، ولكن نظرت إليها فداخلها الخوف.

فكرت قائلة: «إنها خفرة فطنة، ولكن على الرغم من ذلك، فما زالت كأنتى الأسد».

وسأل بانشين ليزا في الوقت نفسه: «ألست بخير؟».

وأجابت ليزا: «لست بخير تماماً».

قال، بعد صمت طويل نوعاً ما: «فهمت، نعم لقد فهمت».

– ماذا تعني؟

أعاد بانشين القول، وهو يعني ما يقول، إذ كان حائراً ليس لديه ما يقوله: «لقد فهمت».

وشعرت ليزا بالارتباك، ولكنها فكرت حينئذ قائلة: «وماذا عسى أن يهتم هذا الأمر؟».

وفي الوقت نفسه تظاهر بانشين بالغموض، ولاذ بالصمت وهو ينظر في اتجاه مختلف، وارتسم على وجهه تعبير جاد.

لاحظت ماريا ديمترييفنا قائلة: «كيف هذا؟ أظن أن الساعة قد جاوزت الحادية عشرة» وأدرك ضيوفها تلميحتها، وبدأوا يستأذنون في الانصراف، واضطرت فارفارا أن تقطع على نفسها وعدًا بالحضور وتناول الغداء في غد، وأن تصحب آدا ابتها معها. أما جيديونوفسكي الذي كاد يستسلم للنوم إذ جلس في ركن، فقد عرض أن يصحبها في العودة إلى منزلها. انحنى بانشين في جد لجميع الحاضرين، وفيما بعد وإذ هو يقف على السلم ساعد فارفارا حتى استقرت داخل عربتها، وضغط يدها في رقة وصاح قائلاً وقد تأهبت العربة للمسير: «إلى اللقاء...» وجلس جيديونوفسكي بجوارها في العربة، وكانت تسلي نفسها طوال الطريق بوضع طرف قدمها الصغير، وكأنها عن غير قصد، على قدمه. كان يشعر بالخجل، ويحاول أن يطيرها بمعسول القول، فكانت تكتم ضحكاتها، وترمقه بنظرات الغرام إذا ما سقط عليهما ضوء مصابيح الشوارع في داخل العربة. وكان الفالس الذي عزفته يجلبجل في آذانها ويثير شجونها، ففي أي مكان كانت ينبغي لها ألا تفكر سوى في حلبة الرقص والأضواء الساطعة واللف والدوران الرشيق على وقع ألحان الموسيقى، ثم يحترق قلبها بين جنبها وتومض عيناها ببريق عجيب وتطوف ابتسامة حول شفتيها، ويبدو أن لونًا من الحسن العرديد يفيض حولها ويعم جسدها.

وعند وصولها إلى منزلها، وثبت فارفارا من العربة في خفة كما يمكن لأنتى الأسد فقط أن تثب، واتجهت نحو جيديونوفسكي وفجأة انفجرت ضاحكة في وجهه.

فكر مستشار الدولة عندما سار في طريقه إلى منزله، حيث كان
خادمه في انتظاره ومعه زجاجة من مرهم الصابون المعطر بالكافور:
«يالها من مخلوقة ساحرة، إني أيضًا رجل متزن... ولكن لماذا
ضحكت؟».

جلست مارفا تيموفينا ساهرة بجوار فراش ليذا طوال تلك الليلة
كلها.



الفصل التاسع والثلاثون

أمضى لافريتسكي يومًا ونصف اليوم في فاسيليفسكوي يجول في أرباض المدينة طوال الوقت كله تقريبًا، إذ إنه لم يتمكن من البقاء في مكان واحد طويلًا، فقد كانت خيبته تنخسه باستمرار، فعانى كل ألوان الكروب متصلة شديدة وذاق تباريح حنين العاجز الواهن، وتذكر الإحساس الذي شمله في اليوم التالي لوصوله الأول، وتذكر العزم الذي عقده آنئذ وثار غاضبًا من نفسه، فماذا تكون تلك القوة التي تقعه عن مواجهة ما سلم بأنه واجبه، وهي المشكلة الوحيدة في حياته المستقبلية -الظمًا للسعادة- الظمًا القديم للسعادة. وفكر قائلاً:

«يبدو أن ميخائيليفتش كان على صواب إذن. تريد أن تعثر على السعادة مرة أخرى في الحياة»، وقال لنفسه: «ولقد نسيت أنه لكي تزور السعادة رجلًا ولو مرة واحدة هي صنيع لا نستحقه وانغماس في الترف. لقد كانت سعادتك ناقصة، كانت زائفة كما ينبغي لك أن تقول حسنًا. أرني أي حق لك في سعادة حقّة كاملة! تطلع حواليك وانظر من هو السعيد، ومن ذا الذي يستمتع بالحياة! ها هو ذا فلاح ذاهب إلى حقله

ليحصد زرعه قد يكون هو الذي يرضى بنصيبه وما قسم الله له، ولكن ما شأن ذلك؟ هل ترضى أن تستبدل بنصيبك نصيب ذلك الفلاح؟ تذكر أمك! كم كانت رغباتها معتدلة كل الاعتدال بسيطة كل البساطة، ومع ذلك فأَي قرعة وقعت على نصيبها! يبدو أنك كنت تزدهي على بانشين، عندما أخبرته أنك جئت إلى روسيا لتفلاح الأرض. ولكنك جئت لتطارده الفتيات في شيخوختك. لقد وصلت أخبار الحرية وألقيت جانباً كل شيء، ونسيت كل شيء، وعدوت كطفل خلف فراشة».

وفي غمرة تأملاته كانت تطارده صورة ليزا، وحاول بجهد عنيف أن يطرد عنه هذه الصورة ومعها صورة أخرى تلاحقه، وجه جميل آخر، ولكن ملامحه شريرة كريهة.

وأشار أنطون العجوز أن سيده ليس على عادته تمامًا، وبعد أن أصعد تنهدات عديدة من خلف الباب، وغير مرة وهو على عتبة الدار، خاطر بالذهاب إليه ونصحه باحتساء شراب ساخن. تحدث لافريتسكي إليه بعنف وجفوة، وأمره بالخروج من الحجرة، ثم عاد فأخبره بأسفه لما قد فعل، وزاد هذا من حزن أنطون عن ذي قبل.

لم يتمكن لافريتسكي من البقاء في حجرة الاستقبال؛ فقد توهم أن جده أندريه كان ينظر من خلال إطاره بالاحتقار والازدراء إلى خلفه الضعيف الواهن، وبدت الشفتان المعوجتان تقولان له: «إن هذا لكثير عليك! أنت تسبح في ماء ضحل!»^(١) وفكر قائلاً: «هل يمكن ألا أتمكن من السيطرة على نفسي، وأني سأستسلم لهذا... هذا الأمر

(١) جزء من مثل شائع روسي.

لطيف! إن الرجال الذين يصابون بجراح خطيرة في ساحة قتال يظنون دائماً أن جراحهم (أمر طفيف ليس إلا) وعندما يعود رجل غير قادر على خداع نفسه، فقد حان وقته ليتخلى عن الحياة. هل أنا طفل حقاً؟ حسناً، نعم. لقد رأيت على مقربة مني، ولقد أدركت غالباً احتمال نيل السعادة مدى الحياة، وحينئذ اختفت فجأة كما يحدث تماماً عند إلقاء القرعة. أدر العجلة بسرعة أكثر قليلاً، ومن المحتمل أن يتحول المعدم إلى غني. فإذا لم يكن، فلا يكن، وقد انتهى كل شيء. سوف أعكف على عملي وأنا أجز على نواجزي، وأرغم نفسي على الصمت، ولسوف أنتصر، فليست هذه المرة الأولى التي أمسك فيها بزمامي. لماذا هربت من الميدان؟ ولماذا أتوقف هنا وأحاول عبثاً إخفاء رأسي كالنعامة؟ إن الكارثة شيء يروع مجابهته! هراء!«.

نادى بصوت مرتفع: «أنظرون! مر بإعداد العربّة حالاً».

قال لنفسه ثانية: «نعم، يجب أن أرغم نفسي على السكوت، ويجب أن أقبض على زمام نفسي بشدة».

بمثل هذه التأمّلات كان ينشد لافريتسكي تخفيف حدة آلامه. ولكن ظلت هذه الآلام كما كانت مروعة وحادة، حتى إن إبراهيم أكسيا، التي لم يكن عمرها أكبر من عمرها العقلي فحسب، بل أيضاً أكبر من كل ملكاتها، هزت رأسها وشيعته بنظرات حزينة عندما انطلق بالعربة إلى المدينة، عدت الجياد وجلس منتصباً ساكناً، وسرح البصر مستقيماً على طول الطريق.

الفصل الأربعون

كانت ليزا قد كتبت رسالة إلى لافريتسكي الليلة الماضية تدعوه للمجيء ليراها في المساء، ولكنه عرج على منزله أولاً. لم يجد زوجته أو ابنته هناك، وأخبره الخادم أنهما قد توجهتا إلى دار آل كالييتين! ولقد ضايقه هذا الخبر وأثار سخطه، وفكر قائلاً: «يبدو أن فارفارا بافلوفنا قد عقدت العزم على ألا تتركني في سلام»، وفي قلبه يحتدم شعور غاضب، وراح يزرع أرض الحجرة إقبالاً وإدباراً، وهو يدفع في كل لحظة بعيداً عنه، تارة بيده وتارة بقدمه، لعبة من اللعب أو كتاباً من الكتب أو شيئاً يتعلق بالنساء يقع في طريقه، ثم نادى جوستين، وطلب منها أن ترفع كل تلك النفائات.

أجابت قائلة بالفرنسية بوجه جهم: «نعم يا سيدي»، وبدأت تعيد إلى الحجرة نظامها، وهي تنحني في رشاقة، وتُشعر لافريتسكي بكل حركة من حرركاتها بأنها تعدّه دُبّاً متوحشاً. وكان يرقب بإحساس واضح من الكراهية تعبيراً ساخراً على وجهها الذابل، ولكنه ما زال الوجه اللاذع الباريسي، ونظر إلى أكمامها البيضاء وميدعتها الحريرية وقبعاتها

الصغيرة، وأخيرًا أمرها بالانصراف، ثم بعد أن تردد طويلًا، إذ لم تعد فارفارا بافلوفنا إلى البيت، قرر الذهاب إلى دار آل كاليتين لاليزور مدام كاليتين (فلم يكن هناك ما يدفعه على دخول حجرة استقبالها، تلك الحجرة التي كانت تضم زوجته)، ولكن ليزور مارفا تيموفينا، وتذكر أن هناك سلمًا خلفيًا تستعمله الخادومات كان يؤدي إلى حجرتها مباشرة.

نفذ لافريتسكي خطته، وللمصادفة السعيدة التقى بشورتشكا في فناء الدار، فصحبته إلى حجرة مارفا تيموفينا، فوجد السيدة العجوز وحيدة على غير مألوف عادتها، وكانت حاسرة الرأس تجلس في أحد أركان الحجرة في استرخاء، وقد طوت ذراعيها على صدرها، وعندما وقع بصرها على لافريتسكي تولاها اضطراب شديد، فقفزت في عجلة من مقعدها، وبدأت تغدو وتروح هنا وهناك وكأنها تبحث عن قبعتها.

- آه! وهكذا قد جئت. ثم قالت في لجب (اضطراب) وهي تتحاشى النظر إلى عينيه.

- حسنًا، طاب يومك! حسنًا، ماذا... ماذا عسى أن نفعله؟ أين كنت بالأمس. حسنًا، لقد حضرت. حسنًا... نعم حسنًا، يجب أن... بطريقة أو بأخرى.

وتهاوى لافريتسكي على مقعد.

استمرت السيدة العجوز في حديثها: «حسنًا، فلتجلس، فلتجلس، هل صعدت إلى الطابق العلوي مباشرة؟ نعم، طبعًا. إيه! جئت لتعني بي، فشكرًا جزيلاً لك».

توقفت السيدة العجوز قليلاً، ولم يدر لافريتسكي ماذا يقول لها، ولكنها فهمت وقالت:

- ليزا... نعم، كانت ليزا هنا الآن.

واستمرت تتحدث وهي تربط وتحل أربطة حقيية شغلها: «إنها ليست بصحة جيدة. شورتشكا، أين أنت؟ تعالي هنا يا أمي، ألا تمكثين هادئة لحظة واحدة؟ ورأسي يؤلمني، إن الغناء أورثني هذا الصداع، وكذا الموسيقى».

- أي غناء يا عمتي؟

- ماذا! ألا تعرف؟ لقد بدأ من قبل بالغناء... ماذا تسميها؟ الثنائيات هناك. والغناء كله بالإيطالية تشي - تشي وتشا - تشا - كصوت عصفور رتيب، وبنغماتهما الممطوطة يظن المرء أنهما سوف يسحبان روحه تماماً من حناياه. إنه بانشين وزوجتك أيضاً، وما أسرع ما انتظم كل ذلك وبألفة كما لو كانا على صلة نسب قريب. وعلى كل حال يجب أن يعترف المرء أن الكلب أيضاً سيحاول أن يجد لنفسه بيتاً يلوذ به في مكان ما. فلا حاجة بالإنسان أن يموت في العراء، إذا لم يطارده الآخرون بعيداً عن بيوتهم.

أجاب لافريتسكي: «يجب أن أعترف بكل تأكيد أنني لم أتوقع هذا. كان ذلك يستدعي جرأة كبيرة».

- لا يا عزيزي، ليست الجرأة من جانبها، بل التقدير. وعلى أي حال، فليكن الله معها! تتواتر الأقوال بأنك سوف تبعث بها إلى لافريكي. فهل ذلك صحيح؟

- نعم، وسوف أهبها ذلك المنزل.

- وهل طلبت منك مالاً؟

- لم تطلب بعد.

- حسناً، لن يطول انتظار ذلك المطلب، ولكنني لم أنظر إليك حتى

الآن، هل أنت بخير؟

- على خير ما يكون.

صاحت السيدة العجوز: «شورتشكا! اذهبي وأخبري ليزافيتا

ميخائيلوفنا، إني أعني... لا... اسأليها.. هل هي في الطابق السفلي؟».

- نعم.

- حسناً، أجل. اسأليها أين وضعت كتابي؟ سوف تعرف كل شيء

عنه.

- حسناً جداً.

وبدأت السيدة العجوز تضج وتلغظ مرة أخرى، وتفتح الأدراج في

الصوان الصغير بجوار فراشها، وجلس لافريتشكي هادئاً في مقعده.

وفجأة سمع وقع أقدام خفيفة على الدرج... ودخلت ليزا.

وقف لافريتشكي وانحنى، وظلت ليزا في مكانها بجوار الباب.

بدأت مارفا تيموفينا مسرعة: «ليزا، ليزوتشكا، أين قد... أين قد

وضعت كتابي؟».

- أي كتاب يا عمتي؟

- كيف ذلك؟ عجباً! ذلك الكتاب، وعلى أي حال فإنني لم أستدعك، ولكن الأمر سواء. ماذا كنت تصنعين في الطابق السفلي؟ ها هو ذا فيدور إيفانوفتش قد حضر. كيف أنت والصداع؟
- لا أهمية له.

- أنت دائماً تقولين: لا أهمية له، ماذا تصنعون جميعاً في الطابق السفلي؟ تعزفون الموسيقى ثانية؟
- لا... إنهم يلعبون الورق.

- طبعاً، هي على استعداد لأي شيء. شورتشكا، أرى أنك تودين الانطلاق إلى الحديقة، فذهبي!

- لا. لا أريد الذهاب، يا مارفا تيموفيفنا.

- لا تناقشي من فضلك، اذهبي، فقد توجهت ناستاسيا إلى الحديقة وحدها. اذهبي وأبقي معها. ويجب أن تظهري الاحترام للسيدة العجوز.
وتركت شورتشكا الحجرة.

- ولكن أين قبعتي؟ أين عساها قد ذهبت؟

فقالت ليزا: «دعيني أبحث عنها».

- أبقى حيث أنت، أبقى حيث أنت! فإن قدماي لما يشلا بعد، ولا بد أن تكون في حجرة نومي.

وانصرفت مارفا تيموفيفنا بعد أن ألقت نظرة من طرف خفي. ولقد تركت الباب مفتوحاً في بادئ الأمر، ولكن عادت فجأة وأغلقت من الخارج.

ومالت ليزا إلى الوراء في مقعدها، وأخفت وجهها صامتة في يديها.
وظل لافريتسكي واقفاً حيث كان.

وقال أخيراً: «هذه هي الحال التي سيري عليها أحدنا الآخر!».
تركت ليزا يديها تسقطان من أمام وجهها وأجابت بحزن: «نعم.
لقد حل بنا القصاص سريعاً».
ردد لافريتسكي القول: «حل بنا القصاص! ولماذا حل بك
القصاص أيضاً؟».

نظرت إليه ليزا ولم تعبر عيناها عن الأسف أو القلق، ولكن بدا
أنهما صارا أصغر وأوهى مما ألفناه، وغاض ماء الشباب من وجهها،
واختفى لون شفيتها المنفرجتين هوناً ما.

واختلج قلب لافريتسكي بالأسف يخالطه الحب.
همس قائلاً: «لقد كتبت إليّ تقولين: إن كل الذي بيننا قد انتهى،
نعم. لقد انتهى كل شيء قبل أن يبدأ».

قالت ليزا: «يجب علينا أن ننسى كل ذلك، وأنا مسرورة لمجيئك.
كنت على وشك أن أكتب لك. ولكن الأمور أفضل كما هي. وما علينا
إلا أن نفيد من هذه الدقائق القليلة بقدر المستطاع؛ فعلى كل منا فرض
يجب أن يؤديه، وأنت يا فيدور إيفانوفتش يجب أن تصالح زوجتك».

- ليزا!

- إنني أتوسل إليك أن تفعل ما أشرت عليك به، وبهذا فقط يمكن
التكفير عن كل ما وقع. تدبر الأمور وسوف لا ترفض لي رجاء.

- ليزا! أرجوك! أنت تطالبين بالمستحيل. أنا على استعداد أن أفعل كل ما تأمرين به، ولكن أن أصالحها الآن! أنا راض بكل شيء، ولقد نسيت كل شيء، ولكني لا أستطيع أن أعصف بقلبي، إنني أطمع في بعض عطفك، إن هذا لقاس وعنيف!

- ولكني لا أسألك أن تفعل ما تقول إنه مستحيل. لا تعاشها إذا لم تكن مستعداً حقاً لأن تفعل ذلك، ولكن تصالح معها.

أجابت ليزا وهي تخفي وجهها مرة أخرى بيديها: «وتذكر ابتك. وبالإضافة إلى ذلك فإني أرجو أن تصالحها من أجل خاطري».

قال لافريتسكي من بين أسنانه: «حسنًا جدًّا، افرضي أنني قد فعلت هذا. وفي هذا الإجراء قيامي بواجبي، حسنًا، ولكن أنت... في أي عمل يكون واجبك؟».

- ذلك ما أعرفه معرفة تامة.

ارتعش لافريتسكي.

سأل قائلاً: «من المؤكد أنك لم تقرري الزواج من بانشين؟»

أجابت ليزا، وعلى شفيتها ابتسامة تكاد لا تبين: «أوه، لا!».

صاح لافريتسكي: «آه! ليزا، ليزا! يا لها من سعادة عظيمة تلك التي كانت في انتظارنا!».

نظرت إليه ليزا ثانية.

- والآن عليك أن ترى يا فيدور إيفانوفتش، أن السعادة لا تنبت من نفس الإنسان، ولكنها هبة الله.

- نعم؛ لأنك...

وعلى غرة انفتح باب الحجرة المجاورة، ودخلت مارفا تيموفينا حاملة قبعتها في يدها.

قالت وهي تقف بين ليزا ولافريتسكي: «لقد نالني عنت كثير حتى وجدتها. لقد دفعت بها في مكان قصي بنفسي. لي الله، انظر كيف فعلت الشيخوخة بي! ولكن على كل حال، فالشباب ليس أفضل. حسنًا، هل ستصحب زوجتك إلى لافريكي؟» أضافت قائلة وهي تتجه نحو لافريتسكي.

أضاف قائلاً بعد وقفة قصيرة: «أذهب إلى لافريكي معها! أنا؟... لا أدري».

- ألا تزور الذين في الطابق السفلي؟

- ليس اليوم.

- حسنًا، طيب جدًا، افعل ما يحلو لك. ولكن أنتِ يا ليزا، يجب أن تنزلي إلى الطابق السفلي، على ما أظن، آه! يا أعزائي لقد فاتني أن أعطي أي حب لطائر الدغناش، أيضًا، انتظر قليلاً وسأعود حالاً.

واقترب لافريتسكي في سرعة من ليزا.

بدأ قائلاً: «ليزا»، بصوت ملؤه الضراعة والتوسل: «نحن على وشك الفراق إلى الأبد، وقلبي حزين غاية الحزن. أعطيني يدك عند الفراق».

رفعت ليزا رأسها ونظرت عيناها المكدودتان -وقد كادت تفقدان بريقهما- إليه بعزم وثبات.

- لا.

وسحبت يدها التي كانت قد اعتزمت أن تقدمها إليه، واستطردت قائلة: «لا يا لافريتسكي (كانت هذه هي المرة الأولى التي تناديه فيها باسمه مجردًا) سوف لا أعطيك يدي. لماذا أفعل؟ الآن فلتتركني، أضرع إليك. أنت تعرف أنني أحبك... نعم إني أحبك!» وأضافت قائلة بلهجة التأكيد: «ولكن لا. لا» ورفعت منديلها إلى شفيتها.

– وأخيرًا إذن، أعطيني ذلك المنديل.

صر الباب وانزلق المنديل إلى ركبتي ليزا، والتقطه لافريتسكي قبل أن يتسع الوقت لسقوطه على أرض الحجرة، وسرعان ما دسه في جيبه، وحينئذ واذ هو يستدير، اصطدم بنظرة مارفا تيموفينا.

وقالت السيدة العجوز: «يا ليزوتشكا، أظن أن أمك تناديك».

فنهضت ليزا لفورها من مقعدها، وغادرت الحجرة.

وجلست مارفا تيموفينا في ركنها ثانية. وكان لافريتسكي على وشك الاستئذان في الانصراف منها.

فقالت له فجأة: «فيديا!».

– ماذا يا عمتاه؟

– أرجوك... هل أنت رجل شريف؟

– آمل ذلك.

– هم! حسنًا. إذن عدني أنك سوف تسلك سلوك الرجل الشريف.

– بالتأكيد. ولكن لماذا تسأليني هذا الوعد؟

- أعرف السبب تمام المعرفة. وكذلك أنت تعرفه أيضًا يا صديقي الطيب^(١)، ولما لم تكن أبله، فسوف تدرك لماذا أطلب منك هذا إذا ما تدبرت الأمر قليلًا. والآن وداعًا يا عزيزي، وشكرًا لمجيئك للسؤال عني، ولكن تذكر ما قلت لك يا فيديا، الآن دعني أقبلك. آه، يا عزيزي إن حملك لباهظ ثقل ينقض ظهرك وأنا أعرف ذلك. ولكن لا يوجد إنسان يظن أن حملة خفيف. لقد جاء وقت كنت أحسد فيه الذباب، وظننت أن في الحياة أناسًا سعداء، ولكن ذات ليلة سمعت ذبابة تغني بين مخالب العنكبوت، وهكذا ظننت أن الذباب أيضًا له متاعبه. ما الذي يمكن عمله يا فيديا؟ ولكن تذكر ألا تنسى أبدًا ما قد قلته لي. والآن فلتركني.. اتركني.

غادر لافريتسكي البيت من الباب الخلفي، وما كاد يصل إلى الشارع حتى جرى خلفه الخادم وقال: «لقد أخبرتني ماريا ديمتريفنا أن تذهب إليها».

بدأ لافريتسكي الحديث: «خبرها أنني لا أستطيع الذهاب الآن». استمر الخادم في حديثه قائلاً: «لقد أخبرتني أن أرجوك رجاءً خاصًا. لقد أخبرتني أن أقول لك إنها وحيدة». سأل لافريتسكي: «إذن لقد انصرف زائروها؟».

أجاب الخادم: «نعم» وعلى شفثيه شبه ابتسامة عريضة.

هز لافريتسكي كتفيه، وتبعه إلى المنزل.

(١) المعنى الحرفي: أيها المحسن الجواد أو الراب (أب بالترية).

الفصل العاوي والأربعون

كانت ماريا ديمترييفنا وحيدة في مخدعها، تجلس في مقعد كبير مريح تنشق ماء الكولونيا، وإلى جانبها منضدة صغيرة عليها كوب به ماء زهر البرتقال. كانت بادية الانفعال، كما بدا أن شيئاً ما يثيرها ويقلقها.

دخل لافريتسكي الحجرة.

وقال وهو ينحني بفتور: «لقد طلبت مقابلتي».

أجابت ماريا ديمترييفنا: «نعم»، ثم أخذت جرعة ماء صغيرة واستطردت: «لقد سمعت أنك صعدت إلى الطابق العلوي مباشرة إلى عمتي، ولذا أخبرت الخادم أن يطلب منك الحضور لمقابلتي. إني أريد أن أتحدث إليك، فتفضل بالجلوس».

أصعدت ماريا ديمترييفنا الزفرات، واستمرت في حديثها قائلة: «أنت تعلم أن زوجتك قد حضرت إلى هنا».

قال لافريتسكي: «إني أعلم تلك الحقيقة».

- حسناً... نعم... ذلك هو، قصدت أن أقول إنها كانت هنا، ولقد

استقبلتها، وهذا ما كنت أريد إيضاحه معك يا فيدور إيفانوفتش. لقد كنت، من المحتمل، جديرة بالاحترام من الجميع، فشكرًا لله! ولن أقبل، لقاء العالم جميعه، أن آتي أمرًا لا يليق بي. وعلى الرغم من أنني تبينت من قبل، أن هذا الأمر قد لا يروقك يا فيدور إيفانوفتش، ومع ذلك فلم أتمكن من التصميم على رفض استقبالها لصلة القربى التي تربطني بها عن طريقك. وأنا أطلب منك أن تضع نفسك مكاني. فأني حق لي أن أقفل بابي في وجهها؟ وأنت بالتأكيد تسلم معي بذلك.

أجاب لافريتشكي: «أنتِ تثيرين نفسك كثيرًا بغير داع يا ماريا ديمتريفنا، لقد فعلت كل ما هو صواب تمامًا، ولست غاضبًا على الإطلاق، فلم أقصد أبدًا أن أجرد زوجتي من حقها في رؤية معارفها، ولم أحضر اليوم لرؤيتك إلا لأنني لم تكن لدي الرغبة لمقابلتها. كان ذلك كل ما في الأمر».

صاحت ماريا ديمتريفنا قائلة: «آه! ما أسعدني أن أسمعك تقول ذلك يا فيدور إيفانوفتش! وعلى أي وضع من الأوضاع، لقد كنت دائمًا أتوقع الكثير من شعورك النبيل. أما عما أنا فيه من انفعال، فلا غرابة في ذلك، فأنا امرأة وأم. أما عن زوجتك، فلا يمكنني طبعًا أن أقيم نفسي قاضيًا بينك وبينها، ولقد صرحت لها بذلك. ولكن في الوقت نفسه لها من الفتنة والحسن ما يحمل الجميع على الرضى عنها».

ابتسم لافريتشكي وأدار قبعته في يده.

استمرت ماريا ديمتريفنا في حديثها، وهي تقترب منه قليلًا: «وهناك شيء آخر أردت أن أفضي إليك به يا فيدور إيفانوفتش، حبذا لو

رأيت كيف كانت تسلك باعتدال واحترام! لقد كان سلوكها مؤثراً حقاً. ويا حبذا لو أنك سمعت ما تحدثت به عنك! لقد قالت: «أنا مذنبه كل الذنب أمامه» قالت أيضاً: «أنا لم يكن بوسعي أن أقدره حق قدره» إني أؤكد لك أن ذلك ما قالته. يا لها من مَلَك، إنها نادمة جداً وإني لأعلن بمهابة أنني لم أر قط شخصاً نادماً هكذا».

قال لافريتسكي: «ولكن خبريني يا ماريما ديمترييفنا، إذا ما سمحت لي بالسؤال، لقد نمى إليّ أن فارفارا بافلوفنا كانت تغني هنا، فهل كان في إحدى لحظات ندمها أنها غنت، وإلا فكيف؟».

- كيف تبيح لنفسك أن تتحدث هكذا دون أن تشعر بالخجل من نفسك؟ لقد عزفت وغنت، فقط لتدخل السرور على قلبي، وبالأخص لأنني رجوتها في ذلك، بل لأنني أمرتها تقريباً أن تفعل ذلك. لقد رأيت أنها تعسة، تعسة جداً. وفكرت فيما عسى أن يصرفها قليلاً عن التفكير في تعاستها، وبالإضافة إلى ذلك، فقد سمعت أنها جملة الذكاء. ألا تمنحها بعض عطفك يا فيدور إيفانوفتش، فهي محطمة تماماً، ما عليك إلا أن تسأل جيديونوفسكي، لقد كانت منهارة تماماً، تماماً (قالتها بالفرنسية)، فكيف تذكر مثل هذه الأقوال عنها؟

لم يفعل لافريتسكي سوى أن هز كتفيه.

- وبالإضافة إلى ما ذكر، فيا لابتك أدوتشكا من مَلَك صغير! ويا لها من مخلوق صغير ساحر! فما أجملها! وما ألطفها! وما أحسن حديثها بالفرنسية! وتعرف الروسية أيضاً، فقد كانت تناديني يا عمتي بالروسية. أما عن الخجل، فأنت تعرف أن معظم الأطفال الذين في

سنها خجلون، أما هي فإن بينك وبينها شبهًا عظيمًا يا فيدور إيفانوفتش، فلها عيناك وحاجباك وكل ملامحك من هامتك إلى أخمص قدمك، أنت تمامًا. وعادة لا أحب هؤلاء الأطفال الصغار، ويجب أن أصرح بذلك، ولكني أحببت ابنتك الصغيرة حبًا جمًّا.

قال لافريتسكي فجأة: «ماريا ديمترييفنا، اسمحي لي بالاستفسار، لماذا تقولين كل هذا لي؟».

– لماذا؟

لجأت ماريا ديمترييفنا إل ماء الكولونيا واستعانت بجرعة ماء مرة أخرى: «لماذا أقول هذا لك يا فيدور إيفانوفتش؟ لأنك كما ترى أحد أقربائي، وأهتم بك اهتمامًا عظيمًا، وأعرف أن لك قلبًا كبيرًا. تدبر كلماتي يا ابن عمي، فأنا على كل حال امرأة مجربة ولا أُلقي الكلام على عواهنه. اغفر لزوجتك، أرجوك أن تغفر لها (امتلاّت عينا ماريا ديمترييفنا فجأة بالدموع) اذكر فقط الشباب، وعدم الخبرة وربما أيضًا القدوة السيئة؛ فإن أمها لم تكن من الطراز الذي يعرف كيف يقومها. فاصفح عنها يا فيدور إيفانوفتش، لقد نالت من القصاص ما فيه الكفاية».

فاضت الدموع من عيني ماريا ديمترييفنا وانحدرت على وجناتها، ولم تمسح ماريا هذه الدموع؛ فقد كانت تهوى البكاء. وفي الوقت نفسه كان لافريتسكي يجلس وكأنه على الشوك وفكر قائلاً: «يا إلهي الصالح! يا له من عذاب، ويا له من يوم عصيب كان هذا اليوم!».

عادت ماريا ديمترييفنا تقول: «إنك لا تجيب! إنني لم أفهمك! هل من المعقول أنك قاس هكذا؟ لا، لا أصدق ذلك، وأشعر أن كلماتي

قد أقنعتك. إن الله سوف يجزيك خير الجزاء لقاء صلاحك وإحسانك
يا فيدور إيفانوفتش. والآن تسلم زوجتك من يدي!».

قفز لافريتشكي من مقعده يكاد لا يعرف ماذا كان يفعله. وقفزت
ماريا ديمتريفنا أيضًا، وعبرت الحجرة بسرعة إلى الطرف الآخر من
الدريئة، ومن خلفه عادت ومعها مدام لافريتشكي، وبدت تلك السيدة
شاحبة كأنما كادت تفارقها الحياة، وقد خفضت بصرها إلى الأرض،
وكانها قد فقدت كل قوى تفكيرها وإرادتها واستسلمت تمامًا لماريا
ديمتريفنا.

نكص لافريتشكي خطوه.

صاح لافريتشكي: «لقد كنت هناك كل هذا الوقت!».

سارعت ديمتريفنا بالقول: «لا تلمها، لم يكن هنالك ما يحملها
على البقاء، ولكنني أردتها على البقاء، ووضعيتها خلف الدريئة. أما
من جانبها، فقد صرحت أن هذا يثير غضبك أكثر من أي وقت مضى،
ولكنني لم أصغ إلى هذا الاعتراض؛ لأنني أعرف بك أكثر منها، فتسلم
إذن زوجتك من يدي! اذهبي إليه يا فارفارا، ولا تخشي شيئًا، اركعي
عند قدمي زوجك (وهنا شدت ذراع فارفارا) ولتكن بركاتي...».

اعترض لافريتشكي قائلاً بصوت يهتز بانفعال شديد: «قفي
يا ماريا ديمتريفنا، يبدو أنك تفضلين المشاهد المثيرة للعواطف»؛ لم
يكن لافريتشكي مخطئًا، فقد كانت ماريا ديمتريفنا منذ أيام دراستها
الباكرة مولعة بالموثرات المسرحية «قد تدخل هذه المشاهد السرور
إلى نفسك، ولكنها قد تكون للآخرين غمًا وهمًا. وعلى أي حال من

الأحوال سوف لا أتحدث إليك؛ ففي هذا المشهد لا تؤدين الدور الرئيس على المسرح».

أضاف متسائلاً، وهو يتجه بنظره نحو زوجته: «ما الذي تريدينه مني يا مدام؟ ألم أفعل من أجلك كل ما في وسعي؟ لا تقولي إنك لست مسؤولة عن إثارة هذا المشهد، يجب ألا أصدقك؛ لأنك تعرفين أنه ليس بوسعي أن أصدقك. فماذا تريدين؟ إنك لماهرة، إذ إنك لا تفعلين شيئاً دون هدف. يجب أن تشعرني أن الحياة، كما اعتدت أن أعيشها معك من قبل، لم تعد متيسرة لي في وضعي الحاضر؛ لا لأنني غاضب عليك، ولكن لأنني أصبحت رجلاً مختلفاً، ولقد أخبرتك بذلك في اليوم نفسه الذي عدت فيه، وفي ذلك الوقت اتفقت معي في عقلك، ولكن، ربما تريدين استرداد اعتبارك أمام الرأي العام. إن مجرد حياتك في منزلي لا تعني لك إلا قليلاً، فأنت تستهدفين الحياة معي في بيت واحد. أليس كذلك؟».

أجابت فارفارا دون أن ترفع عينيها عن الأرض: «إنني أستهدف صفحك».

وأعادت ماريًا ديمتريفنا القول: «إنها تستهدف صفحك».

وهمست فارفارا: «وليس من أجل خاطري، ولكن من أجل خاطر آدا».

وردت ماريًا ديمتريفنا القول: «ليس من أجلها، ولكن من أجل آدا ابتك».

قال لافريتسكي بشيء من الغباء: «حسنًا جدًا! ذلك ما تريدين؟ حسنًا إنني أوافق حتى على ذلك».

رمقته فارفارا بافلوفنا بنظرة خاطفة، وصاحت ماريا ديمتريفنا قائلة: «شكرًا لله!» وأمسكت بذراع فارفارا مرة أخرى، وبدأت تقول مرة أخرى: «خذها إذن من يدي».

قاطعها لافريتسكي قائلاً: «قفي، إنني أقول لك! سوف أوافق على العيش معك يا فارفارا بافلوفنا» واستمر في حديثه: «وأعني بذلك أنني سوف آخذك إلى لافريكي، وأعايشك أطول وقت ممكن ثم أرحل. ولكن سوف أزورك من آن لآخر. وأنت ترين أنني لا أبغي خداعك، فقط لا تسأليني زيادة على ذلك. سوف تضحكين مني إذا حققت رغبة قريبتني المحترمة وقربتك إليّ إذا أكدت لك أن الماضي قد ولى مع أمس الدابر، وأن الشجرة التي اجتثتها فأس الحطّاب ستورق في غد، ولكني أرى هذا واضحًا. إنني يجب أن أستسلم، هذه الكلمات لا تحمل لك المعنى نفسه الذي تعنيه لي، ولكن لا أهمية لذلك، وسوف لا أتجنبك فيما بعد، وسوف أعاملك كزوجتي مرة أخرى...».

قالت ماريا ديمتريفنا وقد جفت دموعها منذ وقت طويل: «على أي وضع من الأوضاع، صافحها الآن على هذا الوعد».

أجاب لافريتسكي: «لما أخذع فارفارا بافلوفنا بعد، وسوف تصدقني، فهذه هي الحقيقة، سوف أحملها إلى لافريكي. ولكن تذكرني هذا يا فارفارا بافلوفنا، أن المعاهدة بيننا سوف تستنفد أغراضها بمجرد رحيلك من هنا. والآن دعيني أنصرف».

انحنى لكلا السيدتين وخرج مسرعًا.

ونادته ماريا ديمتريفنا قائلة: «ألا تأخذها معك؟».

قالت لها فارفارا بافلوفنا هامة: «دعيه وشأنه» ثم طفقت تعرب لها عن شكرها وامتنانها، وهي تطوقها بذراعيها، وتطبع قبلاتها على يدها قائلة: إنها قد أنقذت حياتها.

تفضلت ماريا ديمتريفنا بقبول ملاطفاتها، ولكنها لم تكن راضية عنها في الواقع، كما لم تكن راضية عن المشهد بأسره، ذلك المشهد الذي كابدت من أجل تدبيره جهدًا وعناء، فلم يكن فيه ما يثير العواطف. ومن وجهة نظرها كان على فارفارا أن تلقي بنفسها عند قدمي زوجها. ظلت تردد قائلة: «كيف لم تدركي ما قد قصدت من كلامي؟ وبالتأكيد أنني قلت لك اركعي!».

صرحت فارفارا بافلوفنا قائلة: «إن خير الأمور فيما وقع، يا عمتي العزيزة، فلا تنزعجي، فلقد كانت النتيجة تدعو إلى الإعجاب».

قالت ماريا ديمتريفنا: «حسنًا. على أي حال فهو بارد كالثلج، إن الحق أنك لم تذرفي الدمع، ولكن بالتأكيد فاضت دموعي أمام عينيه، إذن فهو يريد أن يوصد دونك الأبواب في لافريكي. كيف ذلك؟ لن يكون بوسعك مبارحة المنزل حتى لزيارتي! إن جميع الرجال قساة»، هكذا أنهت حديثها، وهزت رأسها هزة ذات معنى.

وقالت فارفارا بافلوفنا: «ولكن في جميع الأحوال يمكن للنساء تقدير الصلاح والكرم» وحينئذ نزلت على ركبتيها ببطء، وطوقت

بذراعيها خصر ماريا ديمترييفنا تطويها كاملاً، وأخفت وجهها في حجر تلك السيدة. كان ذلك الوجه المختبئ يحمل ابتسامة، ولكن بدأت دموع ماريا ديمترييفنا تفيض من جديد.

أما لافريتسكي فقد عاد إلى بيته، وقبع في عقر حجرة خادمه الخاص، وأوحد دونه الأبواب، ثم ألقى بنفسه على الأريكة وبقي راقداً حتى الصباح.



الفصل الثاني والأربعون

كان اليوم الثاني يوم أحد، ولم توقظ الأجراس التي صلصلت معلنة القداس الباكر لافريتسكي، إذ لم يغمض له جفن طول الليل، ولكن هذه الأجراس قد ذكرته بيوم أحد آخر، عندما ذهب إلى الكنيسة نزولاً على رجاء ليزا، فنهض مسرعاً؛ فقد أسر إليه صوت معين غامض أنه يجب أن يراها في ذلك اليوم، فغادر المنزل في هدوء آمرًا الخادم أن يخبر سيده فارفارا بافلوفنا التي ما زالت نائمة بأنه سوف يعود على الغداء، وحينئذ أسرع الخطى حيث كانت الأجراس تناديه بصوتها الموحش الرتيب.

وصل مبكراً، وكان لا يوجد أحد في الكنيسة، وكان قارئ يتلو الساعات في الخورس (جوقة المرتلين في الكنيسة)، وكان صوته الذي تقاطعه سعلة في بعض الأوقات، يجلجل رتيباً مملاً في ارتفاعه وانخفاضه على التوالي، وجلس لافريتسكي على مقربة من الباب، ووصل جمهور العابدين الواحد تلو الآخر، وكانوا يتوقفون ويرسمون إشارة الصليب، وينحنون في كل الاتجاهات. وكان يتردد صوت وقع

أقدامهم عاليًا في الفضاء الصامت الذي كاد يكون خاليًا، ويتردد صدهاء على طول السقف المقبوء (المعقود)، وركعت سيدة عجوز واهنة التفتت في عباءة بالية رثة ذات غطاء للرأس والرقبة، ركعت بجانب لافريتسكي وصلت بحرارة وحماسة، ولقد عبر وجهها الأصفر المجعد وفمها الخالي من الأسنان عن عاطفة قوية جياشة، وكانت عيناها الحمراءوان تحمقان إلى أعلى، دون حراك، في الرسوم المقدسة التي تحملها الأيقونات، ولم تنفك يداها الباديتا العظام عن الخروج دون انقطاع من تحت عباءتها، ولم تتوقفا عن رسم إشارة الصليب، بحركات بطيئة قوية، وهي تضغط بأصابعها ضغطاً مضطرباً على جبينها وجسمها. ثم دخل الكنيسة فلاح مكتئب الوجه كثيف اللحية، أشعث الشعر، مهلهل الثياب، وخر راكعاً، وراح لتوه يرسم إشارة الصليب على وجهه، ويخر على الأرض ويلقي برأسه إلى خلف ويهزها بعد كل ركعة، لقد ارتسم الحزن المرير على وجهه، ووضح في كل حركة من حركاته، مما حدا بلافريتسكي أن يتوجه إليه ويسأله ما خطبه؟ تراجع الفلاح وعليه سمة الارتياب وعدم الثقة، ثم نظر إليه ببرود، وقال بصوت عاجل: «لقد مات ابني» وراح يواصل ركعاته مرة أخرى.

فكر لافريتسكي: «أي أحزان عميقة تلك التي تستأثر بهم، فتهزم عزاء الكنيسة في قلوبهم؟» وحاول الانصراف إلى الصلاة، ولكن بدا قلبه حزيناً متحجراً، وأفكاره بعيدة جداً، وظل منتظراً ليزا، ولكن ليزا لم تحضر، وامتألت الكنيسة رويداً رويداً بالمصلين، ولكنه لم ير ليزا بينهم. وبدأ القداس وقرأ الشماس الإنجيل وصلصل الناقوس معلناً الصلاة النهائية، وتقدم لافريتسكي خطوات قلائل، وفجأة وقع بصره على ليزا.

كانت قد جاءت إلى الكنيسة قبل أن يحضر، ولكنه لم يلحظها حتى الآن، كانت تقف في الفضاء بين الجدار وجوق الترتيل الذي التصقت به قدر الإمكان. لم تنظر حولها أبدًا، ولم تتحرك من مكانها إطلاقًا. لم يحول لافريتسكي نظره عنها إلى أن انتهت العبادة تمامًا. كان يودعها الوداع الأخير. بدأ ينفرط عقد الاجتماع، ولكنها ظلت في مكانها لا تريم ولا تتحرك. ظهر أنها تنتظر مغادرة لافريتسكي للكنيسة. وأخيرًا، على أي حال، رسمت إشارة الصليب للمرة الأخيرة، وانصرفت دون أن تنظر يمنة أو يسرة، ولم يكن يصحبها سوى وصيفتها.

تبعها لافريتسكي إلى خارج الكنيسة، ووصل معها إلى الشارع. كانت تهوول مسرعة وقد مال رأسها إلى أسفل، وانسدل نقابها فوق وجهها إلى أسفل كثيرًا.

قال بصوت مرتفع وهو يتظاهر بعدم الاكتراث: «طاب يومك يا ليزافيتا ميخائيلوفنا، هل تسمحين لي بمرافقتك؟».

لم تحر جوابًا وسار بجوارها.

سألها وهو يخفض من صوته: «هل أنت راضية عني؟ لقد سمعت بما حدث بالأمس على ما أظن؟».

أجابت في همس: «نعم، نعم. كان ذلك طيبًا جدًّا» وأسرعت خطاها.

- إذن أنت راضية؟

أنت ليزا بإشارة فقط دليل الموافقة.

وبدأت، في الحال بصوت هادئ ولكنه ضعيف، «يا فيدور إيفانوفتش، لقد أردت أن أسألك صنيعاً، لا تحضر ثانية إلى منزلنا. ارحل سريعاً. من المحتمل أن يرى أحدنا الآخر بين الفينة والفينة في يوم أو في آخر... بعد سنة في مثل ذلك اليوم، ربما. ولكن الآن أرجوك أن تفعل هذا من أجلي، فباسم الله أناشدك أن تعمل ما رجوتك من أجله!».

- «إني على استعداد أن أطيعك في كل شيء يا ليزافيتا ميخائيلوفنا، ولكن هل يمكن أن نفترق على هذه الصورة؟ هل من المحتمل ألا تقولي كلمة واحدة لي؟

- «إنك تمشي هنا بجواربي يا فيدور إيفانوفتش، ولكنك بعيد جداً، بعيد بعداً شاسعاً عني، وليس أنت فقط، ولكن...»

صاح لافريتسكي: «استمري، أتوسل إليك! ماذا تعنين؟».

- «سوف تسمع، فربما، ولكن مهما يكن الأمر، فأرجو أن تنساه... لا، لا تنسني... تذكرني.

- «أنساكِ!

- «كفى، وداعاً، أرجوك ألا تتبعني.

بدأ لافريتسكي: «ليزافيتا...».

كررت القول: «وداعاً، وداعاً!» وحينئذ أرسلت نقابها إلى أسفل أكثر من ذي قبل على وجهها، وسارت في حال سبيلها، وهي تكاد تعدو في سيرها.

شيعها لافريتسكي بنظراته لبعض الوقت، ثم سار إلى نهاية الشارع

برأس منحني، وسرعان ما جرى تجاه ليم الذي كان سائرًا أيضًا، وقد أرخى قبعته إلى أسفل على وجهه حتى حاجبيه، وثبت ناظره على قدميه.

نظر كل منهما إلى الآخر لبعض الوقت في صمت.

سأله لافريتسكي في النهاية: «حسنًا، ماذا وراءك تريد أن تفضي به؟». أجاب ليم بصوت مملوء ثقة: «ماذا لديّ أفضي إليك به؟ ليس لديّ ما أقوله. الكل موتى ونحن موتى (قالها بالألمانية). هل ستذهب إلى اليمين؟».

- نعم.

- وأنا سأذهب إلى اليسار. إلى اللقاء.

وفي صباح اليوم التالي أخذ لافريتسكي زوجته إلى لافريكي، وقد سبقته أمامه في عربة مع آدا وجوستين، وتبعها في عربة صغيرة، وقد ظلت الفتاة الصغيرة طوال الرحلة لا تتحرك من نافذة العربة، فكل شيء كان يذهلها: الفلاحون والفلاحات، الأكواخ، الآبار (والعرائش) فوق رقاب الجياد، والأجراس الصغيرة المتدلية منها، وعدد الغربان، ولقد شاركتها جوستين دهشتها، وكانت فارفارا بافلوفنا تضحك دائمًا من ملاحظتهما وصيحاتهما، وكانت روحها المعنوية عالية جدًا، وقد كان لها مع زوجها بعض الإيضاحات قبل أن تغادر مدينة آو.

قالت له: «إنني أدرك موقفك» ومن تعبير عينيها أمكنه أن يرى أنها قد أدركت موقفه تمامًا: «ولكنك سوف تقر لي بحسنة واحدة على

الأقل. سوف تعترف بأنني شخص لين العريكة سهل الانقياد بحيث يمكن معاشتي. سوف لا أتدخل في شؤونك، ولن أضايقك، فكل ما أستهدفه هو تأمين مستقبل آدا، ولا أبغي أكثر من ذلك».

قال لافريتسكي: «نعم، لقد حققت كل أغراضك».

- لم يبق لي سوى حلم واحد الآن أطمع في تحقيقه، ألا وهو أن أدفن نفسي في عزلة دائماً، ولكنني أذكر عطفك دائماً.

فقال وهو يحاول أن يوقفها: «اصمتي! وكفي عن هذا الحديث!».

استمرت قائلة وهي تضع حدًا لحديثها الذي دبرته من قبل: «سوف أعرف كيف أحترم هدوءك واستقلالك».

حتى لافريتسكي رأسه كثيراً، وأدركت فارفارا أن زوجها شكرها في صمت.

وفي اليوم التالي وصلا لافريكي قرب المساء، وبعد مضي أسبوع ذهب لافريتسكي إلى موسكو بعد أن ترك خمسة آلاف روبل تحت تصرف زوجته، وفي اليوم التالي لرحيل لافريتسكي، ظهر بانشين الذي رجته فارفارا بافلوفنا ألا ينساها في عزلتها واستقبلته بأخلص الود والترحاب، وظلت الحجرات العليا في تلك الدار والحديقة نفسها حتى ساعة متأخرة من الليل تردد جنباتها صوت الموسيقى والغناء والحديث البهيج بالفرنسية. قضى بانشين ثلاثة أيام بصحبة فارفارا بافلوفنا، وعندما همَّ بوداعها، وهو يضغط يديها الجميلتين بحرارة، وعدّها بالعودة سريعاً ولقد وفى بوعد.

الفصل الثالث والأربعون

كان لليزا حجرة صغيرة خاصة بها في الطابق الثاني من منزل أمها، وهي حجرة مضيئة متقنة الترتيب، وبها سرير ذو سجف بيضاء، كما يوجد بها نضد صغير للكتابة، وعدد من أصص الزهر في أركان الحجرة وأمام النوافذ، وقد ثبتت مجموعة من أرفف الكتب على الحائط، وكذا تمثال المسيح مصلوبًا. وكان يطلق على هذه الحجرة، حجرة الأطفال، وكانت ليزا قد ولدت بها.

وبعد أن عادت من الكنيسة حيث رآها لافريتسكي، نظمت جميع الأشياء بعناية تفوق العناية المألوفة، ونفضت التراب عن كل محتوياتها، وفحصت كل أوراقها وخطاباتها التي جاءتها من صديقاتها وربطتها معًا بالشرائط، وأقفلت جميع أدراجها، وسقت أزهارها، وهي تربت على كل زهرة منها. ولقد فعلت كل هذا بتروٍّ وهدوء، وفي اهتمام الهادئ الذي تعبر عنه قسماات وجهها.

وفي نهاية المطاف وقفت ساكنة لا تريم ولا تتحرك في وسط
الحجرة، ونظرت فيما حولها نظرات بطيئة، ثم اقتربت من النضد
الذي تدلى فوقه تمثال المسيح مصلوبًا، وخرت ساجدة على ركبتيها،
ووضعت رأسها على يديها المعقودتين، وبقيت دون حراك بعض
الوقت، وسرعان ما دخلت مارفا تيموفينا الحجرة ووجدتها على هذه
الحال. لم تشعر ليزا بوصولها، خرجت السيدة العجوز من الحجرة على
أطراف أصابع قدميها، وسعلت بصوت مرتفع عدة مرات خارج الباب،
فنهضت ليزا مسرعة، وجففت عينيها اللتين لمعتا بدموع تجمعت فيهما
ولم تتساقط منهما.

- وهكذا أرى أنك قد ربت صومعتك الصغيرة من جديد.

وقالت مارفا تيموفينا وهي تنحني بشدة على شجرة ورد في أحد
أصص الزهر: «ما أذكى رائحتها!».

نظرت ليزا إلى عمتها وعلى وجهها سمة التأمل والتفكير.

سألت هامسة: «ماذا كانت تلك الكلمة التي استعملتها؟».

أجابتها السيدة العجوز غاضبة: «أي كلمة... ماذا؟» «إنه لأمر
مروع» استمرت في حديثها، وفجأة نزعَت قبعتها وجلست على فراش
ليزا: «إنه لأكثر مما يمكن أن أحتمل، هذا هو اليوم الرابع الذي أعاني
فيه كما لو كنت أغلي في مرجل، لم يعد بوسعي الادعاء أنني لا ألحظ
أي شيء. لا يمكنني احتمال رؤيتك تبكين، أن أرى كم شحب لونك
وذوى عودك، لا يمكنني، لا يمكنني».

قالت ليزا: «ولكن لماذا تقولين ذلك يا عمتي؟ ليس في أمري شيء... أنا...».

صاحت مارفا تيموفيفنا: «لا شيء! قل لي ذلك لشخص آخر، ولا تقوليه لي! لا شيء! ولكن من هي التي كانت تجثو على ركبتيهما الآن؟ لماذا؟ أهداب من تلك التي ما زالت مبللة بالدموع؟ لا شيء! لماذا؟ انظري إلى نفسك، ماذا فعلت بوجهك؟ أين ذهب عيناك؟ لا شيء! حقًا وكأنني لا أعرف كل شيء».

- أعطني فسحة من الوقت يا عمتي، وسوف يذهب كل هذا إلى غير رجعة.

- سوف يذهب إلى غير رجعة! نعم، ولكن متى؟ يا للعجب! هل من الممكن أنك أحببته كثيرًا؟ لماذا؟ إنه رجل عجوز يا ليزوتشكا. حسنًا، حسنًا، لا أنكر أنه رجل طيب، سوف لا يعرض، ولكن ما شأن ذلك؟ نحن جميعًا أناس طيبون. إن الدنيا ليست بمعزل في ركن، وسوف يوجد دائمًا كثير من الصلاح والتقوى».

- في استطاعتي أن أوكد لك أن كل هذا سوف يذهب إلى غير رجعة... إن كل هذا قد ولى إلى غير رجعة.

- أصغي إلى ما سوف أقول لك يا ليزوتشكا. قالت مارفا تيموفيفنا فجأة وهي تجلس ليزا بجوارها على الفراش، وهي تسوي شعر الفتاة، وتصلح من شأن رباط رقبتها وهي تتكلم: «يبدو لك في سورة تلك اللحظة، كما لو كان من المستحيل لجراحك أن تلتئم. آه يا حبيبي، إن الموت لا شفاء له. قل لي لنفسك: «سوف لا أستسلم كثيرًا من أجله!»

وسوف يدهشك أن تري كيف تسير الأمور سيرًا حسنًا، وبأي سرعة سوف يولي كل شيء إلى غير رجعة. فقط تذرعي بالصبر قليلًا».

أجابت ليزا: «يا عمته، إن كل شيء قد ذهب إلى غير رجعة، كل شيء قد ذهب إلى غير رجعة».

- ذهب إلى غير رجعة! كيف ذهب إلى غير رجعة؟ لماذا أصبح أنفك كمنقار الطائر حقًا، ومع ذلك ما زلت تقولين: «ذهب إلى غير رجعة» ذهب إلى غير رجعة حقًا!«.

قالت ليزا بانتعاش غير متوقع: «نعم، ذهب إلى غير رجعة يا عمتي. يا حبذا لو كنت فقط راغبة في معاونتي» ثم طوقت جيد مارفا تيموفينا بذراعيها.

- أتوسل إليك يا أعز عمّة أن تكوني صديقة لي، أتوسل إليك أن تساعديني، ولا تغضبي مني، وحاولي أن تفهميني.

- ولكن ما هذا كله، ما هذا كله يا أمي؟ لا تنزعيني، أرجوك سوف أصرخ طالبة الغوث بعد لحظة أخرى، لا تنظري إليّ هكذا، أسرعني وأخبريني ما معنى هذا كله؟

- أنا أريد....

وهنا دفنت ليزا وجهها في صدر مارفا تيموفينا، وقالت بصوت خفيض: «أريد أن أذهب إلى الدير».

وثبت السيدة العجوز من الفراش، وقالت:

- ارسمي إشارة الصليب يا ليزوتشكا، استجمعي حواسك. ماذا

عسى أن يكون وراءك؟ فلتعنك السماء!.

وفي النهاية تلعثمت قائلة: «ارقدي في فراشك قليلاً، يا حبيبة قلبي
إن مبعث هذا كله هو حاجتك إلى النوم يا أعز بنية».

رفعت ليزا عينيها وقد توردت وجناتها.

قالت: «لا يا عمتاه، لا تقولي ذلك، لقد رفعت الصلوات إلى السماء
أنشد توجيه الله ونصحه، ولقد انتهى كل شيء، وبلغت حياتي معكم
هنا أقصى مداها، فإن أمثال تلك الدروس لا تُلقي علينا عبثاً، بالإضافة
إلى ذلك إنها ليست المرة الأولى التي أفكر فيها في هذا الأمر. لم تكتب
السماء لي السعادة، وحتى في الوقت الذي كانت تغمرني فيه الآمال
في السعادة، كان يرتعش قلبي بين جوانحي. إنني أعرف كل شيء،
خطاياي وخطايا الآخرين، وكيف جمع أبي ثروتنا. أعرف كل شيء.
إن كل ما يجب أن أترجاه يجب أن أبلغه. إنني حزينة لفراقك وحزينة
لفراق أُمِّي وفراق لينوتشكا، ولكنه أمر لا مفر منه. إنني أشعر أنه أصبح
من المستحيل عليّ أن أعيش بينكم أكثر مما عشت، لقد ودعت كل ما
في المنزل وحييت ما فيه للمرة الأخيرة. إن نداءً خفياً يدعوني إليه. إن
قلبي حزين وإنني أرغب في أن أختفي عن الأنظار إلى الأبد. وأتوسل
إليك ألا تضعي العراقيل في سبيلي إلى تلك الغاية، وألا تحاولي أن
تشيني عن عزمي، ولكن أتوسل إليك أن تكوني لي معوَّناً على ذلك،
وإلا اضطررت أن أرحل بمفردي».

أصغت مارفا تيموفيفنا إلى ابنة أخيها في رعب، وقالت:

- إنها مريضة.

ثم فكرت قائلة: «إنها تهذي. يجب أن نستدعي الطبيب، ولكن أي طبيب؟ إن جيديونوفسكي قد امتدح طبيباً البارحة، وهو يكذب دائماً، ولكن من المحتمل أن يكون حقاً قد قال صدقاً هذه المرة».

ولكنها عندما تحققت أن ليزا ليست مريضة، وأنها لم تكن تهذي، ولما كانت ليزا تجيب دائماً على اعتراضات مارفا تيموفيفنا إجابة لا تتغير ولا تتبدل، فرعت لذلك كل الفرع، وأسفت له كل الأسف.

- ولكن من المؤكد أنك لا تعرفين يا حبيبة قلبي أي لون من العيش يقارفونه في الأديرة!

هكذا بدأت آملة أن تقنعها بالعدول عما انتوت، واستطردت: «ما الداعي، وسوف يطعمونك زيت نبات القنب الأصفر يا بنتي، ويلبسونك ثياباً خشنة، خشنة جداً. ويدعونك تخرجين في البرد، ولن يكون بمقدورك احتمال كل هذا يا ليزوتشكا. إن كل آرائك من صنع آجافيا وهي التي أخرجتك عن حواسك. ولكنك حين بدأت بالحياة، والحياة لمرضاة نزاعاتها فقط، فلماذا لا تعيشين أيضاً؟ وعلى أي حال من الأحوال، دعينا نموت في سلام، ثم افعلي ما بدا لك. ومن ذا الذي يعرف أن عذراء توارت في دير من أجل مثل هذا الشخص، من أجل لحية التيس - وليغفر لي الله - من أجل رجل! ما الداعي، إذا كان قلبك حزيناً، وجب عليك أن تقومي بزيارة دير، واضرعي إلى قديس، واطلبي من الكاهن أن يرفع من أجلك الصلوات، ولكن لا تضعي النقاب الأسود على رأسك يا بابا! يا ماما!».

ثم بكت مارفا تيموفيفنا بكاءً مرّاً.

حاولت ليزا أن تواسيها ومسحت دموعها من عينيها، ثم بكت أيضًا، ولكنها لم تتزحزح عما اعتزمت. وفي يأسها، حاولت مارفا تيموفينا أن تفيد من تهديداتها فقالت إنها سوف تميّط اللثام عن كل شيء إلى أم ليزا، ولكن ذلك أيضًا لم يثمر. وكان كل ما رضيت به ليزا أنها نزولاً على رغبة السيدة العجوز أن تؤجل تنفيذ مشروعها لنصف عام. وفي مقابل ذلك وعدت مارفا تيموفينا، إذا لم تغير ليزا رأيها بعد انقضاء الشهور الستة، فسوف تساعد بنفسها في هذا الأمر، وتبذل قصاراها في الحصول على موافقة مدام كاليتين.

وما إن حل فصل الشتاء، وعلى الرغم من الوعد الذي قطعته على نفسها بأن تدفن نفسها في عزلتها، فإن فارفارا بافلوفا التي كانت قد زودت نفسها بما فيه الكفاية من المال، رحلت إلى سانت بطرسبرج، وعشر بانشين لها هناك على شقة متواضعة، ولكنها جميلة، وكان بانشين قد غادر مقاطعة أو قبل أن تغادرها، وفي أثناء الجزء الأخير من مقامه هناك، افتقد بانشين تمامًا حسن مدام كاليتين وجمالها، إذ إنه ألقع عن زيارتها فجأة، ونادرًا ما تحرك بعيدًا عن لافريكي - لقد استعبدته فارفارا بافلوفا - استعبدته بكل معاني الكلمة، إذ لا توجد كلمة أخرى يمكن التعبير بها عن المدى غير المحدود لما فرضته عليه من نفوذ جائر.

أمضى لافريتسكي الشتاء في موسكو، وفي ربيع العام التالي علم بنياً ترهب ليزا في دير «ب» في أقصى أقاليم روسيا.

ختم

مرت ثماني سنوات وعاد الربيع ثانية.

ولكننا سوف نقول كلمات قلائل أولاً عن مصير ميخائيليفتش بانشين ومدام لافريتسكي ثم نودعهم إلى الأبد.

فبعد طول الحل والترحال والظعن والإقامة هنا وهناك، أصاب ميخائيليفتش نجاحاً، فقد عثر أخيراً على العمل الذي يناسبه، وحصل على وظيفة كبير مفتشين في أحد معاهد الحكومة التعليمية، وهو راض حقاً عن نصيبه، وتلاميذه «يقدمونه»، على الرغم من أنهم في الوقت نفسه كانوا يقلدونه. وبلغ بانشين مركزاً عالياً في خدمته، ويطمح في أن يرقى إلى رئاسة الإدارة التي يعمل بها. وهو الآن ينحني قليلاً في مشيته، ولا بد أن يكون هذا الانحناء تحت ثقل صليب فلاديمير الذي يتدلى في رقبة ويحنيه إلى الأمام. وأصبحت شخصية الموظف الكبير تطغي على شخصية الفنان فيه، وعلى الرغم من أنه ما زال في شرخ الشباب وميعة الصبا، فقد حال وجهه أصفر شاحباً ورأسه صار أنمص (رق

شعره) عن ذي قبل. وتوقف عن الغناء والرسم أيضًا، ولكنه يشغل وقته -خفية- بالأدب، فقد كتب كوميدية صغيرة بأسلوب «القول المأثور» وشأنه شأن أي مؤلف آخر يكتب، فهو الآن يقدم على مسرحه شخصية واقعية أو يعرض واقعة حقيقية، فقد قدم فيها غانية، ويقرؤها في ثقة واطمئنان على السيدات القليلات اللاتي يحطنه بالعطف والرعاية. ولكن لم يتزوج أبدًا وبقي عزبًا، على الرغم من الفرص الكثيرة الطيبة التي سنحت له ليسي عش الزوجية، وفارفارًا بافلوفنا ملومة في ذلك.

أما عن فارفارًا بافلوفنا فهي تقيم في باريس باستمرار، كما اعتادت من قبل؛ فقد فتح لها لافرييسكي حسابًا خاصًا مع صيرفي يعامله، ودفع مبلغًا ضخمًا يضمن به تحرره منها، تحرره من احتمال زيارتها له مرة أخرى على غير توقع منه، لقد تقدمت بها العمر أكثر وزادت بدانتها أكثر من ذي قبل، ولكنها بلا ريب ما زالت جميلة ترتدي ثيابها في ذوق جميل أيضًا، ولكل مثله العليا. ولقد وجدت فارفارًا بافلوفنا مثلها في مسرحيات مسيو ألكسندر ديماس الابن، فهي تغشى باستمرار وانتظام المسارح التي تظهر على خشباتها نساء من طراز عادة الكاميليا مصدورات مشبوبات العاطفة، والوصول إلى مركز مدام دوش يبدو لها أوج السعادة الإنسانية، وصرحت ذات مرة أنها لا تطمح لابنتها في مصير أسعد في الحياة. وعلى كل حال، فقد نتوقع أن ينقذ القدر مدموازيل آدا من مثل هذه السعادة. ولقد تغيرت من الطفلة البدينة المتوردة إلى فتاة مصدورة انفرط سمط أعصابها. وتناقص عدد المعجبين بفارفارًا بافلوفنا، ولكنهم لم يختفوا من حياتها. وسوف تحتفظ ببعض منهم على أي احتمال حتى نهاية أيامها في الحياة. ولقد كان أكثر المعجبين

المحدثين غيرة وأشدّهم حماسًا هو زاكوردالو - سكويير نيكوف، وهو ضابط متقاعد في الحرس الإمبراطوري، يبلغ من العمر الثامنة والثلاثين تقريبًا، له شوارب طويلة وجسم قوي البنيان منقطع النظر، ويسميه الفرنسيون الذين يترددون على صالون مدام لافريتسكي ثور أوكرانيا الكبير، ولم يكن من عادة فارفارا بافلوفنا أن تدعوه أبدًا إلى حفلاتها العصرية، ولكنه كان مستأثرًا بسحرها وجمالها تمامًا.

وهكذا.. مرت الأعوام الثمانية، وأشرق الربيع ثانية من السماء متألقًا بالسعادة، وابتسم ثانية للأرض والإنسان، وثانية ربت على الكون، فبدأ كل ما فيه يحب ويزهر ويغني.

لم تتغير مدينة آو إلا قليلًا، في غضون هذه الأعوام الثمانية، ولكن منزل مدام كالييتين صار، كما كان شابًا ثانية؛ فقد أشرقت جدرانها الحديثة الطلاء بلون أبيض يسر الوافدين، وألواح زجاج النوافذ المفتوحة تسطع ببريق أحمر تحت الشمس الغاربة، ومن خلال هذه النوافذ المفتوحة كان يتدفق إلى الشارع جرس طروب للأصوات الشابة المجلجلة، والضحك الذي لا ينقطع ولا يتوقف، وكان يبدو أن المنزل بما رحب يعج بالحياة ويفيض بمرح لا يقهر، أما سيدة البيت السابقة فقد أودعت مقرها الأخير منذ زمن طويل مضى، فقد ماتت ماريا ديمتريفنا بعد أن ترهبت ليزا. كما أن مارفا تيموفيفنا لم تعمر طويلًا بعد ابنة أخيها، فهما ترقدان جنبًا إلى جنب في مدافن المدينة. ولم تعد ناستاسيا على قيد الحياة، ففي خلال سبع سنوات متعاقبة اعتادت السيدة العجوز الوفية أن تذهب كل يوم لترفع الصلاة على قبر صديقتها، ثم حان حينها، وأودعت عظامها أطباق الثرى.

لم ينتقل منزل ماريا ديمتريفنا إلى أيدي غرباء عن الأسرة، لم يخرج عن نطاق أسرتها، فلم يذهب العش بدداً؛ فإن لينوتشكا التي شبت فأصبحت فتاة يافعة رشيقة، وخطيبها ذو رأس بخصلات من شعر بلون الكتاب، ضابط في سلاح الفرسان، وابن ماريا ديمتريفنا الذي تزوج منذ عهد قريب في سانت بطرسبرج، وقد وصل مؤخراً مع عروسه الشابة لقضاء الربيع في آو، وأخت زوجه وهي في الربيع السادس عشر من عمرها، وطالبة بأحد المعاهد لها عينان صافيتان ووجتان متوردتان، وشورتشكا التي شبت أيضاً وغدت جميلة الطلعة حسنة الصورة، كان هؤلاء جميعاً هم الشباب الذين هزوا جدران بيت آل كاليتين، فرددت صدى ضحكاتهم وأحاديثهم. ولقد تغير كل شيء في المنزل، وصار كل شيء ينسجم مع سكانه الجدد، فقد حل مكان الخدم المسنين الوقورين الذين عملوا في سابق الأيام، ولدان مرد يمتلئون مرحاً وضحكاً. وكان زوج من كلاب الصيد يندفع هنا وهناك ويتواثب هائجاً مائجاً فوق الأرائك في الحجرات، حيث اعتادت روسكا أن تدلف بوقار بعد أن لحقتها البدانة. وفي الإسطنبول زربت جياد كثيرة، منها ما هو ذو قوائم نظيفة يجري جرياً معتدلاً، ومنها جياد خب سريعة (تنطلق إلى وسط الحلبة) ومنها الناري الذي يعدو وعلى رقابها معرفات مجدولة للأماكن الجانبية، وكذا خيول للركوب من الرون (وادي نهر الرون). وكانت مواعيد الإفطار والغداء والعشاء يختلط بعضها مع بعض وتتداخل كلها معاً. وكانت تتردد في حديث الجيران عبارة «إن مثل هذه الحالات التي لم تعرف من قبل» قد حدثت.

وفي المساء الذي نحن بصدد الحديث عنه، فإن نزلاء دار آل كاليين، وأكبرهم سنًا خطيب لينوتشكا الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، قد انصرفوا إلى لعبة لم تكن معقدة الطبيعة جدًّا، ولكن كانت تبدو لهم مسلية جدًّا إذا ما حكمنا بضحكاتهم السعيدة.

وكانت هذه اللعبة أن يجري اللاعبون محاولاً كل منهم أن يمسك بالآخر، وكانت الكلاب أيضًا تجري وتنبع، وعصافير الكناري في أقفاصها أمام النوافذ، التي تشد حناجرها منافسة، فتزيد من الصخب الشامل بغنائها المجلجل الحاد النغمات، وعندما وصلت هذه التسلية الصاخبة إلى ذروتها، وقفت عربة صغيرة غطاها الوحل المتناثر، أمام البوابة الخارجية، وخرج منها رجل في الخامسة والأربعين من العمر تقريبًا، يرتدي ملابس الأسفار، وظل واقفًا وكأنه في حيرة من أمره.

ظل واقفًا بالبوابة دون حراك بعض الوقت، وهو يحملق في البيت بعينين فاحصتين، ثم دخل إلى الفناء من خلال الخادعة، وصعد الدرج ببطء. لم يقابل أحدًا في البهو، ولكن انفتح باب حجرة الاستقبال فجأة على مصراعيه، وخرجت شورتشكا تعدو من الحجرة، وقد اصطبغ لونها بحمرة الورد واندفع خلفها كل أفراد العصابة الشابة يتصايحون بصيحات مجلجلة. وفجأة وعند رؤية غريب مجهول توقفوا وخيم عليهم الصمت، ولكن الأعين البراقة التي حملت فيه ما زالت تحتفظ بتعبيرها الودي تجاهه، فلم تنقطع الوجوه الشابة النضرة عن الابتسام، وحينئذ اقترب ابن مارياديمترييفنا من الزائر، وسأله في أدب ماذا عسى أن يفعله من أجله؟

فقال الغريب: «أنا لافريتسكي».

أجابته صيحة ودية محببة، لا لأن جميع هؤلاء الشباب كانوا في فرط السرور لوصول أحد الأقرباء البعيدين الذي كاد يطويه النسيان؛ ولكن لأنهم كانوا على استعداد ليهللوا ويكبروا ويضحكوا لكل حدث يجلب السرور، وسرعان ما أحاطوا بلافريتسكي.

وكانت لينوتشكا بوصفها على معرفة قديمة به، أول من ذكرت اسمها، وهي تؤكد له أنه لو تراث قليلاً لتعرفت عليه بكل تأكيد، ثم قدمت إليه بقية أفراد الجماعة وهي تناديهم جميعاً ومعهم خطيبها، بأسمائهم المألوفة. ودخلت الزمرة كلها حجرة الاستقبال عن طريق حجرة المائدة. لقد تغير الورق الملصق على الجدران في الحجرات، ولكن الأثاث قد بقي على ما كان عليه. وتعرف لافريتسكي على المعزف (البيانو)، حتى منسج التطريز بجوار النافذة ظل تماماً حيث كان، وفي المكان القديم نفسه، وبدا أيضاً أن به القطعة نفسها من التطريز التي لم تُنجز بعد والتي كانت به منذ ثماني سنوات مضت. فأجلسوه في متكأ كبير وجلسوا بوقار حوله، ثم تلاحت الأسئلة والصيحات والفكاهات سريعة الواحدة تلو الأخرى.

قالت لينوتشكا ملاحظة في سذاجة: «يا له من وقت طويل منذ أن رأيتك لآخر مرة! ولم نر فارفارا بافلوفنا أيضاً!».

قاطعها أخوها بسرعة قائلاً: «لا غرابة، لقد حُملت إلى سانت بطرسبرج، ولكن فيدور إيفانوفتش قد عاش طوال ذلك الوقت في ضيعته».

- نعم، وماما قد لقيت ربها، منذ ذلك الوقت.

وقالت شورتشكا: «ومارفا تيموفينا أيضًا، وناستاسيا كاربوفنا»
واستمرت لينوتشكا قائلة: «ومسيو ليم».

فسأل لافريتسكي: «ماذا؟ هل مات ليم أيضًا؟».

أجاب كالتين الشاب: «نعم، ذهب من هنا إلى أودسا، وقد قيل إن
شخصًا ما أغراه على الذهاب إلى هناك ومات».

- ألا تعرف إذا ما كان قد ترك موسيقى ما من بعده؟

- لا أعرف، ولكن لا أظن ذلك.

خيم صمت عام على الجميع، وراح كل واحد من أفراد الجماعة
ينظر إلى الآخرين، وشمل جميع الوجوه الشابة ظل حزين.

وفجأة صاحت لينوتشكا قائلة: «ولكن ماتروس ما زال حيًا يرزق».
وأضاف أخوها قائلاً: «وجيديونوفسكي على قيد الحياة».

وبعث ذكر اسم جيديونوفسكي فورًا ضحكة مرحة.

استمر كالتين الشاب قائلاً: «نعم، إنه ما زال على قيد الحياة وما زال
على مألوف عاداته يقص القصص أيضًا. تصور فقط! هذه الرعاء هنا
معنا (مشيرًا إلى أخت زوجه، الطالبة) قد وضعت كمية من الفلفل في
علبة سعوطة بالأمس».

صاحت لينوتشكا قائلة: «وكيف كان يعطس» وانطلق ثانية ضحك
لا يقهر رددت جنبات المكان صدها.

قال كاليتين الشاب: «لقد وصلتنا بالأمس أخبار من ليزا» وللمرة الثانية خيم الصمت على الجماعة.

- إنها تتقدم تقدمًا مرضيًا وتسترد صحتها تدريجيًا الآن.
وسأل لافريتسكي بجهد: «هل ما زالت في الدير نفسه؟»
- نعم.

- هل تكتب لكم؟
- لا، أبدًا. إننا نستقي أخبارها من مصادر أخرى.
فحل بالمكان صمت عميق فجأة، وفكروا جميعًا قائلين: «ملك
طار في صمت وهدوء».

قال كاليتين مخاطبًا لافريتسكي: «ألا تذهب إلى الحديقة، إنها
جميلة الآن، على الرغم من أننا قد أهملناها قليلًا».

ذهب لافريتسكي إلى الحديقة، وكان أول ما رآه هناك ذلك المقعد
الطويل نفسه الذي قضى عليه مع ليزا لحظات قليلة سعيدة، لحظات لم
تتكرر. لقد حال لون ذلك المقعد أسود والتوى، ولكنه ما زال يذكره،
ولقد استأثر هذا شعور بالأسف الحي المقيم على الشباب الزائل
والسعادة التي ذاق طعمها.

سار جنبًا إلى جنب مع الشباب في الطرقات الصغيرة. بدت أشجار
الزيزفون أكبر سنًا عما كانت فيما مضى، وارتفع سمتها في الفضاء
أكثر في خلال السنوات الثمانية المنصرمة، وألقت ظلًا أكثر كثافة أيضًا.
وجميع الشجيرات الصغيرة، التي تنمو في ظل الدرج الكبير، أيضًا قد

ارتفعت إلى أعلى، وشجيرات التوت انتشرت في قوة وشدة، وأجمة شجر البندق قد تشابكت أغصانها الكثيفة. وكان يتضوع المكان من كل جانب بأريجٍ شذي يفوح من الغاب والغيل ومن العشب وزهر الليلاك.

– يا له من مكان عظيم نلعب فيه لعب الأرنب البري في مأزق!

وفجأة صاحت لينوتشكا عندما وصلوا إلى مرجة صغيرة تحيطها أشجار الزيزفون.

– هنا خمسة منا.

سألها أخوها: «ولكن هل غاب فيدور إيفانوفتش عن بالك؟ أم فاتك أن تعدي نفسك؟».

احمرت وجتتا لينوتشكا قليلاً.

وبدأت تقول متلعثمة: «ولكن هل يود فيدور إيفانوفتش في مثل سنه...».

وتدخل لافريتسكي قائلاً: «أرجو أن تنصرفوا إلى لعبكم، ولا تهتموا بي. سوف أشعر بالارتياح أكثر إذا عرفت أنني لا أضايكم. ولا ضرورة لأن تجدوا شيئاً أفعله، فنحن الشيوخ لنا وسائلنا التي لما تعرفوها بعد، وهي أفضل من كل تسلية، وهي الذكريات».

أصغى الشباب إلى لافريتسكي بأدب لائق، وإن كان فكهاً قليلاً، وكأنهم يصغون إلى معلم يقرأ عليهم درساً، ثم تركوه فجأة وجروا سريعاً إلى المرجة. وقف واحد منهم في الوسط، واحتل الآخرون أركان المرجة الأربعة بجوار الأشجار، وبدأت اللعبة.

ولكن لافريتسكي عاد إلى المنزل، ودخل حجرة الطعام، واقترب من البيانو ولمس إحدى نابضات الأنغام فتجاوبت مع صوت خافت، ولكنه كان صوتاً واضحاً، واعتزته رعشة اهتز لها قلبه بين جوانحه، وبذلك النغمة بدأ اللحن الملهم، ذلك اللحن الذي عزفه ليم مترعاً، ليم الذي عبر إلى عالم الأموات، عزفه في ليلة كانت أسعد ليالي العمر، وإذ أذقه كأس السعادة مترعاً. ثم عبر لافريتسكي إلى حجرة الاستقبال وظل قابلاً هناك وقتاً طويلاً لا يبرحها.

وفي تلك الحجرة التي كثيراً ما كان يلقي فيها ليزا، كانت تطوف صورتها أكثر وضوحاً أمام عينيه. وبدأت آثار طلعتها تشعره بوجودها حوله، ولكن حزنه لفقدائها كان ينكأ جراحه ويسحق قلبه، ولم يحمل فقدائها معه شيئاً من السكينة التي يوحى بها الموت. ما زالت ليزا تعيش في مكان ما، مكان قصي لم يعد يدركه البصر، وراح يفكر فيها كما كان يفكر فيها في واقع الحياة، لم يستطع أن يتحقق من الفتاة التي هام بها حباً في تلك الصورة الباهتة القائمة التي تشبه شبح الموتى، وهي تختبئ في رداء الراهبة الأسود وتحيطها سحب البخور.

ولم يستطع لافريتسكي أن يتعرف على نفسه أيضاً، إذا أتيح له أن ينظر إلى نفسه كما كان ينظر إلى ليزا من خلال أوهامه وخيالاته، ففي غضون هذه السنوات الثمانية بلغت حياته أزمته النهائية، تلك الأزمة التي يجربها الناس، والتي من دونها لن يستطيع إنسان أن يتأكد من بلوغه مبادئه ومثله ثابتاً لا يتزعزع حتى النهاية. لقد أفلح عن التفكير في سعادته، وفيما عسى أن يصلح من شأنه، لقد هدأ وتطامن على نفسه،

ولكن لماذا نخفي الحقيقة عن أنفسنا؟ لقد بلغ من العمر سنًا عالية، ولم يقف الأمر عندما تركته الشيخوخة على وجهه أو هيكله من آثار، ولكنه قد شاخ عقلاً أيضًا؛ لأنه - في الحقيقة والواقع - لمن الصعب أن نصنع ما يتحدث عنه الناس ألا وهو أن نحفظ بشباب القلب إذا ما شاخ الجسد. إن الجدير بالقناعة القمين بالرضى في خريف العمر هو الذي لا يفقد إيمانه بالخير، وأن يحفظ قوة إرادته، ويبقى على رغبته في العمل النافع النشط. وكان لافريتسكي خليفًا بالقناعة، وقد صار من ذوي الأملك حقًا، وتعلم حقًا كيف يفلح الأرض، وفي ذلك كد وتعب، لا لنفسه فحسب، ولكنه كدح وشقي بكل ما فيه من قدرة ليؤكد ويحقق ما يضمن رفاهية الفلاحين في ضياعه.

خرج لافريتسكي وذهب إلى الحديقة وجلس على المقعد الطويل الذي عرفه جيد المعرفة. وهناك في تلك البقعة الحبيبة وعلى مرأى من ذلك المنزل الذي فيه، على غير طائل، وللمرة الأخيرة، قد مد يديه إلى كأس الأمل الذي حفه حبب خمر الهناء الذهني المتلائي. إنه، وحيد، جائل شريد لا يستقر له قرار، وصيحات الجيل الجديد الشاب المرححة التي قد نسيته من زمن بعيد جاءت تتطائر إلى أذنيه وحملت في أناة وثبات إلى ماضي حياته.

اعتصر الأسى قلبه، ولكنه قد تحرر الآن من كل إحساس بالألم الماحق، فلم يعد له ما يخجله، وتعددت بين يديه أسباب السلوى؛ ففر قائلًا: «استمري في مرحك أيتها الأرواح الشابة العارمة!» ولم يكن في أفكاره شائبة الحقد «إن المستقبل في انتظاركم، وطريقكم في الحياة

عبر ذلك المستقبل لأيسر لكم وأسهل نسيًّا. وسوف لا تُرغمون كما أرغمنا، على أن تتلمسوا طريقكم لتناضلوا، وتسقطوا، وتهبوا من سقطتكم في ظلام مطبق. كان فرضًا علينا أن نكد ونجرع الألم في الكد، بما لنا من وسائل، وأن نثبت أمام الأعاصير حتى النهاية. وما أكثر الذين لم يصمدوا بيننا! ولكن دوركم في الحياة الآن هو العمل، وسوف تكون بركات الشيوخ من أمثالي معكم. أما أنا، فإني بعد اليوم الذي قضيته هنا، وبعد تلك العواطف والأحاسيس التي ذقتها، لم يبق لي إلا أن أستودعكم الله لآخر مرة، ولو أنني أفعل هذا في حزن وحسرة، إلا أنني أفعله دون أي شائبة من الحسد، ودون أن يخالجنني أي إحساس بالكآبة والحزن، وأنا أرقب الموت وأنتظر لقاء ربي، ومرحى بك، أيتها الشيخوخة الموحشة! ولتخمدني أيتها الحياة العقيمة المجدبة!!».

نهض لافريتسكي في هدوء، وانصرف في هدوء. لم يلحظ أحد انصرافه، ولم يحل دونه وهذا الانصراف. وجلجلت الأصوات المرحة أكثر في كل مرة، من خلف حوائط أشجار الزيزفون السامقة الشامخة الضخمة الخضراء، ودلف لافريتسكي إلى داخل عربته الصغيرة، وأمر حوزيه أن يعود به إلى المنزل دون أن يستحث الجياد.

«أتلك هي النهاية؟» فإن القارئ الذي لم يرو غلة نفسه الصادية ربما يسأل: «وما الذي حلَّ بلافريتسكي فيما بعد؟ وما الذي حلَّ بليزا؟» ولكن ماذا عسى يقول الإنسان عن أناس ما زالوا رهن الحياة، ولكنهم قد تواروا عن مسرحها؟ لما نتلفت إلى الوراء إليهم؟ قد ترامت الأنباء أن لافريتسكي قد زار الدير النائي الذي اختفت فيه ليذا ورآها، بينما

كانت تعبر من خورس إلى آخر مرت على مقربة منه وسارت قدمًا في ثبات وبخطوات الراهبة الصامته السريعة، ولم تلتفت إليه، ولم ير سوى خلجة كادت لا تلاحظ، تحرك أهداب العين الظاهرة له، وهي ما زالت تخفض وجهها الشاحب أكثر وأكثر، وأصابع يديها المعقودتين مزومة في سبحة صلاتها، وما زالتا تضغطان بعضهما بعضًا أكثر وأكثر.

ما الذي يراود فكر كل منهما؟ وأي إحساس يستشعرانه؟ من يدري؟ من سيخبر؟ إن للحياة لحظاتها ولها مشاعرها التي قد نبیح لأنفسنا الإشارة إليها، ولكن ليس من الخير أن نتحدث عنها طويلاً.



